لا إله إلا الله محمد رسول الله
رابطة العالم الاسلامي

ندوة المحاضرات

موسم حج ١٣٩٠ هـ

من

١٦ ذي القعدة ١٣٩٠ هـ الموافق ١٩٧١/١/٢٣

الى

٢٤ ذي الحجة ١٣٩٠ هـ الموافق ١٩٧١/٣/٢

هدية من مجلة رابطة العالم الإسلامي

ندوة المحاضرات

ندوة المحاضرات

موسم حج ١٣٩٠ هـ

ابتداءً من ١٦ / ١١ / ١٣٩٠ الى ٢٤ / ١٢ / ١٣٩٠ هـ

هدية من مجلة رابطة العالم الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الأمانة العامة

لرابطة العالم الاسلامي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين .

حضرات السادة :

أحييكم أطيب تحية ، وأرحب بكم أجمل ترحيب ، أحييكم بتحية الإيمان والاسلام ، تحيـة تحمل أريج الذكريات الخالدة لدعوة خالدة أضاءت الكون بالهدى والرشاد وملأت الدنيا بالخير والبركة والسداد .

وبعد : فإن الأمانة العـامة لرابطة العالم الاسلامي ليسرها أن تضيف اليوم صفحة جديدة الى سجل كفاحها في سبيل تحقيق الأهـداف السامية والأغراض النبيلة التي اضطلعت بأعبائها في ثقـة وإيمان ، تستمد من الله العون وتستلهم منه التوفيق والنجاح .

أيها السادة ،

في مثل هــذه الأيام المباركة من الأشهر الحرم ، وفي كل عام حيث تتجه الألوف المؤلفة نحو مهبط الوحي ومنبثق فجر الاسلام ، ليؤدوا نسكهم وليوفوا نذورهم وليعبدوا الله في تبتل وخشوع .

في مثل هــذه الأيام المباركة تهتبل الأمانة العامة الفرصة وتنتهزها مناسبة لتحقيق أهداف الرابطة التي شملهـا نظامها ونصّت عليها تعاليمها من « تبليغ دعوة الاسلام وشرح مبادئها وتعاليمها ودحض الشبهات عنها ومجاهدة المؤامرات الخطيرة التي يريد بهـا أعداء المسلمين فتنة المسلمين عن دينهم وتمزيق وحدتهم وأخوّتهم ، والنظر في القضايا الاسلامية بما يحقق مصالح المسلمين وآمالهم وحلّ مشاكلهم .

في مثل هذه الأيام المباركة ، تتقدم الأمانة العـامة الى نخبة من كبار العلماء وصفوة من خيار الأدباء ، تطلب منهم المساهمة في تحقيق هذه الأهداف الكريمة والأغراض النبيـلة ، فتجد لديهم القبول والترحيب ، وتتلقى منهم الاستجابة لدعوتها والتلبية لندائها ، تحدوهم الرغبـة المخلصة في خدمة الاسلام والدفاع عن العقيدة والحرص على نشر العلم وبث المعرفة . وهكذا تنبثق هذه الندوات وتقام هذه الاجتماعات . وفي هــذه القاعة (قاعة المؤتمرات لرابطة العالم الاسلامي) نستمع الى محاضرات ونصغي الى بحوث ودراسات . وإن في هذا التعاون المثمر بين الأمانة وحضرات العلمـاء والباحثين ، لمظهر من مظاهر تضامن كريم يرضى الله عنه ورسوله والمؤمنون إن شاء الله . وإن الأمانة العامة لتحرص على تسجيل هذا النشاط العلمي والنتاج الذهني في كتب مطبوعة تهديها الى الجمعيات والمعاهد وتوزعها على الأفراد ، رغبة في نشر العلم وحرصاً على بث المعرفة .

وإن الأمانة العـامة إذ تشكر إخواننا الذين استجابوا للدعوة وشاركونا في حضور هـذا الاجتماع والاستماع الى هذه المحاضرات ، نسأل الله الكريم أن يسدد خطانا وأن يهبنا التوفيق والنجاح لخدمة الاسلام والمسلمين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مكة المكرمة في ١٥ / ١١ / ١٣٩٠ هـ

الأمين العام
محمد سرور الصبان

بسم الله الرحمن الرحيم

من مزايا المسجد الحرام

لفضيلة السيد علوي مالكي

الحمد لله مولي عباده جلائل النعم ورافع لواء الاسلام على المعمورة من الحرم ، والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم سيدنا محمد ذي المواهب والمعجزات والكرم ، وعلى آله وأصحابه الذين شيدوا صرح الدين بالبرهان والسنان فوق هامات الأمم .

أما بعد ، فيسعدني أن أحاضركم في هذه الليلة المباركة من بلد الله الحرام عن المسجد الحرام ومزاياه التي اختصه الله بهـا ليكون ذلك أدعى الى كمال حبه وتعظيمه في القلوب أسأل الله تعالى أن يلهمنا الصواب انه سميع مجيب .

المسجد الحرام :

يطلق المسجد الحرام ويراد به الحرم ، وهذا هو الغالب في إطلاقه . قال الله تبارك وتعالى في سورة التوبة «إلا الذينَ عاهَدتمْ عندَ المسجدِ الحرام» وقد كان

العهد في صلح الحديبية عند حدود الحرم . وقال تعالى في سورة التوبة « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » . واتفق العلماء على أن المراد بذلك الحرم . وذكر الامام الماوردي في الحاوي في كتاب الجزية: أن كل موضع ذكر الله فيه المسجد الحرام في كتابه فالمراد به الحرم إلا في قوله تعالى « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسْجِدِ الحرام » فإنه أراد به الكعبة ، وقال ابن أبي الصيف اليمني أن الله تبارك وتعالى ذكر المسجد الحرام في كتابه في خمسة عشر موضعاً ، منها ما أراد به الكعبة كقوله تعالى « فولِّ وجهَكَ شطرَ المسجدِ الحرام» ومنها ما أراد به مكة كقوله تعالى «سبحان الذي أسْرى بعبدِه ليلاً من المسجدِ الحرام» فقد ورد أنه أسرى به من بيت أم هانيء بنت أبي طالب ، ومنها ما أراد به الحرم كقوله تعالى « إنما المشركونَ نجَسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام » .

الخمسة عشر

أما المواضيع التي أشار اليها الامام الماوردي فهي :

الاول: « قد نَرى تَقلُّبَ وجهِك في السماء فلَنُوَلِّيَنَّك قِبلةً ترضاها فولِّ وجهَك شطرَ المسجدِ الحرام » .

الثاني : « فولِّ وجهَك شطرَ المسجدِ الحرام وإنه لَلْحَقُّ من ربِّك».

الثالث : « ومن حيثُ خرجتَ فولِّ وجهَك شطرَ المسجدِ الحرام » .

الرابع « ولا تُقاتلوهم عندَ المسجد الحرام » .

الخامس : « ذلك لمن لم يكنْ أهلُه حاضِري المسجدِ الحرام » .

السادس : « والمسجدُ الحرامُ وإخراجُ أهْلِه منه » .

السابع : « أنْ صَدُّوكم عنِ المسجدِ الحرام » .

الثامن : « وهُمْ يَصُدُّونَ عنِ المسجدِ الحرام » .

التاسع : إلا الذينَ عاهَدْتُمْ عِندَ المسجدِ الحرام » .

العاشر : « وعِمارَةَ المسجدِ الحرام » .

الحادي عشر : « فلا يَقرَبوا المسجدَ الحرام » .

الثاني عشر : « سُبحانَ الذي أسْرى بعَبْدِهِ ليلاً من المسجدِ الحرام » .

الثالث عشر : « والمسجدُ الحرامُ الذي جعلناهُ للناسِ سَوَاء » .

الرابع عشر : « وصَدُّوكم عنِ المسجدِ الحرام » .

الخامس عشر : « لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ » .

فتبين بهذا أن كل هذه المعاني داخلة في الاسم المذكور كما دلّ على ذلك القرآن لكن العرف اذا قيل: اعتكفنا في المسجد الحرام، ودخلنا المسجد الحرام، وصلينا في المسجد الحرام، وكنا في المسجد الحرام، إنما يصرف الى المسجد المعروف الذي ثبتت مسجديته ويحرم على الحائض والنفساء الدخول فيه، واختص من بين مساجد الحرم والمتعددة بمزية حلول الكعبة فيه والطواف. وأما خصائص المسجد الحرام ومزاياه فإنها ثابتة للمسجد الحرام بالمعنى العام الذي يشمل الحرم كله وهي كثيرة تزخر بها كتب السنة المشرفة وفقه المناسك نقتصر على أهمها وأشهرها وهي :

(الاول)

ان فيه أول بيت وضع على الارض بنص القرآن قال تعالى « إنّ أول بيتٍ وُضعَ للناس للذي ببكّةَ مباركاً » .

(الثاني)

إن إحياء الكعبة بالحج في كل عام فرض من فروض الكفاية لما تفيده عمومات

الأحاديث الثابتة من الترغيب في الحج وفضله وحثّ الناس على ذلك ، وكذلك العمرة . وقد قال النبي ﷺ: (العمرة الى العمرة كفّارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) . وقـــال : (عمرٌ فترى وحجج نسق ينفين الفقر وميتة السوء) .

(الثالث)

إن الصلاة يحرّم فعلها في الاوقات الخمسة عند طلوع الشمس حتى ترتفع قدر رمح وعند الاستواء حتى تزول وعند الاصفرار حتى تغرب وبعد صلاة الصبح الى الطلوع وبعد صلاة العصر الى الغروب ، لما في الصحيح من النهي عن ذلك ، ويستثنى حرم مكة . ففي السنن الأربعة من حديث جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال : (يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحـــداً طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من ليل ونهار) . وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين . وفي رواية أخرجها لا صلاة بعـد الصبح إلا بمكة والمراد جميع الحرم والمعنى زيادة الفضل في تلك الاماكن فلا يحرم المقيم هناك من استكثارها وخصّ أحمد هذا بركعتي الطواف قال وهو الأشبه بالآثار ، وقال مالك وأبو حنيفة مكة كغيرها في المنع تقديماً لأحاديث المنع .

(الرابع)

ان الطواف تحية البيت يجوز فعله في هذه الاوقات أيضاً للحديث السابق وهو قول الشافعي وأحمد وبه قال مالك لكن يؤخر ركعتي الطواف الى وقت الجواز ومنعه أبو حنيفة . أما تحية بقية المساجد فالصلاة لما في الصحيحين عن عائشة أنه ﷺ أول شيء بدأ به الطواف ، قال العلماء ولو دخل المسجد والامام في مكتوبه فصلاها سقطت عنه تحية المسجد لأن القصد أن لا يدخل المسجد لاهياً .

(الخامس)

استحباب الغسل لدخول مكة ، فقد ذكر العلماء أن من آداب دخولها الاغتسال . وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه كان لا يقدم مكة إلا بات بذي طوى حتى يصبح ويغتسل ثم يدخل مكة نهاراً . ويُذكر عن النبي ﷺ أنه كان يفعل ذلك ، ولا فرق بين ان يكون الداخل محرماً او حلالاً ، وقد صرح بهذه المسألة الشافعي في « الام ».

(السادس)

إن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة الف صلاة فيما سواه من المساجد، لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «صلاة في مسجدي خير من الف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام» . والمعنى أن الصلاة فيه تفضل على الصلاة في مسجد الرسول ﷺ ، ويدل على ذلك أحاديث منها حديث ابن الزبير قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة في مسجدي هذا أفضل من الف في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة»، وإسناده على شرط الصحيح . ورواه أحمد والبزار وابن حبان ، وصححه ابن عبد البر في التمهيد . وحديث جابر أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة في مسجدي هـذا أفضل من الف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة الف فيما سواه ».

قال أبو بكر: فحسبت ذلك على هذه الرواية التي هي صلاة في المسجد الحرام أفضل من مـائة الف صلاة ، فبلغت صلاة واحدة في المسجد الحرام عمر خمس وخمسين سنة وستة أشهر وعشرين ليلة، وصلاة يوم وليلة في المسجد الحرام، وهي خمس صلوات ، عمر مائتي سنة وسبع وسبعين سنة وتسعة أشهر وعشر ليـالي « ذلكَ فضلُ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يشاءُ واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ » .

(السابع)

إن التضعيف لا يختص بالصلاة بل سائر أنواع الطاعات كذلك قياساً على ما ثبت في الصلاة والنظر الى الكعبة ، فألحق به ما في معناه من أعمال البر .

قال الحسن البصري : صوم يوم بمكة بمائة الف ، وصدقة درهم بمائة الف ، وكل حسنة بمائة الف .

وفي سنن ابن ماجه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من أدرك شهر رمضان بمكة فصامه وقام منه ما تيسر ، كُتب له مائة الف شهر رمضان فيما سواها وكُتب له بكل يوم وليلة عتق رقبة وفي كل يوم حملان فرسين في سبيل الله وفي كل ليلة حسنة » .

وروى البزار في مسنده عن ابن عمر مرفوعاً : رمضان بمكة أفضل من الف رمضان بغير مكة . قال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه البزار وفيه عاصم بن عمر ، ضعفه الأئمة أحمد وغيره ووثقه ابن حبان .

وفي حديث ابن عباس مرفوعاً قال : وفيه حسنات الحرم الحسنة بمائة الف حسنة . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الاسناد ، ورواه البيهقي .

(الثامن)

ذهب جماعة من العلماء الى مضاعفة السيئات كما تضاعف الحسنات ، وممن قال بذلك مجاهد وابن عباس وابن مسعود ، ومن أخذ بعموم الأدلة لم يحكم بالمضاعفة لقوله تعالى : « ومَن جاءَ بالسيّئة فلا يُجزى إلا مثلَها » ... ولقوله عليه السلام : « من همّ بسيئة وعملها كُتب له سيئة واحدة » . وحرر بعض المتأخرين النزاع فحمل المضاعفة على الكيفية لا على الكمية ، وقال معناه ان السيئات تتفاوت ، فمن عصى الملك على بساط ملكه ليس كمن عصاه في موضع بعيد عنه ، وعلى كل

فهذا يدل على تعظيمهم للحرم وخوفهم من الله عز وجل في مواضع الاجور أن يرتكبوا شيئاً من الفجور .

(التاسع)

العقاب على الهمّ فيه بالسيئة وإن لم يفعلها ، قال احمد بن حنبل: لو أن رجلا همّ أن يقتل في الحرم أذاقه الله من العذاب الأليم ثم قرأ « وَمَنْ يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلمٍ نُذِقْهُ من عذابٍ أليم ». وقال ابن مسعود ما من بلد يؤاخذ العبد فيه بالهم قبل الفعل إلا مكة وتلى هذه الآية «ومَنْ يُرِدْ فيه بإلحادٍ نُذِقْهُ من عذابٍ أليم» وعلى هذا فيستثنى ذلك من قاعدة الهم بالسيئة مع عدم فعلها .

(العاشر)

ان صيد الحرم حرام على الحلال والمحرم بالإجماع، ولقوله ﷺ: «ولا يُنفر صيدها» ونبه بالتنفير على الاتلاف لأنه اذا حرم التنفير فالإتلاف بالأولى وهو مضمون .

أما ما يؤذي كالوزغ والحيات والعقارب وما أشبه فهو مرخص في قتله لإيذائه لما جاء في السنة .

(الحادي عشر)

يحرم قطع شجرة وحشيشة على الحلال والمحرم لقول النبي ﷺ: «ولا يعضد شجرها..» إلا ما استثنى كالاذخر ونحوه. ولا ضمان في قطع شجر الحرمين عند مالك. وقد أساء من فعل ذلك ، قال مالك : ولم يبلغني في ذلك شيء ، وأما الشافعي فجعل في الشجرة الكبيرة بقرة وفيما دونها شاة، وأوجب أبو حنيفة القيمة، وهذا فيما ينبت بنفسه لا فيما ينبته الناس من البقول والزروع .

(الثاني عشر)

يختص ذبح نحر دماء الهدايا والقرابين في النسك بالحرم ، ويجب تفريق ذلك على مساكين الحرم سواء الغرباء والقاطنون ولو ذبحت في الحل لم تجز . ومثل ذلك كل ما يساق من الهدي للحرم، ودماء التمتع والقران وسائر ما يجب، وأفضل بقاع الحرم للذبح للحاج منى ، وللمعتمر المروة ، والحرم كله منحر .

(الثالث عشر)

ان من قصد الحرم دخله بنسك تعظيماً للحرم، إلا من تكرر دخوله كحطاب، واختلفوا فيمن دخله حلالاً ولم يكن خائفاً من قتال باغ، أو قاطع طريق، أو خائفاً من ظالم، لتعذر ظهوره بالنسك، كما اتفق عام الفتح، فلا يجب لأن رسول الله ﷺ دخل مكة وعلى رأسه المغفر ولو كان محرماً لم يلبسه .

(الرابع عشر)

لا دم على المتمتع والقارن من أهل مكة المستوطنين لقوله تعالى «ذلكَ لِمَنْ لم يكنْ أهلهُ حاضِري المسجدِ الحرام» والمراد بحاضريه من كانوا دون مرحلتين من مكة، وقيل من الحرم : وجهان وأصحها الاول .

(الخامس عشر)

لا يمكّن الكافر من دخول حرم مكة قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركونَ نجَسٌ فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعد عامهم هذا » . وروى الشافعي رحمه الله في مسنده أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا يجتمع مسلم ومشرك في الحرم».

بسم الله الرحمن الرحيم

معركة حنين

لسعادة الأستاذ محمد أحمد باشميل

أيها الاخوة المسلمون السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

مرحباً بكم في بلدكم مهبط الوحي ومبعث الإيمان الذي غمر بنوره كل أنحاء المعمورة .

موضوع محاضرتنا الليلة (كما قد علمتم) هو معركة حنين الحاسمة .

ان المعارك التي خاضتها القوات الاسلامية في العهد النبوي الزاهر بقيادة أشرف الخلق محمد ﷺ للقضاء على الوثنية ورفع راية التوحيد هي معارك كثيرة.

غير أنه من الناحية العسكرية والمصيرية يمكن القول .. ان أهم المعارك التي خاضها المسلمون بقيادة نبيهم العظيم ﷺ هي ست معارك :

١ — بدر الكبرى .

٢ — أحد .

٣ ـ الاحزاب .. والتي يسميها الكثير (بالخندق) .

٤ ـ خيبر .

٥ ـ بني قريظة .

٦ ـ وأخيراً حنين .

ونحن الآن وفي هـــذه العجالة لا يمكننا إلا أن نشير فقط الى نتائج المعارك الخمس الكبرى بدر وأحد والاحزاب وبني قريظة وخيبر كتمهيد للموضوع الرئيسي للمحاضرة وهو (معركة حنين) .

فبدر كانت اول معركة يخوضها النبي ﷺ وأصحابه ضد المشركين ، وكان انتصارهم فيها على المشركين أعظم انتصار في تاريخ الاسلام من حيث النتائج .. حيث ان انتصار النبي وأصحابه في تلك المعركة جعل المسلمين كل المسلمين يدخلون التاريخ من أوسع أبوابه .. فلولا انتصار المسلمين في معركة بدر الكبرى ما ظل حتى اليوم صوت المؤذن يدوّي بكلمة الله أكبر من شواطىء الادرياتيك والاطلسي والابيض المتوسط غرباً حتى شواطىء الباسفيك شرقاً . ولعل أصدق تعبير عن هذه الحقيقة هو تلك الكلمات التي توجه بها النبي الاعظم ﷺ الى ربه وهو يعبىء جيشه يوم بدر « اللهم ان تهلك هـذه العصابة ـ يعني المسلمين ـ لا تُعبد بعدها في الارض » .

أما في أحد ، فالمسلمون لم ينهزموا فيها بالمعنى الحقيقي (كما يتوهم الكثير) رغم الخسارة البشرية الكبيرة التي نزلت بهم وهي حوالي عشرة في المائة فقدوها من مجموع قواتهم المحاربة . ففي هـــذه المعركة التي نقلتها قريش الى عقر دار الاسلام المدينــة ، كانت تهدف قريش الى اجتثاث جذور الاسلام وسحق دولة الاسلام الوليدة ، ولكنها فشلت في ذلك فشلاً ذريعاً . فقد أنزل الجيش الاسلامي بالجيش القرشي في الصفحة الاولى من المعركة هزيمة منكرة رغم التفوق العددي

الساحق الذي تمتاز به قوات قريش حيث كان عددها ثلاثة آلاف بينما كان عدد القوات الاسلامية سبعمائة فقط .

وقد كان كل شيء يوحي على نحو ساحق ، بأن هزيمة قريش في معركة أحد ستكون مدمّرة ساحقة ، لولا الغلطة التي ارتكبها رماة النبل المسلمون في الجبل والتي بسببها حدثت الانتكاسة للجيش الاسلامي ففقد سبعين شهيداً بعد ان كان في ذروة انتصاره .. وهكذا فان كل ما حصلت عليه قريش من مكاسب في هذه المعركة هو سقوط سبعين شهيداً من المسلمين مقابل ستة وعشرين قتيلاً من المشركين . ثم عادت قريش الى مكة راضية من الغنيمة بالإياب . وهـذا (في العرف العسكري) لا يمكن وصفه نصراً بالمعنى الحقيقي ، لأن الانتصار ليس ميزانه كثرة القتلى وإنما تحقيق الأهداف . وقريش بالتأكيد فشلت في تحقيق الهدف الذي من أجله نقلت المعركة من مكة الى ضواحي المدينة ، وهو القضاء على الاسلام وإبادة المسلمين . وقد ذكرنا تفاصيل معركة أحد الحاسمة هذه في كتابنا الثاني من سلسلتنا التاريخية والمسمى بغزوة أحد . فليرجع اليه من أراد الاطلاع على تفاصيل هذه المعركة التاريخية الحاسمة .

أما في معركة الاحزاب فقد كان هناك تحالف يهودي وثني رهيب وضع المتحالفون لتحقيق أهدافه احد عشر الف مقاتل . وكان الهدف الرئيسي لهذا الحلف اليهودي الوثني هو غزو المدينة المنورة واحتلالها في عملية عسكرية صاعقة خاطفة ، لإنهاء الوجود الاسلامي فيها ومحوه الى الأبد .

وكان بالفعل غزواً مخيفاً رهيباً تزلزلت له قلوب المسلمين ، او لعل أصدق وصف للحالة التي كان عليها المسلمون التي لم تزد قواتهم المدافعة عن المدينة عن أكثر من الف مقاتل . كان أصدق وصف لتلك الحالة قوله تعالى « إذْ جاؤوكم مِنْ فوقِكم ومِنْ أسفلَ منكم وإذْ زاغتِ الأبصارُ وَبلغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتُلِيَ المؤمنون وَزُلزِلوا زِلزالاً شديداً » .

وقد فشل ذلك الغزو المخيف ونجت المدينـة من شره . فخرج المسلمون من هـذه المعركة كأقوى ما يكونون فأخذوا يشددون من قبضتهم على الجزيرة العربية . وقـد فصلنا أحداث هذا الغزو الرهيب في كتابنا الثالث (غزوة الأحزاب) .

أما في معركة بني قريظة (وهم من يهود المدينة الدخلاء) فقد كانت امتداداً لعدوان الاحزاب الرهيب . حيث غدر يهود بنو قريظة بالمسلمين ونقضوا الحلف الذي كان بين الفريقين. وانضم اليهود الى الاحزاب لضرب المسلمين في أدق ساعة مصيرهم . ولهذا (وعندما فشل عدوان الاحزاب وانسحبت جيوشهم) طوّق الجيش الاسلامي حصون الخونة من يهود بني قريظة لتأديبهم . فكانت النهاية إعدام ثمانمائة خائن من مقاتلة هؤلاء اليهود ، وقد فصلنا حوادث هـذا التأديب والتصفية العادلة في كتابنا الرابع (غزوة بني قريظة) .

أما معركة خيبر فهي أيضاً ذات جذور مرتبطة بعدوان الاحزاب الرهيب الذي استهدف الغزاة من ورائه محو الاسلام وإبادة المسلمين في المدينة . فمشروع عدوان الأحزاب الرهيب لم يولد إلا في خيبر ولم يخرج الى حيّز التنفيذ إلا من بين حصونها . فقد كان مشروع عدوان الاحزاب على المدينة مشروعاً يهودياً ، كان مبعثه أدمغة اليهود في خيبر ، وكان تمويله أيضاً من أموال اليهود في خيبر. وما الأعراب (وخاصة قبائل غطفان وأسد وفزارة وأشجع الذين هم العمود الفقري لذلك العدوان الرهيب) إلا مرتزقـة في جيش يهودي تم إعداده للقضاء على الاسلام والمسلمين في المدينة . ومن هنا كان لا بـد للمسلمين من تصفية اليهود في خيبر لأنهم يمثلون رأس الأفعى في كل عدوان على المسلمين ونبيهم وقطع الذنب دون الرأس لا يفيد شيئاً، وقد تمت هذه التصفية. وكانت تصفية شاقة كما فصلنا ذلك في كتابنا السادس الذي صدر آخر هذه السنة تحت عنوان (غزوة خيبر).

انقلاب ميزان القوى في الجزيرة :

لا شك أن انتصار المسلمين على المعتدين من اليهود والوثنيين في هذه المعارك الخمس الحاسمة قـــد جعل ميزان القوى في جزيرة العرب يتحول تحولاً خطيراً ومفاجئاً، لمصلحة المعسكر الاسلامي، وبصورة جعلت القائد الاعلى لهذا المعسكر (النبي الاعظم) ﷺ يشدّد من قبضته على دفة القيادة للجزيرة ويتجه بسرعة نحو تصفية الوثنية فيها تصفية كاملة .

فتح مكة :

ثم تُوّجت تلك الانتصارات العسكرية والمعنوية الرائعة التي أحرزها الاسلام على أعدائه ، تُوّجت هــذه الانتصارات بتحرير الجيش النبوي للعاصمة المقدسة مكة المكرمة من رجس الوثنية ، حيث تمّ له الاستيلاء عليهـــا في أوائل شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة. وبدخول الجيش النبوي مكة فاتحاً، انهار أعظم معقل للشرك والوثنية في جزيرة العرب كلها .

الزلزال الذي هز كيان الوثنية :

لقد كان استيلاء الجيش النبوي على العاصمة المقدسة مكة المكرمة، وتطهيره لها من دنس الشرك ورجس الوثنية ، بمثابة زلزال عنيف هز بقايا معاقل الوثنية وبقية جيوب المقاومة الشركية في جزيرة العرب كلها ، وخاصة مناطق الحجاز الواقعة شرقي مكة وفي جنوبها الشرقي ، حيث تقطن وتقيم أشرس وأعتى القبائل الحجازية من ثقيف وبني مالك وبني هـــلال وجشم وخثعم ، وعلى رأس الجميع قبائل (هوازن) التي تضاهي من حيث العدد والعدة والشراسة والصبر في القتال قبائل غطفان وأسد وفزارة وأشجع في نجد التي صفى الجيش النبوي معها الحساب وسحق قواها العدوانية حتى العظم .

هذه القبائل الحجازية الوثنية المحاربة الشجاعة ، لم يسبق لهـــا (منذ ظهر الاسلام) أن اشتبكت مع المسلمين في أية معركة جدية .. حيث كانت أكثر العمليات الحربية الحاسمة التي كان يقوم بها الجيش الاسلامي (حتى فتح مكة) ينحصر أكثرها في المناطق القريبة من المدينة ، حيث كانت هذه المناطق منطلقات لاعتداءات خطيرة متكررة يقوم بهـــا الوثنيون أو اليهود للقضاء على الاسلام والمسلمين .

موقع مكة في نفوس الوثنيين :

لم تكن مكة قبل تطهيرها من رجس الشرك عاصمة للوثنية القرشية فحسب، بل كانت عاصمة روحية مقـــدسة لجميع العرب الوثنيين على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم .

ولهذا كان وقوع مكة في يد الجيش النبوي شديد الوطأة على نفوس القبائل العربية ، التي ظلت حتى ذلك اليوم على دين الوثنيـــة ، وعلى عدائها السافر للاسلام كدين يدعو الى التوحيد وهدم الشرك والوثنية .

إلا أن رد الفعل بين الوثنيين في الحجاز ، نتيجـة سيطرة المسلمين على مكة كان متبايناً .. فقـد اكتفى كثير من هؤلاء الوثنيين بالتعبير فقط عن استيائهم وامتعاضهم لسيطرة الموحدين على مكة ، حيث لم يتحركوا على الصعيد العملي لإخراج الموحدين من مكة لتعود من جديد الى سلطان تعدد الآلهة .

تحرك هوازن لاخراج المسلمين من مكة :

والقبائل الوثنية الوحيدة التي تحركت على الصعيد العملي لإخراج النبي ﷺ وأصحابه من مكة بقوة السلاح ، هي قبائل هوازن الواقعـــة شرقي مكة ،

وقبائل ثقيف وبني مالك ومَن جاورهم من القبائل الواقعة ناحية الطائف جنوب شرقي مكة .

لقد كان العرب (عامة) ينظرون الى قريش نظرة تهيب مشوبة بشيء من التبجيل والإكبار باعتبارها في نظرهم النموذج الحي من حيث وحدة قبائلها السياسية وترابطها الاجتماعي ، وتوحيد قوتها العسكرية تحت قيادة واحدة .. كما أن قريشاً — من ناحية اخرى — هي من بين جميع العشائر ، لها مجلس شورى يتشاور فيه زعماؤها، ويتخذون القرارات الملزمة ، وهو (دار الندوة المشهورة).

لذلك كان زعماء قريش يسيطرون على النظام في محيطهم الوثني سيطرة تامة ، ويحلون الأزمات الداخلية ، ويواجهون المشاكل الخارجية ، عن طريق تشاورهم في دار الندوة . وهذا معروف لدى جميع قبائل العرب في ذلك العصر .

من هنا كان الوثنيون عامة ينظرون الى قريش ، وكأنها أهم قوة قادرة على الصمود (وباسم الشرك والوثنية) في وجه دعوة التوحيد ، والتصدي لقواتها المسلحة .

ولهذا فقد كان فزع العرب الوثنيين شديداً عندما استسلمت قريش لقوات الجيش النبوي ، ودخلت مكة ضمن دائرة النفوذ الاسلامي .

فقد اعتبر من تبقّى على الوثنية (وخاصة في منطقة الحجاز) اعتبروا سيطرة المسلمين على مكة وانتهاء كيان قريش الوثني ، من أخطر التحولات في مجرى الصراع القائم بين الاسلام والوثنية .

وأحس هؤلاء الوثنيون أن استسلام قريش ووقوع عاصمتها مكة في قبضة الجيش الاسلامي وتحت سلطان التوحيد ، سيكون ذا أثر مصيري فعّال على مستقبلهم ، وأن كيانهم الوثني بعد انكسار قريش (الام) أصبح في مهب العاصفة ، وخاصة القبائل ذات النفوذ والسلطان ، مثل هوازن شرقي مكة ، وثقيف وبني مالك جنوب شرقي مكة .

القيادة في هوازن :

وكانت اولى القبائل الوثنية التي انتابها هذا الشعور المزعج قبائل (هوازن) وثقيف وبني مالك وجشم وخثعم وبني نصر وبني سعد ، وكلهم عدنانيون .

فقد كانت هـذه القبائل أقرب القبائل الوثنية الى موطن الخطر الذي يهدد بقايا الوثنية بالزوال ، والمتمثل في الجيش النبوي ، الذي أصبح بعد فتحه مكة ، يرابط على مسافة عدة أميال من منازل أقرب قبيلة من هذه القبائل الوثنية .

وقد كانت أقوى هـذه القبائل وأشرسها في القتال والصبر في الحرب ، هي قبائل هوازن التي تمتـد مواطنها حتى حدود نجد ، بل بعض فخائذها يعدّ في القبائل النجدية . فكانت هذه القبائل هي المحرك والعمود الفقري للجيش اللجب الذي التحم مع المسلمين في وادي حنين . كما ان القيادة لكل التحالف القبلي ضد المسلمين كانت في هوازن هذه .

مالك بن عوف القائد :

وكان في هوازن شاب طموح مقدام بلغت شجاعته حد التدهور والطيش ، وكان على صغر سنه محارباً ممتازاً ، دلت على ذلك تصرفاته ، لوضع خطة معركة حنين ، التي بموجبها كسب الجولة الاولى فهزم الجيش الاسلامي عنـد الصدمة الاولى ، كما سيأتي تفصيله إن شاء الله .

هذا الشاب هو مالك بن عوف النصري الهوازني ، الذي أعلن النفير العـام ضد المسلمين ونصّب نفسه قائداً عاماً لهوازن ومن حالفها على حرب المسلمين ، فأخذ (بما امتاز به من جرأة وفصاحة وشجاعة وإقدام ، وهي أمور يعشقها العربي القبلي) ، أخذ يهيىء القبائل الممتدة من الطائف حتى حدود نجد ويعبىء شعورها ضد النبي ﷺ ، ويحشد الآلاف من رجالها ، لا للدفاع عن هوازن وأحلافها ،

وإنما للهجوم على المسلمين ، ينقل المعركة الى مكة المكرمة ، لضرب المسلمين فيها وإخراجهم منها .

وقد اتخذ القائد الشاب مالك بن عوف ، هـذا القرار بعد أن احتشد تحت لوائه أكثر من عشرين الف مقاتل ، من مختلف القبائل الوثنية ، التي كوّنت فيما بينها اتحاداً عسكرياً ، لمحاربة المسلمين .

اول انشقاق في التحالف الوثني :

ورغم نجاح سيد هوازن الشاب مالك بن عوف النصري ، في إقامة التحالف العسكري الوثني ضد النبي ﷺ وحشد حوالي ثلاثين الف مقاتل تحت قيادته ، فإن انشقاقاً حدث داخل معسكره ، وذلك عندما قرر أن يزحف بهوازن وأحلافها على مكة ، تصحبهم أموالهم ونساؤهم وذراريهم ، فقـد عارض زعماء قبيلتين كبيرتين من ذلك التجمع هما كعب وكلاب ، عارضوا هـــذا القرار ، وأبلغوا القائد مالكاً ، بأن تنفيذه سيعود عليهم بأوخم العواقب ، لأن نقل الأموال والنساء والأطفال الى ساحة القتال عملية متهورة ، ينبغي للقائد مالك عدم القيام بها .

غير أن الشاب القائد المتهور أصر ، أثناء هذا النقاش ، على تنفيذ قراره هذا مهما كانت النتائج ، لذلك أعلن زعماء عشيرتي كعب وكلاب ، بأنهم سينسحبون من ذلك التجمع ، ولن يشاركوا في المعركة ، وفعلاً انسحبت كعب وكلاب ، ولم تشترك في معركة حنين .

ورغم معارضة عشائر كعب وكلاب لخطة مالك بن عوف ورغم انسحاب هذه العشائر من تجمعه العسكري ، فقـــد اتبعت مالكاً الأغلبية الساحقة من هوازن وباقي أحلافهـا ، كلهم ارتضى خطته ، ورضيه قائداً عاماً لمحاربة النبي ﷺ وأصحابه بنقل المعركة الى مكة المكرمة . لذلك تمكن من حشد عشرين الف مقاتل ظلت تحت قيادته حتى انتهت معركة حنين .

لقد أكد المؤرخون أن مالك بن عوف النضري قمة في الشجاعة والجرأة والقدرة على إدارة دفة المعارك ، إلا أن طيش الشباب والغرور ، كانتا خلتان تسيطران عليه ، لهذا كان التهور والتسرع ، واتخاذ القرارات وتنفيذها بصورة استبدادية سريعة ، هي من أبرز صفاته .

والعرب لطبيعة الفروسية المتأصلة في نفوسهم ، وللنزعة الحربية التي تسيطر على نفوسهم في ذلك العهد، يحبون الرجل الشجاع المقدام الجريء، ولا يترددون في قبول زعامته والانضواء تحت قيادته .

ولهذا قبلت هوازن وأحلافها (ما عدا قبيلتين) قبلت بشيوخها وكهولها وشبابها ، أن يكون الشاب اليافع مالك بن عوف قائدها العام ، فقــد غطت (في نظرهم) محاسن شجاعته وجرأته وفروسيته ، غطت معائب طيشه وتهوره وغروره ، الذي قاد هوازن وأحلافها الى أشنع هزيمة نزلت بحي من العرب في تاريخ الجزيرة كلها .

الاستخبارات النبوية في ديار هوازن :

ولم يكن النبي القائــد ﷺ غافلاً في مكة عما يجري في ديار هوازن ضده ، فقد كان على علم بأن هوازن وأحلافها من ثقيف ، تعد العدة لحربه ، علم ذلك من جاسوس كان يعمل لحساب هوازن وأحلافها ، ألقت عليه القبض طلائع الجيش النبوي ، وهو في طريقه الى مكة قبل فتحها . فقد استجوب الرسول ﷺ هذا الجاسوس فأخبره خبر هوازن وثقيف والأحلاف وما تبيته من عداوة للمسلمين .

لذلك فإن النبي ﷺ لم تكد تتم لجيشه السيطرة على مكة ، حتى بعث بأحد رجال استخباراته العسكرية الى ديار هوازن متنكراً ، ليجوس خلال معسكراتهم ويختلط بهم ، لينقل الى النبي ﷺ كل ما يجب أن يعلمه عن تحشداتهم ومدى قوتهم وأي الطرق ينوون سلوكه . وكان رجل الاستخبارات المنتخب لهــذه

المهمة هو عبد الله بن أبي حدرد الاسلمي البطل المشهور في معارك خيبر ، والذي ذهب فعلاً الى ديار هوازن،وخالط القوم حتى اختلط بمختلف القيادات الرئيسية والفرعية في جيش التحالف الوثني بهوازن قبل المعركة ، وقد مكث ابن أبي حدرد بين معسكر المشركين عدة أيام، عاد بعدها الى نبيه القائد ﷺ في مكة، يحمل كل المعلومات الحربية اللازم معرفتها عن ذلك العدو الشرس الذي أخذ يتحفز للزحف على مكة .

النبي يأمر المسلمين بالتحرك فوراً نحو هوازن :

وعلى أساس المعلومات التي أحاط بها النبي ﷺ في تقرير شفوي قدمه اليه رجل استخباراته الامين .. أمر ﷺ بالتعبئة الفورية العامة كما أمر بالتحرك الفوري من مكة ، لأنه قرر أن لا ينتظر فيها حتى تهاجمه فيها هوازن وأحلافها، بل قرر أن ينقل المعركة الى خارج مكة ،ليجالد أعداءه قبل أن تتمكن قواتهم من الاقتراب من مكة .

لذلك وكما هي عادة الرسول القائد ﷺ في مواجهة الاحداث الخطيرة بحزم وبما يكفل سلامة الامة وصيانة الدعوة أمر جيشه بأن يتحرك من مكة، بأسرع ما يمكن ، والدليل على الاستعجال وسرعة الحركة، أن النبي القائد ﷺ تحرك بجيشه من مكة ثاني أيام عيد الفطر ، فقد فصل في ذلك اليوم (بقيادة الرسول نفسه) عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والانصار ، وهم الجيش الذي سيطر على مكة ، أضيف اليهم ألفان من أهل مكة الذين دخلوا في الاسلام بعد فتح مكة، فكان الجيش النبوي الذي تحرك من مكة اثني عشر الف مقاتل ، يقابله في جانب العدو بقيادة مالك بن عوف النصري عشرون الف مقاتل .

حديث القرآن عن مساوىء الغرور :

ولأول مرة (منذ ظهور دعوة الاسلام) اجتمع للمسلمين جيش في مثل هذا

العدد. ولهذا فقد أعجب المسلمون بكثرة عددهم وهم يتحركون نحو وادي حنين في جيش لجب قوامه اثنا عشر الف مقاتل، وهي قوة لم يجتمع للمعسكر الاسلامي مثلها في العهد النبوي حتى معركة حنين، وقد كان هذا العدد الكبير من المحاربين باعث عجب بين فصائل المحاربين في الجيش النبوي ، تحول هـذا العجب الى ما يشبه الغرور ، الذي من اول ثمراته الاستهانة بالعدو ، والاستهانة بالعدو تشيع روح التساهل في أخذ الاحتياطات لمواجهته ، والتساهل يقود بالتالي الى الهزائم المريرة ، وهو ما حدث بالفعل في صفوف الجيش النبوي، الذي قال بعض رجاله معجباً بكثرة عدده (لَنْ نُغْلَبَ اليَوْمَ مِنْ قِلَّة) ، فقد كان الاعجاب بكثرة الجيش النبوي والاستهانة بهوازن وجيوشها سبب هزيمة كادت تكون ساحقة للمسلمين عند الصدمة الاولى في مداخل وادي حنين حيث انهزموا هزيمة منكرة في غلس الصباح، حيث فاجأتهم كمائن مالك بن عوف ومزقتهم كل ممزق فولوا مدبرين ولم يثبت في الميدان سوى النبي الاعظم ﷺ ومائة فقط من خلصائه الذين بثباتهم حوّلوا ميزان القتال لصالح المسلمين حتى تحقق النصر ، وهذه الحقيقة هي التي أشار اليها القرآن الكريم بقوله « ويومَ حُنينٍ إذْ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغنِ عنكم من الله شيئاً وضاقت عليكم الارضُ بما رحُبتْ ثم ولّيتم مُدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تَرَوْها وعذّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين». فهذه الآية الكريمة تصف بأسلوب التذكير والتنبيه كيف يكون الغرور والزهو وعدم المبالاة بالعدو سبباً في إنزال الهزائم وجلب النكبات .

دريد بن الصمة ينصح مالك بن عوف فيرفض :

وعلى كل استمر الجيش النبوي في تحركه في اتجاه وادي حنين .. أما هوازن وأحلافها فقد تحرك بها في اتجاه حنين أيضاً قائدها مالك بن عوف النصري .

وكان ضمن الجيش الذي يقوده مالك بن عوف شيخ محارب ممتاز ، وهو من

قد أقعده الكبر ، ولكنه ذو خبرة بالحرب وبصير بالسياسة العسكرية ، تلقى الدروس الحربية العلمية طوال أكثر من مائة عام ، قضاها في خوض المعارك .. هذا المحارب المسن ، هو دُرَيد بن الصِّمة فارس جشم وشاعرها الشهير ، وكان بلغ مائة وعشرين سنة ، ولعدم قدرته على القتال لكبر سنه ، حمـــله قومه في هودج ، بين العسكر .

وكان قد ثقل سمعه ، فلم يستشره القائد الشاب المغامر مالك بن عوف ، إلا أن هـــذا الشيخ المسن رغم ثقل سمعه ، سمع ضوضاء شديدة أحدثتها أصوات عشرات الالوف من الإبل والغنم والشاء التي كانت تصحب الجيش . وهنا سأل الشيخ المسن عن هذه الضجة فأخبروه خبر إصرار القائد مالك على حمل النساء والذراري والاموال مع الجيش،فأفزعه هذا التصرف وقال: ادعوا لي مالك بن عوف ، فلما حضر قال له : بأي واد أنتم يا مالك ؟

فقال : بأوطاس .

فقال : نعم مجال الخيل لا حزن (بفتح الحاء وسكون الزاي) ضرس ولا سهل دهس . ثم وجّه سؤاله الى القائد العام مالك قائلاً : يا مالك إنك أصبحت رئيس قومك وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام .. مالي أسمع بكاء الصغير ورغاء البعير ونهاق الحمير ويعار الشاء (بضم الياء) ؟

فقال القائد مالك: يا أبا قرة (وهذه كنية دريد) .. انني سقت مع الناس أموالهم وذراريهم وأردت أن أجعل خلف كل رب أهله وماله يقاتل عنه . فصاح دريد بالقائد مالك متهماً إياه بالجهل بشؤون الحرب وبالتهور : رويعي ضان والله أنت..وهل يرد المنهزم شيء؟ ثم أخذ يجادل مالك بن عوف ونصحه بأن يعيد الاموال والنساء والذراري الى روس الجبـال وأن لا يلقى المسلمين إلا على متون الخيل قائلاً : يا مالك .. الحرب إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت فيأهلك ومالك..يا مالك إنك لم تصنع

شيئاً بتقديم البيضة بيضة هوازن الى نحور الخيل شيئاً .. ارفعهم الى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم ، ثم الصباء على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك ما وراءك ، وان كانت عليك ألفاك ذاك قد حرزت أهلك ومالك . وقد مال زعماء العشائر وقادة الفرق في جيوش هوازن الى رأي دريد بن الصمة ونصحوا القائد مالك ابن عوف أن يعمل به . إلا أن القائد الشاب المغامر أصر على رفض مشورة دريد بن الصمة وهدّد بأنه سينتحر إذا لم يتركوه يسير في معركته حسب الخطة التي رسمها . حيث قال : والله لتطيعنني أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري. فشفق عليه قومه كقائد عام للجيش ومحارب ممتاز ،فأطاعوه وتخلوا عن تأييد فكرة الفارس دريد بن الصمة . فاستمر في التحرك بهم نحو حنين .

هوازن تسبق المسلمين الى وادي حنين :

وكما يدل سياق المؤرخين ، فقد كان جيش هوازن هو الذي سبق الجيش النبوي الى وادي حنين فعسكر به واستراح قبل أن يصل اليه المسلمون .

كيف عبأ قائد هوازن قواته :

وتدل تصرفات مالك بن عوف قائد هوازن على أنه كان محارباً ممتازاً وبارعاً حربياً في وضع الخطط المعارك ، دلّ على ذلك أسلوبه في تعبئة جيشه ووضع الكمائن التى بها كسب الجولة الاولى في المعركة .

وقد كانت خطة قائد هوازن للمعركة كما يلي :

١ — جمع هذا القائد كل قادة فرق جيشه ورؤساء العشائر فيه ووقف فيهم خطيباً بوادي حنين وطلب منهم أن يأمر كل قائد رجاله بأن يجردوا سيوفهم ويكسروا جفونها لأن ذلك أبلغ في الاستماتة في القتال .

٢ — كان مالك قد جعل الجيش يحمل معه نساءه وذراريه وأمواله لئلا يفكر في الفرار ساعة القتال .

٣ – كان مالك هو السابق – كما قلنا – الى وادي حنين، ولهذا قام قبل المعركة باستكشافه لاختيار المواقع الاستراتيجية المناسبة له ولخطته .

٤ – لذلك قام القائد مالك فانتخب عدة كتائب من جيشه ووضعها أثناء الليل في أماكن استراتيجية على شكل كمائن في بطون الشعاب ومنعطفات الوديان الصغيرة والمضائق التي تستقبل أفواهها المسلمين القادمين من مكة .

٥ – وبعد ان وضع هذه الكمائن ونظمها على الصورة التي يريد في ظلام الليل وبسرّية تامة ، أصدر أمره الى قادة الكمائن هذه بأن تشنّ على المسلمين هجوماً كاسحاً صاعقاً مباغتاً عندما يدخلون وادي حنين ، على أن يتم هذا الهجوم في غلس الفجر ليتمكنوا من إحداث الفوضى في صفوف المسلمين فيتمكن عامة جيش المشركين من إنزال الهزيمة بهم ، وهذا ما حدث بالفعل .

٦ – كذلك لجأ هذا القائد الخطر (رغم صغر سنه) ، لجأ الى خطة إيهام وتضليل لإرهاب قوات المسلمين وإدخال الرعب في نفوسهم بمجرد ان ينظروا الى سواد جيشه .. وهذه الخطة التي لجأ اليها هو أنه جعل جيشه أثناء تعبئته يظهر في شكل أكبر من حجمه الطبيعي .. فقد كان مالك يقود عشرين الفاً من المشركين ، يقابلهم اثنا عشر الفاً يقودهم سيد البشر محمد ﷺ .

غير أن ذلك الشاب الداهية قد جعل جيشه يظهر وكأنه مائة الف مقاتل .

فكيف تمّ ذلك ؟

تمّ ذلك بأن عمد مالك بن عوف الى عشرات الألوف من الجمال التي جلبها جيشه معه وحمل عليها النساء والأطفال والأموال (وهي الخطة التي خالفه فيها المحارب الشاعر دريد بن الصمة) .. عمد الى هذه الآلاف من الجمال وجعلها وراء جيشه الحقيقي صفوفاً هائلة كالاحتياطي ، ثم أركب عليها النساء فبدا سواد جيشه وكأنه مائة الف مقاتل .

ولنترك أحد كبار الصحابة الكرام يصف لنا هذه الخدعة الحربية البارعة التي نجحت الى حد بعيد في إدخال الفزع في نفوس عامة الجيش الاسلامي .. هذا الصحابي هو سيدنا أنس بن مالك (رض)، فقد قال في حديث له: لما انتهينا الى وادي حنين، وهو وادٍ من أودية تهامة له مضائق وشعاب، فاستقبلنا من هوازن شيء، لا والله ما رأيت مثله في ذلك الزمان قط من السواد والكثرة، قد ساقوا نساءهم وأموالهم وأبناءهم وذراريهم، ثم صفوا صفوفاً، فجعلوا النساء فوق الإبل، وراء صفوف الرجال، ثم جاؤوا بالإبل والبقر والغنم فجعلوها وراء ذلك، لئلا يفرّوا بزعمهم . ثم يؤكد سيدنا أنس (رض) نجاح خدعة القائد مالك فيقول : « فلما رأينا ذلك السواد حسبناه كله رجالاً » .

هكذا كان مجمل خطة قائد هوازن الشاب المغامر مالك بن عوف . وكانت في جملتها خطة بارعة تدل على عراقة في السياسة العسكرية.. ساعد على إعدادها ونجاحها في المرحلة الاولى كون قائد هوازن قد سبق المسلمين الى وادي حنين فاحتله، واختار المواقع الملائمة له ولجيشه فعبأ كل قواته ونظمها ورتب كمائنها قبل أن يصل الجيش الاسلامي .. وكان ذلك السبب الرئيسي في الهزيمة المروعة التي نزلت بالجيش الاسلامي عند الصدمة الاولى .

كيف عبأ النبي الأعظم جيشه ؟

أما النبي الأعظم ﷺ بعد أن نقل اليه جهاز استخباراته الحربية خبر سبق قائد هوازن الى وادي حنين وتعبئته جيشه فيه، وجد نفسه أمام امتحان صعب . ذلك ان جيش هوازن وأحلافها قد أصبح معبأ مستريحاً في سهل وادي حنين، بينما النبي ﷺ وجيشه لا يزالون سائرين في الطريق .. ولهذا اضطر النبي ﷺ الى ان يعبىء جيشه أثناء الطريق ويجعله يسير وهو في حالة تعبئة تحسُّباً للطوارىء، وهذا أمر فيه من الصعوبة ما لا يخفى على أي خبير عسكري .

وكانت تعبئة الجيش النبوي قد تمت على النحو التالي :

١ - جمع الخيالة (وأكثرهم من بني سُليم) وجعل عليهم قائداً خالد بن الوليد ، وأمرهم بأن يكونوا دائماً في مقدمة الجيش .

٢ - أما تعبئة عامة الجيش فقد جعلها النبي ﷺ على أساس قبلي . فعمد الى جيشه البالغ اثني عشر الفاً فقسمه الى ثلاثة أقسام رئيسية : القسم الأول ، المهاجرون . القسم الثاني ، الأنصار . والقسم الثالث بقية القبائل العربية من أهل البادية ، ممن لم يكونوا من أهل مكة ولا من أهل المدينة الأوائل .. ويظهر ان الرسول الأعظم (وهو حكيم الحكماء) أخذ بعين الاعتبار نفوذ الزعامة القبلية التي كانت حتى ظهور الاسلام لها مكانها بين مختلف القبائل .

أما المهاجرون فقد قسمهم النبي ﷺ الى قيادات ثلاث اذا اعتبرنا كل حامل لواء أو راية قائداً .. وقد أسندت قيادة الفرق الثلاث هذه الى ثلاثة من كبار المهاجرين وهم : عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص (رض) وأعطى كل واحد من هؤلاء لواءً خاصاً بالمهاجرين .

٤ - أما الأنصار ، الذين يمثلون العمود الفقري للجيش النبوي من حيث العدد ، فقد قسمهم النبي ﷺ أثناء التعبئة الى قيادتين رئيسيتين : قيادة مستقلة للخزرج وأعطى لواءها الأكبر لسيد الخزرج سعد بن عبادة ، وأخرى مستقلة للأوس وأعطى لواءها الأكبر الى سيد الأوس أُسَيد بن حُضَير .

ثم عبأ الرسول القائد ﷺ رجال هاتين القبيلتين في كتائب وجعل قيادات هذه الكتائب أيضاً على أساس قَبَلي ، بحيث جعل ﷺ كل فخيذة من هاتين القبيلتين كتيبة مستقلة لها قائدها الخاص منها ، وعَلَمها الخاص بها ، وهو راية سلمت عند التعبئة الى زعيم الفخيذة سواء كانت من الأوس أم من الخزرج .

فكان الأنصار بقبيلتيهم الأوس والخزرج (على أساس هذه التعبئة) أكثر من عشر كتائب دخلوا المعركة في وادي حنين على راياتهم .

أما بقية المسلمين من أهل البادية مثل مُزينة وسُليم وجُهَينة وغِفار وأشجع فقد نظمها النبي القائد ﷺ أيضاً على أساس قَبَلي وقسم هذه القبائل الى كتائب لكل كتيبة علَمها الخاص . وكانت هذه الكتائب كثرة وقلة ، حسب عدد رجال القبيلة . بعض القبائل قسم الى ثلاث كتائب مثل مُزينة التي كان أحد قـــادة كتائبها النعمان بن مقرن ، وإلى كتيبتين مثل أسلم ، بل وإلى أربع كتائب مثل جهينة ، وأحياناً جعل النبي ﷺ من القبيلة كلها كتيبة واحدة مثل غفار التي كان يحمل رايتها أبو ذر الغفاري .

وهكذا فإن النبي الأعظم ﷺ قد قسم جيشه أثناء تعبئته لمعركة حنين الى أكثر من عشرين كتيبة ، ثم تحرك الناس على راياتهم وهم في حالة تعبئة حتى وصلوا مداخل وادي حنين .

الكمائن تهزم المسلمين أول المعركة :

وكان النبي ﷺ يبعث برجال من استخباراته العسكرية للاستكشاف ومعرفة أسرار العدو الحربية وخططه ، وتلك أمور ضرورية لكل قائـــد يقود جيشاً يخشى عليه الهزيمة ويرجو له النصر . فكان رجال الاستخبارات يبلغون الرسول القائد كل ما يحصلون عليـــه من معلومات عن العدو في حنين . ولكن الذي نجح قائد هوازن في كتمانه عن استخبارات المسلمين هو الكمائن الكثيرة الخطيرة التي كانت سبباً في إنزال الهزيمة بالمسلمين أول المعركة .

وسبب ذلك يرجع الى أن قائد هوازن قد رتب هـــذه الكمائن ووضعها في المضائق والشعاب في ظلام الليل كما أفاد المؤرخون . لذلك لم يعلم عنها العسكر الاسلامي شيئاً إلا وهي تنقض عليهم بشراسة في غلس الفجر .

النبي يخطب في جيشه :

وبعد ان اقترب النبي ﷺ من وادي حنين تدجج بسلاحه فلبس درعين

والبيضة والمغفر وركب بغلته البيضاء دلدل ، ثم استقبل الصفوف المعبأة من جيشه وطاف عليهم ، وألقى فيهم كلمة حضهم على القتال والصبر وبشّرهم الفتح إن صدقوا وصبروا .

ثم انحدر بهم في وادي حنين – وهو كما يقول الواقدي – واد أجوف كثير الانحدار. وفي الاماكن التي أخذ الجيش الاسلامي ينحدر فيها صفاً بعد صف الى وادي حنين (وكان ذلك في غلس الصبح) انقضت على الجيش الاسلامي (بغتة وبأسلوب صاعق) الكمائن الكثيرة التي وضعها قائد هوازن مالك بن عوف في المضائق والشعاب والمنعطفات الاستراتيجية من وادي حنين أثناء الليل وبأسلوب يدل على خبرة حربية ومكر عسكري كبير .

وكما هي أوامر قائد هوازن وأحلافها حمل رجال الكمائن على المسلمين في غلس الصبح وقبل ان يكتمل جمعهم في بطن الوادي حملة رجل واحد ، فأحدث ذلك الذعر والفوضى في صفوف الجيش النبوي فانفرط عقده، وكما قدر وأدخل في حسابه (وهو يضع خطة الكمائن قائد هوازن) كانت الهزيمة هزيمة منكرة حيث ولى عامة الجيش الاسلامي الأدبار نحو مكة دون أن يضربوا بسيف أو يطعنوا برمح .

وكادت تكون هزيمة ساحقة مدمرة لا تنتهي حتى البحر (كما قال أحد الذين أسلموا من أهل مكة ولما يدخل الايمان في قلبه ، وكان ضمن جيش النبي ﷺ) . كادت تكون هزيمة نهائية لولا ثبات النبي العظيم كعادته ﷺ في مثل تلك المواقف المروّعة . فقد ذكر المؤرخون أن كمائن هوازن لما انقضت على الجيش النبوي انهزم كل رجال هذا الجيش لا يلوون على شيء . ولم يثبت في ساحة المعركة سوى النبي الاعظم ﷺ ومائة فقط من خلصاء المهاجرين والانصار فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والعباس ابن عبد المطلب .

أما بقية الجيش الاسلامي فقد هاج في بعضه وماج . وجعل بعضهم يدوس بعضاً وهم يفرون من الشعاب والمضايق .

فكان ذلك امتحاناً عظيماً صمد له النبي الاعظم والقائد الاكبر ﷺ . فقد ثبت النبي ﷺ والمائة من خلصاء أصحابه، بل أخذ يهاجم بهم المشركين . وفي الوقت نفسه طلب من عمه العباس (وكان صيّتاً يسمع صوته لعدة أميال) طلب منه حين رأى الجيش كل الجيش منهزماً لا يلوي على شيء ، أن يناشدهم العودة الى ميدان الشرف،وأن يصرخ باسم الانصار خاصة لأنهم العمود الفقري للجيش، ففعل العباس . ولم يكد المسلمون المنهزمون يسمعون المناشدة النبوية عبر صوت العباس بن عبد المطلب حتى عادوا جميعاً الى ميدان المعركة . فاحتدم القتال كأعنف ما يكون حتى كتب الله النصر المؤزر للمسلمين على المشركين الذين انهزموا هزيمة لم يمنَ بمثلها احد من العرب عبر التاريخ . وهكذا كان ثبات النبي ﷺ هو السبب في رفع رصيد المسلمين في حساب النصر من الصفر حتى أعلى رقم في حسابات النصر والغلبة ، فقد خجل المنهزمون حين سمعوا المناشدة النبوية ، فانعطفوا على العدو (بحنق) وكأنهم الرياح العاتية تكسح كل شيء يعترضها، حتى أن أحد الصحابة المنهزمين لكي يكون أسبق العائدين الى ميدان القتال يرمي خطام جمله ثم يقفز من على ظهره حاملاً سيفه ورمحه وهو يجري بأقصى سرعة الى حيث يقف النبي ﷺ لمجالدة المشركين .

ولعله من المستحسن أن نستمع الى إمام المغازي محمد بن عمر الواقدي وهو يصف تلك الساعات الدقيقة الحرجة التي انهزم فيها المسلمون ، ثم عادوا بعد الهزيمة الى الميدان ليسجلوا أعظم نصر يحرزه الاسلام على الوثنية في تاريخ الصراع الناشب بينهما .

قال الواقدي : قال انس بن مالك : فلما تحدرنا في الوادي وادي حنين فبينا نحن في غلس الصبح ، ان شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادي

وشعبه فحملوا حملة واحـــدة ، فانكشف اول الخيل – خيل سليم – مولّية فولّوا ، وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شيء . قـال انس: فسمعت رسول الله ﷺ والتفت عن يمينه ويساره والناس منهزمون وهو يقول : يا أنصار الله وأنصار رسوله ، أنا عبد الله ورسوله صابر . قال : ثم تقدم ﷺ بحربته أمام النـاس . وعن العباس بن عبد المطلب قال : لما كان يوم حنين التقى المسلمون والمشركون فولى المسلمون يومئذ فلقد رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخـــذ بثفر بغلة رسول الله ﷺ والنبي ﷺ لا يألو مسرعاً نحو المشركين ، قـال العباس كنت رجلاً صيتاً ، فقال رسول الله ﷺ حين رأى من الناس ما رأى لا يلوون على شيء ، قال : يا عباس اصرخ : يا معشر الانصار يا أصحاب السمرة (بفتح السين وضم الميم) فناديت يا معشر الانصار يا اصحاب السمرة ، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنّت الى أولادها يقولون يا لبيك يا لبيك فيذهب الرجل منهم فيثني بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقدمها في عنقه ويأخذ ترسه وسيفه ثم يقتحم عن بعيره فيخلّي سبيله في الناس، ويؤم الصوت حتى ينتهي الى رسول الله ﷺ حتى اذا ثاب الينا النـــاس اجتمعوا فكانت الدعوة اولاً يا للأنصار ، ثم قصرت الدعوة فنادوا يا للخزرج ، قال وكانوا صبراً (بالتحريك) عند اللقاء صدقاً عند الحرب قال فأشرف رسول الله ﷺ كالمتطاول في ركابه فنظر الى قتالهم فقال : الآن حمي الوطيس ، ثم أخذ بيده من الحصى فرماهم ثم قال: انهزموا ورب الكعبة. فوالله ما زلت أرى أمرهم مدبراً وحدّهم كليلاً حتى هزمهم الله ، وكأني أنظر الى رسول الله ﷺ يركض خلفهم على بغلته .

ووصف أحد شهود العيان يوم حنين عودة الأنصار المنهزمين الى رسول الله ﷺ فقال : لقد عطف الأنصار نحو رسول الله ﷺ قد شرعوا الرماح حتى اني لأخاف على رسول الله ﷺ رماحهم أشد من خوفي رماح المشركين يؤمّون الصفوف ويقولون : يا لبيك يا لبيك.. فلما اختلطوا واجتلدوا ورسول الله ﷺ قائم على بغلته في ركابه يقول: اللهم إني أسألك وعدك لا ينبغي لهم أن يظهروا.

وقد أجاب الله سبحانه دعاء رسوله فانقلب ميزان القوى في المعركة لصالح المسلمين حتى هزموا المشركين شر هزيمة .

وذكر بعض المؤرخين (بشأن المائة الذين ثبتوا مع النبي ﷺ) ، انه ﷺ لما انكشف الناس وانهزموا عند الصدمة الاولى قال لحارثة بن النعمان : كم ترى الذين ثبتوا ؟ فقال حارثة : فلما التفت ورائي تحرّجاً فنظرت عن يميني وشمالي فحزرتهم مائة ، فقلت : يا رسول الله هم مائة ... حتى كان يوم مررت على النبي ﷺ وهو يناجي جبريل عليه السلام عند باب المسجد ، فقال جبريل: من هذا يا محمد ؟ فقال ﷺ : حارثة بن النعمان . فقال جبريل : هذا أحد المائة الصابرة يوم حنين ، لو سلم لرددت عليه . فأخبره النبي ﷺ ، فقال حارثة : ما أظنه (يعني جبريل) إلا دحية الكلبي واقف معك .

وكان دعـــاء النبي ﷺ ، حين انهزم الجيش ولم يبقَ إلا المائة الصابرة يوم حنين : اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان . قال جبريل : لقـــد َلقِنت (بفتح اللام وكسر القاف) الكلمات التي لقن الله موسى يوم فلق البحر أمامه وفرعون خلفه .

وكما ذكرنا ، كان الأنصار دائماً هم العمود الفقري للقوات النبوية المسلحة طيلة حياة النبي ﷺ .. ولهذا فقـــد كان من بين المائة الصابرين الثابتين ساعة الهزيمة يوم حنين سبعة وستون من الأنصار وثلاثة وثلاثون من المهاجرين .

اشتداد القتال :

وبعـــد أن تراجع المنهزمون من المسلمين الى ساحة الوغى ، احتدم القتال وقاتلت هوازن بشراسة وضراوة منقطعة النظير . ولكنها بعد عودة العسكر الاسلامي المنهزم تحولت هوازن من مركز الهجوم الى مركز الدفاع ، فقد شنّ المسلمون (بقيادة نبيهم) على هوازن هجوماً مضاداً كاسحاً حاولت هوازن وأحلافها الثبات أمامه ولكن دون جدوى .

فقد اكتسحهم المسلمون بحنق وغيظ لا مثيل له ، كما تكتسح العاصفة الورق اليابس، وقد فتك المسلمون بالمشركين فتكاً ذريعاً فأثخنوا فيهم حتى بلغ الحنق ببعض المسلمين الى أن امتدت يده الى ذرية المشركين لقتلها حتى أوقفهم الرسول ﷺ بنفسه .

حدّث محمد بن عبدالله بن أبي صعصعة قال : لما نادى العباس مهيباً بالمسلمين أن يعودوا عن الهزيمة ، صاح سعد بن عبادة قائد الخزرج يا للخزرج يا للخزرج يا للخزرج، وصاح أسيد بن حضير يا للأوس يا للأوس يا للأوس فثابوا والله من كل ناحية كأنهم النحل تأوي الى يعسوبها . قال : فحنق المسلمون على المشركين فقتلوهم، حتى أسرع المسلمون في قتل الذرية ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى بلغ الذرية .. ألا لا تقتل الذرية .. نادى بها ثلاثاً .. فقال سيد الأوس أسيد بن حضير .. يا رسول الله أليس إنما هم أولاد المشركين ؟

فقال ﷺ : أوليس خياركم أولاد المشركين، كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها ، فأبواها يهوّدانها أو ينصّرانها .

وقد قاتل الصحابة بعد تحول ميزان المعركة لصالحهم قتالاً شرساً حتى أن أحد الانصار وهو أبو طلحة الفارس المشهور ، قتل وحده بيده خمسة وعشرين من هوازن وثقيف .

استبسال قبيلة القائد العام للمشركين :

كذلك شهد المؤرخون نقلاً عن شهود عيان أن القائد العام لجيش هوازن وقبيلته بني نصر قد قاتلوا بشراسة وثبات حتى كادوا أن يفنوا عن آخرهم . ولم ينسحب القائد العام مالك بن عوف من الميدان إلا بعد أن رأى أنه قد فقد السيطرة كلياً على جيوشه التي شتتتها الهزيمة كما تشتت العاصفة الورق اليابس ، ولم يعد لأحد من جنود هوازن ما يهمه سوى النجاة بنفسه .

قال الواقدي : واستحر القتل في بني نصر (قوم مالك بن عوف) وفي بني رباب من بني نصر ، حتى صار عبدالله بن قيس النصري (وكان مسلماً) يقول: يا رسول الله هلكت بنو رباب فقال : اللهم اجبر مصيبتهم .

دور المرأة المسلمة في معركة حنين :

وفي معركة حنين كان للمرأة المسلمة دوراً مشرّفاً ، فقــد كان ضمن جيش المسلمين نسوة أربع من نساء الأنصار ثبتن مع رسول الله ﷺ يوم حنين على رأسهن أم عمارة صاحبة المواقف المشهورة في معركة أحد. فقد روى سليمان بن بلال عن أم عمارة (رض) قالت: لما كان يومئذ والناس منهزمون في كل وجه وأنا وأربع نسوة، في يدي سيف لي صارم وأم سليم معها خنجر قد حزمته على وسطها وهي يومئذ حامل بعبد الله بن أبي طلحة وأم سليط وأم الحارث ... قــالوا : فجعلت تسلّه وتصيح بالأنصار.. أية عادة هذه ؟ ما لكم وللفرار. قالت: وانظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق معــه لواء يوضع في جمله في أثر المسلمين ، فاعترض له فاضرب عرقوب الجمل فيقع على عجزه . وأشد على الرجل فلم أزل أضربه حتى أثبته وأخذت سيفاً له وتركت الجمل يخرخر .. ورسول الله ﷺ قائم مسلط السيف بيده قـد طرح غمده ينــادي يا أصحاب سورة البقرة . قالت: فكرّ الأنصار ووقفت هوازن حلب ناقة فتوح (أي انها لم تثبت الا برهة وجيزة) ثم كانت اياها فوالله ما رأيت هزيمة مثلها ذهبوا في كل وجه .

امرأة تطلب الاعدام للمنهزمين :

والعجيب أن حماس الثبات مع الرسول ﷺ والغضب على المسلمين المنهزمين قد بلغ بإحدى نساء الأنصار وهي أم سليم بنت ملحان طلبت إلى الرسول ﷺ أن ينفذ حكم الإعدام في الذين فروا من أصحابه عند الصدمة الأولى ، فقد روى أنس بن مالك أنه قال : إن أم سليم هذه قالت : يا رسول الله . أرأيت هؤلاء

الذين أسلموك وفرّوا عنك وخذلوك لا تعف عنهم إذا أمكنك الله منهم.فاقتلهم كما تقتل هؤلاء المشركين . فقال ﷺ : يا أم سليم قد كفى الله ... عـــافية الله أوسع .

كيف كانت هزيمة هوازن والأحلاف :

وهكذا وبعد جلاد عنيف وقتال شرس نزلت بهوازن في حنين هزيمة لم يعرف العرب مثلها . وحقق الجيش النبوي نصراً (من الناحية العسكريـة) لم يحقق مثله طيلة العهد النبوي .. فقد غنم المسلمون في هذه المعركة أربعة وعشرين ألف بعير وأكثر من أربعين ألف رأس من الغنم. كما وقع في أسر الجيش الإسلامي ستة آلاف إنسان من هوازن ، وسقط منهم ومن حلفـــائهم مئات القتلى ، من ثقيف وحدها مائة قتيل ، أما بقية المحاربين من هوازن وثقيف والأحلاف .. فقد ابتلعتهم الشعاب والوديان .. فارين يطلبون النجاة بأرواحهم تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم ومواشيهم في أيدي الجيش الإسلامي . وهي الكارثة التي ناشد دريد بن الصمة القائد الشاب المتهور مالك بن عوف أن لا يوقع بهـا أهله وعشيرته ، حين نصحه وهم بأوطاس قبل المعركة أن يأمر بإعادة النساء والأطفال والمواشي إلى علياء بلادهم ويلقى المسلمين في حنين فقط على متون الخيل. ولكن مالكا عصى دريد فوقعت هوازن فيما حذرها منه دريد بن الصمة الذي لقي هو (على كبر سنه) حتفه في المعركة الخاسرة .

وقد وصف بعض رجال هوازن موقعة حنين كيف بدأت بانتصار المشركين وكيف انتهت بهزيمتهم الساحقة ، وصفها فيما بعـــد من حضروها فقالوا : كنّا للمسلمين في المضائق والشعاب ثم حملنا عليهم حملة ركبنا أكتافهم حتى انتهينا الى صاحب بغلة شهباء (يعنون النبي ﷺ) وحوله رجال بيض حسان الوجوه فقال: شاهت الوجوه ارجعوا . فانهزمنا ، وركب المسلمون أكتافنا وكانت إياهـــا . وجعلنـــا نلتفت وراءنا ننظر اليهم يكدوننا ، فتفرقت جمـاعاتنا في كل وجه

وجعلت الرعدة تسحقنا حتى لحقنا بعلياء بلادنا . فإن كان ليحكى عنا الكلام ما كنا ندري به مما كان بنا من الرعب فقذف الله الاسلام في قلوبنا . قالوا : وهربت ثقيف، فقال شيوخ منهم أسلموا – بعد – كانوا قد حضروا ذلك اليوم، قالوا : ما زال رسول الله ﷺ فيطلبنا فيما نرى ونحن مولـّون، حتى ان الرجل منا ليدخل حصن الطائف وانه ليظن أنه على أثره من رعب الهزيمة .

المطاردة :

وبعد ان تمّ النصر الساحق للمسلمين على جيوش هوازن في حنين ، أمر النبي ﷺ جيوشه بمطاردة هوازن وثقيف وأحلافها ، فتعقب الجيش الاسلامي المنهزمين حتى وصل في مطاردته (بقيادة النبي) مدينة الطائف ، فوجد المنهزمين من ثقيف وبعض هوازن معتصمين بحصونها ، فضرب عليهم الحصار ورماهم بالمنجنيق ، ولكنه لم يستطع افتتاح حصون الطائف في تلك المرحلة .. وقد طال حصار الطائف، والحديث عن حصار الطائف حديث طويل ليس هذا محل بحثه .

وهكذا انتهت معركة حنين الفاصلة ، وكانت آخر معركة تاريخية دامية يخوضها النبي ﷺ ، بل كان انتصار المسلمين في معركة حنين آخر مسمار دُقّ في نعش الوثنية التي لم يقم لها بعد معركة حنين قائمة .. حيث أخذت بقايا جيوب المقاومة الوثنية تتهاوى الواحدة بعد الاخرى عقب معركة حنين .. وأخذ سكان الجزيرة العربية يدخلون في دين الله أفواجاً .. ولم تأتِ السنة العاشرة من الهجرة (أي بعد سنتين فقط من انتصار المسلمين بحنين) حتى دخل كل سكان الجزيرة العربية في دين الاسلام ولم يبقَ بها مشرك واحد .

النبي يطلق سراح السبي من النساء والاطفال :

هناك جوانب كثيرة ينبغي الحديث عنها ضمن الحديث عن معركة حنين ،

ولكن المقام لا يسمح بذلك .. ولكن هنا شيئاً واحداً لا بد من الإشارة اليه ، وهو موقف كريم نبيل وقفه سيد الأنبياء من أعدائه هوازن الذين جرّدوا ذلك الجيش الجرّار لإخراجه من مكة بالقوة ... فقد عمل على إطلاق سراح أكثر من ستة آلاف من سبي هوازن وأعادهم الى أهاليهم بعد ان صاروا جميعهم ملكاً للمسلمين .

لقد كان هوازن أخوال النبي ﷺ ، حيث أن أمه من الرضاعة (حليمة السعدية) من بني سعد بطن منهوازن .. وكان قد وقع في أيدي الجيش الاسلامي في حنين أكثر من ستة آلاف من السبايا نساء وأطفالاً ، وكان أول من التقى بالنبي من السبي أخت له من الرضاعة لا يعرفها ، واسمها الشيماء بنت الحارث ، هذه الشيماء وقعت سبية في يد فئة من الأنصار فجاؤوا بها الى رسول الله ﷺ فقالت له: يا محمد إني أختك. قال ﷺ : وما علامة ذلك ؟ فأرته عضة وقالت: عضضتنيها وأنا متوركتك بوادي السرر وأنت رضيع في هوازن ، ونحن يومئذ برعائهم . أبوك أبي وأمك أمي ، قد نازعتك الثدي ، أو تذكر يا رسول الله ... فعرف رسول الله ﷺ العلامة ، فوثب قائماً فبسط لها رداءه ثم قال : اجلسي عليه . ورحّب بها ودمعت عيناه وسألها عن أمه وأبيه من الرضاعة ، فأخبرته بموتهما في الزمان ، ثم قال لها : إن أحببت فأقيمي عندنا محبّة مكرّمة ، وإن أحببت ان ترجعي الى قومك أعدتك الى قومك . قالت : ارجع الى قومي . وأسلمت فأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية .

وفد هوازن عند الرسول ﷺ :

وكما كانت هوازن أخوال النبي ﷺ وكان ﷺ قد أخر قسم السبي رجاء أن يأتي وفد من هوازن يطلب المن فيمنن عليهم ولكنهم تأخروا فاستعجل الجيش القسم فقسم النبي ﷺ الغنائم بما فيه السبي .. غير أن وفد هوازن جاء بعد ذلك مسترحماً طالباً أن يمن رسول الله ﷺ على السبايا والأسرى .

ففي حضرة الرسول القـــائد المنتصر قال رئيس الوفد : يا رسول الله أنا أهلك وعشيرتك وقد أصابنا من البلا مـــا لا يخفى عليك يا رسول الله .. إنما في هذه الحظائر (يعني السبي) عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ولو أنا أرضعنا للحارث بن ابي شعر وللنعمان بن المنذر ثم نزلا منـــا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفهما وعائدتهما وأنت خير المكفولين .

فأحسن النبي ﷺ استقبال الوفد وأخبرهم أن الأمر لم يعد اليه بعد ان قسّم السبي على الجيش .. ولكنه وعدهم بأنـــه سيعمل على إعادة السبي اليهم (رغم ما في ذلك من صعوبة) فقال لهم أولاً .. فأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم ؟ قالوا : خيّرتنا يا رسول الله بين أحسابنا وأموالنا ، وما كنا نعدل بالاحساب شيئاً فردّ علينا أبناءنا ونساءنا . فقال لهم النبي ﷺ : أما ما لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وأسأل لكم النـــاس ، فاذا صليت الظهر بالناس ، فقولوا : إنا نتشفع برسول الله الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله، فاني سأقول لكم : ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم .

فلما صلى بالناس الظهر تكلم رجال الوفد بالذي أمرهم الرسول ﷺ، فقال الرسول ﷺ: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم . وهنا تبارى المسلمون في الكرم ، فكلهم قال : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فأعتق جميع السبي وأعيد أكثر من ستة آلاف طفل وامرأة الى أهاليهم المنهزمين بعـــد أن كانوا أرقاء . ومن أبى من العرب المسلمين (مثل قوم عيينة بن حصن والاقرع بن حابس) أن يمنّ على هوازن ، أمره النبي ﷺ بأن يعيد السبي الذي في يده الى هوازن على أن يدفع له بيت مال المسلمين عوضاً عن كل رقيق هو له ، عدداً من الإبل حدّدها الرسول القائد ﷺ . وهكذا منّ الرسول ﷺ على أعدائه أخواله هوازن ،هذا المنّ العظيم بعد ان جاؤوا يجرون عشرين الف سيف ليخرجوه بها من مكة ويقضوا عليه وعلى أصحابه ويعيدوا للوثنية سلطانها .. فصلى الله على أشرف الخلق، من أكرم منه وأعز وأرحم ؟

والحديث عن السبي والسبايا والرق في الاسلام أثار أعـــداء الاسلام حوله أكثر من شبهة .. والموقف لا يسمح لنا هنا ببحث هذه الشبه والرد عليها .. ولكن أهم شيء نحب أن نقوله هو أن الاسلام لم يكن هو الذي شرع الرق .. فقد جاء الاسلام والرق عملة عالمية تتعاطاها جميع الشعوب والامم .. وكانت مصادر الرق كثيرة بين الامم .. فعندما جاء الاسلام (وهو محرر الانسانية) حرّم الرق وردم جميع منابعه ، ما عدا نوع واحد وهو الرق الحربي ، أبقى عليه كعمل حربي مقابل ضد العدو . ومع ذلك فقد كثرت التوصيات في جميع مصادر التشريع الاسلامي بتحرير الرقيق . ولنا بحث واسع مستفيض مفصل للرد على أعداء الاسلام بشأن موقفه من الرق أودعناه كتابنا (غزوة بني قريظة) وهو الكتاب الرابع من معارك الاسلام الفاصلة .



بسم الله الرحمن الرحيم

الصهيونية والغزو الفكري

سعادة الأستاذ محسن باروم

أيها الاخوة في الاسلام ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إن ما يشغل بالي وبال كل مفكر عربي مسلم في هـــذه الآونة الحاضرة من تاريخ الأمة العربية المسلمة ، مـا تبيته الصهيونية العالمية بمؤازرة قوى الاستعمار الصليبي من مؤامرات دولية تستهدف طعن الامة العربية في الصميم من كرامتها وعزتها وإبائها بفرض فكرة الحل السلمي لقضية فلسطين عليها ، لتمكين الوجود الصهيوني من أن يوطد أقدامه في الأرض العربية الواسعة ، ويمدّ جذور مؤسساته الاقتصادية والفكرية والاجتماعية في مختلف مناحيها ، لامتصاص ثرواتها الطبيعية الغزيرة وطاقاتها المادية الثرة من ناحية ، ولإشاعة ألوان الانحلال الخلقي والانهيار الروحي والفلسفات المادية الملحدة بين جمـــاهير الأمة العربية المسلمة من ناحية أخرى ، ليتاح له في نهاية الأمر تحقيق أهدافه التوسعية في أرضنا العربية المعطاء

انطلاقاً الى إقامة دولة اسرائيل الكبرى التي يحلم بها اليهود منـــذ آماد سحيقة من الزمن .

ولم يعـــد خافياً على أحد من أبناء الأمة العربية والإسلامية أطماع قادة اسرائيل في توسيع رقعة الدولة الاسرائيلية الباغية على حساب جيرانها العرب ، بعد أن أعلن قادة الرأي والفكر الديني والسياسي فيها عن مخططهم الاستعماري الاستيطاني الرهيب الرامي الى ابتلاع أجزاء الأرض العربية الواقعة بين النيل والفرات ، بدون مواربة او حياء استناداً الى القوة العسكرية المدربة وأسلحة الدمار الحديثة ووسائل التقدم العلمي والتكنولوجي الفائقة وأساليب التخطيط الإعلامي والسياسي البارع على النطاق القومي والدولي ، ليحشدوا الى جانب مزاعم حقهم التاريخي والديني في إقامة دولتهم على أرض فلسطين ، كثيراً من الدول والشعوب على صعيد هيئة الأمم المتحدة وغيرهـــا من المحافل السياسية والأندية العلمية والفكرية ومنظمات الشباب والعمال والمؤتمرات الدولية الكثيرة.

ولست الآن في معرض الحديث عن الجانب التاريخي من قضية فلسطين والعلاقات العربية الاسرائيلية الدولية ، فإن أمر ذلك يطول ومراجع البحث موفورة لمن أراد الرجوع اليها من الباحثين وطلاب الحقيقة ، ولكن الذي أريد ان أعرض له في محاضرتي هـــذه تسليط أضواء على ألوان من الزيف والكذب والافتراء التي لجأ اليها الفكر الصهيوني عبر تاريخه في تبرير دعاواه الباطلة ومزاعمه الكاذبة وترهـــاته المنحرفة ، حتى استطاع عن طريق النفوذ المالي والتسلط الاقتصادي والفكري الذي حظي به أبناء يهود في كثير من دول العالم الغربي من نشر أفكارهم وترسيخ مزاعمهم وأباطيلهم في أذهان الساسة والقادة وجماهير المثقفين في هذه الدول ، حتى مكّنتهم من إقامة دولة عنصرية دينية استعمارية في فلسطين قلب العـــالم العربي ، بحجة الحقوق التاريخية والدينية المزعومة التي منحها لهم الرب والتاريخ والقانون .

فحوى المزاعم الصهيونية :

إن هذه الحقوق التي يستند إليها قادة الفكر الصهيوني في إقامة وطن قومي لليهود في ربوع فلسطين لا تثبت على محك النقد العلمي النزيه والنقاش الموضوعي الهادىء ، ولا تقوم على أسس منطقية سليمة تسندها في مجال العرض والدراسة والمقارنة .

مزاعم الحق الديني :

إن دعوى الحقوق الدينية مبنية على أساس ما ورد في العهد القديم من أن الله وعد إبراهيم أو « عقد معه صفقة » ، لأن هذا الإله في تصور اليهود كان إلهاً تجارياً على حد تعبير العالم المؤرخ الانجليزي هـ. ج. ولز. على أن يعطيه هـــذه الأرض — أي فلسطين — له ولنسله من بعده مكافأة له ولهم لعبادته .

« فهذا الوعد منح — كما ادعوا — إلى إبراهيم ، وإبراهيم على مـــا يفترض المؤرخون ، عـاش في القرن العشرين قبل الميلاد ، أي منذ أربعين قرناً بالتمام والكمال . فمن أو ما الذي يضمن أو يثبت صدور مثل هذا الوعد أو غيره ، أو وقوع أي حادث في ذلك الزمان القصي —أي قبل أربعة آلاف عام— فهل هذه حقيقة علمية ؟

يتفق المؤرخون والباحثون — من الأوربيين قبل غيرهم — على أن كتاب اليهود هذا أو ما يسمى بالعهد القديم لم يكتب في صورته المعروفة إلا في القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد . ومعنى هـــذا أنه كتب بعد عهد إبراهيم بخمسة عشر قرناً ، وبعد موسى بثمانمائة عام ، وهذه الحقيقة لا تحتاج إلى تعليق بالنسبة لصحة أو عدم صحة ما يروى منسوباً إلى هذا الزمن البعيد .

والعلماء الذين درسوا هـــذا الكتاب وجدوا فيه أخطاء مادية ومبالغات

ومعلومات ينقضها العلم الحديث وقصصاً خياليه أثبتوا أنها استمدت من أساطير بابلية أو فارسية أو مصرية قديمة ، ولا توجد أدلة تاريخية تثبت وجود كثير من الأشخاص أو صحة الأنساب التي ذكرها الكتاب بل ظاهر أن بينها أسماء وهمية وشخصيات خرافية [1] .

كما أن التوراة بجانب هـــذا كله تصف أنبياء بني إسرائيل « بصفات يترفع عنها ابن الشارع من كذب صريح على الله وعلى الناس ، ومن زنا بالمحارم ، وأمر الله لهم بالزواج بالزانيات واتصافهم بجبل الثعالب في الحرب ، وقيادة حروب ابادة، يشيب لهولها الولدان، لا تبقي إنساناً أو حيواناً أو شجراً، ومن مصارعة إسرائيل وهو النبي يعقوب مع الله .

وهذا كله يكشف عن نفسية اليهودي ويثبتها عليه كتابه التوراة ، من نفاق وكذب على الله ، ومكر وخديعة ومادية ونفعية ، وكونهم رمز الخصام والنزاع لكل الأرض وهم لعنة كل إنسان كما تنص عليها توراتهم ، وأنهم كتبت عليهم العبودية ، كما أنهم قساة القلوب خالية نفوسهم من الرحمة ، كلهم حقد وضغينة ، يأخذون الرشوة ويسفكون الدماء ويكشفون العورات ويزنون بالمحارم بالبنت والأخت ، وأنهم فطروا على كره الصلاح والتمرد على الله حتى قالت فيهم التوراة (نجّست بنو إسرائيــــل اسم الله في الأرض) ، و « ليسوا شعب الله ولا هو لهم » [2] .

---

(١) الأرض الموعودة خرافة الصهيونية – مقال للدكتور ضياء الدين الريس – العدد ٤٥ – رمضان ١٣٨٨ هـ.

(٢) الفضائح الكامنة بين دفتي التوراه – للأستاذ عابد توفيق الهاشمي – مقال في الوعي الإسلامي العدد ٣٢ شعبان ١٣٨٧ .

حقيقة التوراة :

والحقيقة التي لا تقبل المراء أن التوراة الأصلية التي أنزلها الله على نبيه موسى قد حرفها علماء اليهود وحاخاماتهم ولم يبق منها إلا شذرات من الوصايا والتعاليم الدينية وأن العهد القديم –كما أثبته المؤرخون– قد دوّن أيام السبي البابلي حين كان اليهود يحلمون بالعودة إلى الأرض التي أخرجوا منها فانطلق بهم الوهم إلى أودية الخيال يصور لهم أن الله قد وعد سيدنا إبراهيم في الزمن القديم بأن يعطيه أرض فلسطين وأن يخرج منها أهلها الكنعانيين لتخلو لهم أرض الميعاد ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وصدق الله حين أثبت في محكم كتابه العزيز كذب اليهود وافتراءهم عليه وتنميقهم الباطل بأيديهم حين يقول : « فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويلٌ لهم مما كتبَتْ أيديهم ، وويلٌ لهم مما يكسِبون » .

تلكم أيها السادة ، هي خرافة الحق الديني الذي تزعمه الصهيونية لنفسها ، وعد بالعودة إلى أرض الميعاد لا يقوم على أساس علمي متين ، وإنما يستمد مفهومه ووجوده من منطق الزيف العلمي والتضليل الفكري الذي أشاعه فلاسفتها ودعاة الهدم المأجورون بين شعوب القارتين الأوربية والأمريكية .

مزاعم الحق التاريخي :

وإذا رجعنا إلى دعوى الحق التاريخي الذي ترتكز عليه الصهيونية في إقامة وجودها القومي على أرض فلسطين ، فإنه قد ثبت أيضاً لدى جمهرة العلماء والمؤرخين أن فلسطين هي أرض كنعان منذ القديم وأن الكنعانيين فرع من الجنس العربي ، وأن العبرانيين أو بني إسرائيل كانوا غزاة أجانب ولم تستمر فترة غزوهم وحكمهم أكثر من سبعين عاماً ، أما العرب فلم يفارقوا أرضهم منذ أكثر من خمسة آلاف سنة خلال فترات حكم الكلدانيين والآشوريين والفرس

واليونان والرومان حتى أظلّها الفتح الإسلامي بلوائه فرجعت إلى طبيعتها العربية الأصلية منذ القرن السابع إلى وقتنا الحاضر ، تسير في موكب العروبة المسلمة مع شقيقاتها الدول العربية حتى فرض عليها الانتداب البريطاني بعد احتلال الجيوش الانجليزية لها في أواخر عام ١٩١٧ م ، ودخل قائدها اللورد اللنبي مدينة القدس يختال ماشياً إلى قلب المدينة المقدسة ، حتى إذا شارف كنيسة القيامة المسيحية ، أطلق عبارته المشهورة :

« أليوم انتهت الحروب الصليبية » .

أيها الاخوة الفضلاء ،

لئن أفلحت الصهيونية العالمية بأجهزتها التنفيذية الضخمة ووسائل سيطرتها التامة على منابر توجيه الرأي والاقتصاد الوطني في القارتين الاوروبية والامريكية من إقناع معظم شعوب العالم الغربي بما امتلأت به كتب اليهود التاريخية وأسفارهم الدينية من مزاعم وحقوق باطلة في اغتصاب أرض فلسطين من سكانها العرب الشرعيين ، فإنه مما يحز في نفس المفكر العربي المسلم أن تنساب الى عقول طائفة كبيرة من أبناء العالم العربي والاسلامي ألوان من الدعاوى الفكرية الزائفة وأفانين من الاستنتاجات العلمية المضللة ، التي روّج لها دعاة الفكرة الصهيونية ، حين يزعمون لنا أن الصهيونية وليدة حركة سياسية عنصرية ، استهدفت قيام دولة مستقلة لليهود على أرض فلسطين ، استنقاذاً لهم من ضروب الاضطهادات التي تعرضوا لها في الدول الاوروبية التي أقاموا بين ظهرانيها خلال القرون الوسطى ، وأنها ثمرة من ثمرات الاستعمار الغربي غرسها في قلب العالم العربي (لأن الخطر الذي يهدد الاستعمار يكمن في البحر المتوسط الذي يقيم على شواطئه شعب واحد يتميز بكل مقومات الوحدة والترابط، ويجب أن تعمل الدول الاستعمارية على تجزئته وتفككه وإقامة حاجز بشري قوي وغريب يمكن للاستعمار ان يستخدمه أداة في تحقيق أغراضه) وفق ما جاء في التقرير البريطاني الذي

أصدرته لجنة «كامبل باترمان» عام ١٩٠٧ ، وأنها على أساس هذه النظرة تختلف عن اليهودية روحاً ومعنى، ومقصداً وهدفاً ، فكل صهيوني يعتبر يهودياً وليس من الضروري ان يكون كل يهودي صهيونياً ، لأن هناك من عقـــلاء اليهود ومفكريهم من وقف ضد الحركة الصهيونية يهاجم أهدافها التوسعية العدوانية وفلسفتها العنصرية المتعصبة المقيتـــة ، كالحاخام الامريكي المر بيرجر والكاتب الصحفي ألفريد ليلنتال والمفكر السياسي موشى منوهن .

نقول لهؤلاء إن الحقيقة التي كشف عنها منطق الحوادث وعبرة التاريخ أن ليس هنـــاك تمييز بين اليهودية والصهيونية ، وأن كليهما يستقيان من نبع واحد ويستهدفان هدفاً واحداً لم يعُدْ خافياً على أحد من مفكري العـالم الاسلامي ، وهو تجميع كل يهود العالم في دولة دينية عنصرية تسعى الى تحقيق دولة اسرائيل الكبرى على أرض الموعد حسبما يتلون في صحف العهد القديم .

والدلائل القوية والبراهين الساطعة على ذلك كثيرة ومتعددة ، فهذا مؤرخ يهودي هو (إيلي ليفي أبو عسل) يقول في كتابه (يقظة العـــالم اليهودي) : « فنحن اذا أمعنّـا النظر جيداً نرى أن تاريخ الصهيونية يتناول أربعـة أزمنة مختلفة : الأول زمن التوراة ، والثـاني الزمن السابق لهرتزل ، والثالث الزمن المعاصر لهرتزل والذي يبتدىء من سنة ١٩٠٤ الى آخر سنة ١٩١٨ م ، والرابع الزمن التالي لتصريح بلفور » .

كما يقول المؤرخ ذاته في موضع آخر من هذا الكتاب : « قلنا ان موسى كان أول من شيَّد صرح الصهيونية ، ووطد دعائمها ونشر مبادئها السياسية ، وقـــد أثبت لنا الواقع أن الصهيونية ليست في عهدنا هذا سوى حلقة من سلسلة متصلة حلقاتها بعضها ببعض اتصالاً متماسكاً وثيقـــاً ، ومتماسكة أجزاؤها تماسكاً محكماً شديداً » .

أليس هذا هو الحق بعينه حين نقول إن الصهيونية قد ُبنيت منذ البداية على دوافع دينية محضة أثارت في نفوس اليهود نوازع التجمع والانسلاخ من المجتمعات القومية الاخرى التي كانوا يعيشون فيها ناعمين هـــانئين بمراكز النفوذ المالي والاقتصادي والسياسي ، ولكنهم تركوا كل هذا الجاه واندفعوا متراكضين الى أرض الميعـــاد ، تلبية لنداء وجداني قوي ، وعواطف دينية غلابة تغلغلت في أعماق الانسان اليهودي ، فوجهت سلوكه وتصرفاته ورسمت له طريق الخلاص التي ينبغي ان يسير فيها . ومَن منـــا لا يعرف حقيقة الدافع الديني في توجيه السلوك الانساني وفق ما تقرره حقائق علوم النفس والاخلاق والاجتماع ؟

ولنصغِ بآذاننا جيـداً الى أحد أناشيد كتاب « في الفكر اليهودي » الذي يوصف بأنه إنجيل الصهيونية ، حيث يردد أحد أناشيده نغمـة الإثارة العاطفية ويطلق صيحة الجهاد الديني ضد الأعداء العرب ، فيقول :

« مثل قصف الرعد الذي يشق لهيب السحب نصفين سيدوي في آذاننـــا صوت صادر من صهيون ، وينادينا قائلاً :

« يجب أن تظل نفوسكم توّاقة الى الأبد لأرض آبائكم وأجدادكم ،
حتى ننقذ من يد الأعداء نهرنا المقدس .
وعندما نعود الى ضفاف الاردن سنحطّ رحالنا .
فقسَماً باسمك المقدس، لن نتنصل من القتال إذا ما ُدقّت طبول الجهاد» .

فالصهيونية إذاً لا تنطلق في مخططها الإجرامي التوسعي من فكر سياسي ، وإنمـا تنطلق من ميراث ديني يحضّهم على اغتصاب الأرض المقدسة من أصحابها الشرعيين ، وإلى تقويض حضارة الاسلام ، وإقامة حضارة يهودية تعيد مجد يهود وتقيمهم سادة على جماهير الأمين (غير اليهود) وسدنةً لحضارة بني الانسان .

وزعماء الصهيونية المعاصرون لا يخفون إظهار دوافعهم الدينية المقيتة في كل مناسبة تعرض لهم . فهذا موشى دايان يقول في أعقاب حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧ : « لقد قاتل الجندي اليهودي في سيناء قتالاً دلّ على عمق تديُّنه » .

كما أن بن غوريون صرّح في حديث له عقب حرب ١٩٤٨ وقيـــام دولة اسرائيل ، الى مجلة (تايمز) بتاريخ ١٦ اغسطس (آب) ١٩٤٨ م يقول : كان هناك شعبان عظيمان لا ثالث لهما ، هما اليونان واليهود ، ولا أرى أي أثر للعظمة القديمة في اليونان الحديثة .. إن لدينا رسالة لا بد أن نبلغها للعالم ، وقد قطعت تلك الرسالة في منتصفها وفي الوقت المناسب ستكون الملايين منا أقوى فأقوى وسنكمل الرسالة .

ويفضح بن‌غوريون جوهر الدعوة الصهيونية بأسلوب قوي ومنطق لا التواء فيه حين يقول في ردّه على خطاب السيد هنري بايرود الذي ألقـاه في الولايات المتحدة الامريكية في ربيع عام ١٩٥٤ م ، حين كان وكيلاً لوزارة خارجيتها لشؤون الشرق الأوسط ، وهاجم فكرة اعتبار اسرائيل وطناً قومياً للجماعات اليهودية المنتشرة في مختلف أنحاء العـــالم ، وتوجيه ولائها الوطني الى إسرائيل وليس الى الدول التي اختصتهم برعايتها وجنسيتها .

يقول بن غوريون في ردّه الذي نشرته صحيفة (دافار) العبرية في عددها الصادر يوم ٣٠ / ٤ / ١٩٥٤ م : « إن مستر بايرود لا يعرف أن العقيدة اليهودية لا تشبه العقيـــدة البروتستانتية او الكاثوليكية ، وإن أساس العقيدة اليهودية يرتكز على اعتبار الشعب اليهودي نفسه أمة واحدة ، تربطها بإسرائيل صِلات تاريخية ودينية ، وإن كل يهودي متديِّن يصلي ثلاث مرات في اليوم متوجهاً الى ربه قائلاً :

« وانفخ في بوق حريتنا ، واحمل لإنقاذ اخواني من نواحي المعمورة الأربع ،

وإلى القدس سنعود وسنبنيها قريباً بناء عالياً ، ونضع فيها عرش سليمان وتتمتع أنظارنا بعودتك الى صهيون » .

ماذا تكون هذه التصريحات والأقوال من دهاقنة السياسة والفكر الصهيوني غير دلالتها على عمق الأساس الديني في بناء الحركة الصهيونية الذي يحاول بعض من حملة الأقلام العرب إنكاره او تجاهله عامدين لغرض في نفس يعقوب .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يستند دفاعنا في الرد على أباطيل الصهيونية وعدوانها المقنع والسافر على ديننا وحرمات مقدساتنا وحريات مواطنينا على قوة الشعور الديني كما يفعل أبناء صهيون ، أم أننا نحجم عن ذلك خوفاً من أن نتهم بالتعصب الديني ضد اليهودية وبالعداء السافر ضد السامية مع أن العرب على اختلاف عقائدهم الدينية ، من إسلامية ومسيحية ، من نسل إبراهيم ، ولا يكمل دينهم إلا بالاعتقاد برسالة أنبياء بني اسرائيل .

« آمنَ الرسولُ بما أُنزِل إليه مِن ربّه ، والمؤمنونَ كلٌّ آمن باللهِ وملائكته وكتبه ورسُله لا نفرّق بين أحدٍ مِن رسُله » .

« ولا تُجادلوا أهلَ الكتابِ إلا بالتي هِي أحسنُ إلا الذينَ ظلمُوا منهم وقولوا آمنـّا بالذي أُنزل إلينَا وأُنزل إليكمْ وإلهنَا والهكمْ واحدٌ ونحنُ لهُ مُسلمون » .

لماذا نخشي الاتهام والملامة من أعداء العرب وخصوم الإسلام إذا جاهرنا بولائنا الخالص للاسلام ؟ أحباً في اليهود وبغضاً للاسلام ؟ أم هي المؤامرة الخفية التي يحيكها زبانية الصهيونية العالمية وأذنابهم من دعاة التضليل الاشتراكي في الظلام لخلخلة العقيدة الإسلامية في نفوس أبناء الأمة العربية المسلمة وتجريدهم من أقوى أسلحة النضال والفتك والمقاومة ضد عدو غاصب جبار يستهدف طردهم من أراضيهم واغتصاب أملاكهم ، وتمزيق شملهم شر ممزق وتشويه

معـــالم حضارتهم العربية الإسلامية حتى يحقق شعب الله المختار أعز أمانيه في السيطرة على مقدرات شعوب الامـــة العربية الاقتصادية والسياسية الفكرية ، ويتاح لقوى الصهيونية العالمية الباغية أن تحقق حلمها القديم في السيطرة على العالم.

الدافع الديني في اصدار وعد بلفور :

أيها الأخوة في الإسلام :

إن مما يتصل بموضوعنا مـا يلوكه بعض من المؤرخين والباحثين العرب من أن وعد بلفور الذي أصدرته الحكومة البريطانية عام١٩١٧م كان وليد ظروف السياسة الدولية التي أحاطت بالحلفاء أبان الحرب العالمية الأولى ، وأن الأمر كان مجرد إرضاء لليهود الذين تزايد نفوذهم المادي والمعنوي في أوربا وأمريكا لضمان تأييدهم السياسي وعونهم المـالي لقضية الحلفاء وأن ليس للدافع الديني أي تأثير في إصدار ذلك الوعد الظالم الذي قطعته الحكومة البريطانية على نفسها دون أن تملك الحق القانوني في إصداره ، ولكن واقع ملفات القضية الفلسطينية تكشف زيف هذا الرأي وتبين عن تآمر فظيع ضد العرب والإسلام بين قوى الغدر الصهيوني والإستعمار الصليبي الغربي .

فقد ذكر حاييم وايزمان في مذكراته مـا يؤيد هذا الرأي بقوله : « ولقد قابلت لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الذي بادر بسؤالي على الفور : لمـاذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومي في اوغندا ؟ وقلت لبلفور : إن الصهيونية حركة سياسية قومية ، هـذا صحيح ، ولكن الجانب الروحي منها لا يمكن إغفاله ، وأنا واثق تمام الوثوق أننا اذا أغفلنا الجانب الروحي فإننـا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسي القومي » .

كما أن زعيماً يهودياً آخر من زعماء الصهيونية البريطانيين هو نورمان بنتويش لعب دوراً بارزاً في أدق مراحل هـذه القضية حين كان نائباً للمندوب السامي

البريطاني في فلسطين ، فعمل على تهديدها وإفساح المجـــال لليهود الصهاينة من التغلغل في مختلف مناحي الحياة العـــامة في فلسطين بوسائل القمع والإرهاب والتسلط التي تملكها سلطات الانتداب البريطاني على فلسطين، يقول في تقرير له:

« إن الكثير من البريطانيين ومن اليهود كانوا شديدي الإيمـــان بالنبوءات الواردة في التوراة، بشأن عودة اليهود الى فلسطين.. وكان لويد جورج متشدداً بإيمانه بعدالة فكرة وعد بلفور ، وبأنها حق لا شك فيه ، وكانت التوراة هي دعامة إيمان لويد جورج ومعتقداته ، وكان خيال لويد جورج وبُعد نظره قـــد قاداه الى أن يختار هربرت صموئيل أول مندوب سامٍ لفلسطين عام ١٩٢٠م ».

ويستطرد بنتويش في فقرة اخرى من فقرات هذا التقرير بقوله :

وكتب اللورد ملنر في ذلك الوقت يقول :

« ولا يصح أبداً اعتبار فلسطين بلداً عربياً كبقية البلدان العربية، فلا يمكن أن يتجاهل الانسان التاريخ والتقاليد في هذه القضية، ولا يتجاهل أن فلسطين مهد ديانتين عظيمتين من أعظم الديانات ، وهي مقدسة عنـــد المسلمين ولكنها مقدسة كذلك لدى المسيحيين واليهود. إن مستقبل فلسطين لا يمكن ان تقرره مؤثرات عابرة ، ولا يقرره شعور سكانها المسلمين » .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن أعلى سلطة للكنيسة المسيحية تبارك هذه اللصوصية الصهيونية الفاجرة فيقول بنتويش :

« واجتمعت مرة بهارون هارنسون في حزيران عـــام ١٩١٧ م ووجدته مسروراً جداً لأنه استطاع بالتعاون مع سوكولوف ووايزمان أن يحصلوا من قداسة البـــابا على موافقة لإعلان سياسة بريطانيا الخاصة بإنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين » .

فهل هناك شك بعد ذلك في كذب الدعوى التي يروّج لها بعض العرب الذين وقعوا في حبائل التضليل الصهيوني الصليبي في كتب المدارس والثقافة العـامة من أن هذا الوعد البريطاني قد قام على أُسس سياسية وإنسانية محضة بعيدة عن روح التعصب الديني والتفرقة الجنسية المقيتة حتى يبعدوا الاسلام عن معركة تحرير الأرض العربية والمقدسات الاسلامية من براثن الطغمة الصهيونية المعتدية البـــاغية .

إن أخوف ما تخافه أجهزة الصهيونية العـــالمية ، ومن ورائها من يساندها ويدعم أهدافها التوسعية العنصرية من قوى الصليبية الاستعمارية، هو يقظة العالم الاسلامي واستمساك شعوبه بروح الاسلام عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ، فتلك بداية الانطلاقة التي ستحطم أحلامهم وأمانيهم وتوقف حركة الزحف السياسي والفكري والاقتصادي والعسكري الصهيوني المدمر ، وتعيد إلى المقـــدسات الاسلامية المدنـّسة في فلسطين كرامتها كما تعيد الأرض العربيـــة المغتصبة إلى أصحابها الاصلاء .

فهل نصغي إلى هتاف الاسلام وضمير التـــاريخ الاسلامي حين وحد صلاح الدين الايوبي البطل الكردي المسلم صفوف الامة الاسلامية وقادهـــا إلى ساحات المجد والشرف والاستبسال في فلسطين ضد جحافل الغزو الاوروبي الصليبي بعد أن استقر فيها الغزاة أكثر من قرنين ، فبدد شملهم وأطار أحلام السيطرة والعظمة من رؤوسهم وأرجعهم إلى بلادهم أذلاء مدحورين .

إن مفكراً غربياً واعياً من أبناء الغرب الصليبي المستعمر هو – جوستاف بونج – قد وعى حقيقة الزخم الاسلامي جيداً فرفع عقيرته محذراً قومه ومن والاهم من قوى الاستعمار الصهيوني حين أعلن :

« إن العـــالم الاسلامي قد أفلت من قبضة الموت الذي أعده ونسق أكفانه

الاستعمار الاوروبي ، وإن العالم الاسلامي ليسرع الخطى الى الشباب ليصفي حسابه مع الاستعمار الاوروبي الصهيوني ، وهو حساب عسير رهيب » .

كيف يحاربون الاسلام :

من أجل ذلك كله عرف شياطين المكر الصهيوني والتضليل الاستعماري طريقهم الى إضعاف روح المقاومة في الانسان العربي الحديث ، فسلطوا عليه ألواناً من البدع والمذاهب والنظريات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وجندوا لنشرها في أنحاء العالم العربي الأذناب والأمعاء من الطلائع القيادية الاشتراكية ، تبث سموم الإلحاد الديني وإيديولوجيات الفكر الشيوعي الملحد ، تحت ستار تحرير الإنسان العربي من غيبيات الدين وهوس التعصب الديني المقيت ، وتفاهة الانغلاق الفكري الذميم .

ومرّت قرابة عشرين عاماً ضلّ الفكر العربي طريقه المستقيم وتخبّط في متاهات الشك الديني والعقائد الاشتراكية الثورية والصراعات السياسية الداخلية بين الأشقاء العرب ، فاستنزفت طاقات هذا الانسان الفكرية والوجدانية والروحية في معارك جانبية لم يفِدْ منها إلا عدو العرب والمسلمين الأكبر (اسرائيل) . وأُصيب العرب بما أُصيبوا به من نكبة فاجعة لم يرَ لها تاريخ العرب في مختلف عصوره مثيلاً ، حين اندحرت جيوش العرب في حرب الأيام الستة من شهر يونيو (حزيران) عام ١٩٦٧ م ، وسقطت فلسطين كلها والضفة الغربية من نهر الاردن وهضبة الجولان السورية وصحراء سيناء وقطاع غزة ، لقمة شهية سائغة في فم الاخطبوط الصهيوني يزدردها بشراهة فائقة ، ولم يكتفِ بذلك ، بل إنه يعدّ العدة لالتهام مزيد من الارض العربية المحيطة به ما استمر العرب في ضعفهم وتخاذلهم وتفكك صفوفهم وبُعدهم عن تعاليم دينهم وتراث حضارتهم وأسباب قوتهم وعزتهم الدولية .

إن شياطين الفكر الصهيوني ما زالوا يوحون الى أوليائهم في عالمنا العربي بعد النكبة الفاجعة التي أصيب بها أبناؤه ، الى أن أسباب الهزيمة منحصرة في مظاهر النعرات الدينية والتخلف الحضاري، فظهر من بيننا كتّاب اشتراكيون وانهزاميون ينادون بإبعاد الاسلام عن المعركة ، ويدعون الى الكفر والإلحاد ونبـــذ المعتقدات الدينية التقليدية ، والتمسك بعقائد قومية واشتراكية ثورية مضلّلة ، وأطلقوا هذه الآراء في كتبهم « من النكسة الى الثورة » و « معنى النكبة مجدداً » و « نقد الفكر الديني في الاسلام » تعمل عملها في عقول جماهير أمتنا العربية المسلمة حتى تنبذ سلاحها الفتاك وتخرُّ فريسة سهلة للصراع الفكري والتمزق العصبي والقلق النفسي ، وحينئذ يتم للطلائع العقائدية الاشتراكية أن تفرض عليها الحل السلمي والاعتراف بإسرائيل وتوقيع معاهدة صلح معها ، إذ لا يجمل بطلائع البعث الاشتراكي العربي أن تدخل في صراع مسلح مع نظيراتها من كتائب الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، لأن جوهر العقيدة الاشتراكية العلمية يحتم الإخاء المتبادل وإلغاء الفوارق الدينية والجنسية بينها .

أيها الاخوة في الاسلام :

هذه بعض مظاهر الغزو الفكري التي خطط لها فلاسفة التضليل الصهيوني لمسخ أصول الثقافة القومية العربية وتعطيل العقل العربي من الانطلاق والتحليق في سماء الابداع والانتاج الفكري الخصب ، والسير به في مزالق وعرة ، تقوده إلى الانحراف والتناقض مع مقومات وجوده وسر أصالته وهو مـــا استهدفه حكماء صهيون في مقرراتهم السرية الآثمـة حين يقررون في البروتوكول التاسع (لقد خدعنـــا الجيل الناشىء غير اليهود وجعلناه فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادىء ونظريات معروف لدينا زيفها التام ، ولكننا نحن أنفسنا الملقنون لها ، ولقد حصلنا على نتائج مفيدة خارقة من غير تعديل فعلي للقوانين السارية من قبل ، بل بتحريفها ببساطة وبوضع تفسيرات لها لم يقصد إليها مشترعوها) .

وإذا كان زبانية الفكر الصهيوني المنحرف قد حصلوا على نتائج إيجابية في الماضي القريب حين بثوا في دوائر الفكر العربي ألواناً من المذاهب والحركات كالليبرالية ، والفاشية ، والوطنية ، والقومية ، والشيوعية ، والاشتراكية » وكلها من نبع أوربي بعيد عن روح المنطقة وعاداتها وتقاليدها الاسلامية الأصيلة ، فإن مما لا شك فيه أن الحركات الكبرى التي هزت الشرق الأوسط في آخر قرن ونصف كانت الحركات الاسلامية وحدها أصيلة في تمثيلها لمطامح أهل هذه المنطقة .

وإن المنظمات الاسلامية هي الوحيدة التي تنبع من تراث المنطقة وتعبر عن مشاعر الكتل الجماهيرية المسحوقة ، وبالرغم من أن كل الحركات الاسلامية قد هزمت حتى الآن غير أنها لم تقل بعد كلمتها الأخيرة .

تلك هي شهادة أستاذ يهودي من أساتذة التاريخ في مدرسة لندن للدراسات الشرقية والافريقية هو : برنارد لويس ، نسوقها لاستخلاص العبرة عن مدى ما يحدثه الاسلام من رعب وفزع عظيمين في نفوس مخططي السياسة في دوائر الصهيونية العالمية وحليفتها قوى الاستعمار الغربي .

طريق الخلاص :

وبجمل القول فإن هناك مهمة كبرى يقع عبئها على وزارات التربية والتعليم والثقافة والاعلام وجمهرة رجال الفكر والأدب والتوجيه هو تنقية أصول الثقافة العربية الاسلامية مما شابها من ألوان الزيف والتضليل والتحريف والغزو الفكري الأجنبي وصقلها بما يحقق لها التلاؤم مع ظروف الحياة العقلية المعاصرة وطبعها بالطابع الاسلامي القوي الذي يحقق لأجيال الأمة العربية المسلمة

الاعتزاز بحقائق دينها السمح وبتراث حضارتها الباهرة ، وبماضي أمته المجيدة ، كي نضمن أجيالاً عربية مسلمة قوية في دينها ، صلبة في أخلاقها ، متزنة في تصرفاتها ، معتزة بمقومات حضارتها ، مدركة لاهداف خصمها وطرائقه في الكيد والدهاء والمكر السياسي والمناورة العسكرية ، مستعدة للبذل والتضحية والاستبسال والاستشراف القوي ليوم المعركة .. معركة المصير بين جنود الحق وقوى الباطل الصهيوني الغادر في يوم آت لا ريب فيه .

وبدون هذا الاعداد العقلي والتربوي والخلقي الصارم ، وبدون هذه التعبئة للطاقات الايمانية والروحية والشعورية المذخورة في اطار التوجيه الاسلامي الشامل لجماهير شباب أمتنا العربية المسلمة بدون ذلك كله ، وبدون مبالغة أو تزيد في القول تنقلب القضية إلى مجرد فقاقيع في الهواء أو لون من الاستعراض العسكري المختال في ساحات الحرب والقتال .

إن على كل مفكر عربي ومسلم المشاركة في صياغة الجيل العربي المؤمن بربه ودينه ووطنه وأمته إيماناً لا حدود له ، إيماناً يقذف به الى مهاوي الردى فلا يهاب ، وينطلق به في عزم واصرار الى مقاتلة أعداء دينه ووطنه وحريته وكرامته الانسانية فلا يحجم ولا يتردد بل يسارع الى بذل روحه رخيصة في سبيل الله والوطن .

« قاتلوهم يعذّبْهُم اللهُ بأيديكم ويخزِهم وينصُرْكم عليهم ويشفِ صدورَ قومٍ مؤمنين ، ويُذهِبَ غيظَ قلوبهمْ ويتوبُ اللهُ على منْ يَشاءُ ، واللهُ عليمٌ حكيمٌ أمْ حسِبتم أن تُتركوا ولما يَعلمِ اللهُ الذينَ جاهدوا منكم ولم يتّخِذوا مِن دون اللهِ وَلا رسولِه وَلا المؤمنينَ ولِيجَةً واللهُ خبيرٌ بما تعملون) .

وآنذاك يفرح المؤمنون بنصر الله ويتم نعمته عليهم وهو وليّ المتقين .

(هذا بيانٌ للناس وهدًى وموعظةٌ للمتقين ، ولا تَهِنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلوْن إن كنتم مؤمنين ، إن يَمْسَسْكم قَرْحٌ فقد مسّ القوم قَرْحٌ مثلُه ، وتلك الأيامُ نُداوِلها بين الناس ولِيَعْلَمَ الله الذين آمنوا ويتخذَ منكم شهداءَ ، واللهُ لا يحبُّ الظالمين ، وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الذين آمنوا ويَمْحَقَ الكافرين) .

صدق الله العظيم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

٢٤ / ١١ / ١٣٩٠ هـ

محسن باروم

بسم الله الرحمن الرحيم

شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ

فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني

نحمد الله ونصلي ونسلم على صفوة خلقه، سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين وبعد :

أيها السادة الأفاضل،

أحييكم بتحية الاسلام، تحية من عند الله مباركة طيبة، وأسأله تعالى أن يجمع قلوبنا على محبته ومرضاته، وأن يهبنا التوفيق والإخلاص، والسداد في القول والعمل، ويرزقنا كال الإيمان، وصدق اليقين، إنه سميع مجيب الدعاء.

أيها الإخوة الأفاضل،

أفرأيتم الى الشمس الساطعة اللامعة وسط النهار، لا يحجبها حجاب، ولا يسترها

سحاب او ضباب ، فلو أن إنساناً أراد ان يطفيء نورها ، او يحجب ضياءها عن الأبصار، فنفخ بفمه عليها ، او جاء بعباءته فمدّها اليها ، فهل يذهب النور، او يحجب الضياء ؟؟..

لا .. لا .. فكذلك شمسنا التي سنتحدث عنها في هذه الأمسية الكريمة .

لن نتحدث لكم ، أيهـــا السادة ، عن شمس السماء .. وإنما سنتحدث عن شمس الأرض !..

ولن نتكلم عن الشمس المحرقة .. وإنما سنتكلم عن الشمس المشرقة .. فهل عرفتم هذه الشمس ؟..

إنها شمس « النبوة » .. شمس « الرسالة » .. شمس « الهداية » والعرفان .. إنها الضياء اللامع ، والسراج المنير ، الذي بدّد الله به شقاء الحيـــاة ، وأخرج الناس من الظلمات الى النور .. إنها « الذات المحمدية » ذات النبي الكريم ، عليه أفضل الصلاة والتسليم .. وصدق الله حيث يقول :

« يريدون ليُطفئوا نور الله بأفواههم ، والله مُتمٌ نوره ولو كره الكافرون ، هو الذي أرسلَ رسوله بالهدى ودينِ الحقّ ، ليُظهِـرَه على الدين كله ولو كره المشركون » .

هذه هي شمس الأرض ، التي سيكون حديثنا عنها في هذه الأمسية ، والـتي تحدّث عنها القرآن الكريم ، بهذا الوصف الرائع الجامع : « يا أيهـــا النبي إنا أرسلناك شاهداً ، ومُبشّراً ، ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ». وما السراج المنير إلا « شمس النبوة » التي أشرقت بضيائها وبهائها ، وأطلت على الكون بنورها الوهاج ، فأبصرها أولو البصائر ، وأنكرها العمي والعور .. ولله در القائل حيث يقول :

وشمسنا في سماء العزّ ساطعةٌ   ما ضرّها حين تعمى عندها العور

« شبهـــة »

أيها الاخوة الافاضل :

لقد درج أعداء الاسلام منذ القديم ، على التشكيك في نبي الاسلام ، والطعن في رسالته والنيل من كرامته ، ينتحلون الأكاذيب والأباطيل ، ليشككوا المؤمنين في دينهم *. ويبعدوا الناس عن الإيمان برسالته ﷺ .. ولا عجب أن نسمع مثل هـــذا البهتان والافتراء والتضليل في حق الأنبياء والمرسلين ، فتلك سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .. وصدق الله حيث يقول :

« وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً من المجرمين، وكفى بربك هادياً ونصيراً»
وقبل أن نتحدث عن « أمهـــات المؤمنين » الطاهرات ، وحكمة الزواج بهن نحب أن نردّ على شبهة سقيمة ، طالما أثارهـــا كثير من الأعداء .. من الصليبيين الحاقدين ، والغربيين المتعصبين .

رددوها كثيراً ليفسدوا بها العقائد ، ويطمسوا بها الحقائق .. ولينالوا من صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه .

إنهم يقولون :

« لقد كان محمداً رجلاً شهوانياً .. يسير وراء شهواته وملذاته .. ويمشي مع هواه .. لم يكتفِ بزوجة واحدة أو بأربع ، كما أوجب على أتباعه .. بل عدّد الزوجات فتزوج عشر نسوة أو يزيد ، سيراً مع الشهوة ، وميلاً مع الهوى . !

كما يقولون أيضاً :

« فرق كبير وعظيم ، بين « عيسى » وبين « محمد » .. فرق بين من يغالب هواه ، ويجاهد نفسه كعيسى بن مريم ، وبين من يسير مع هواه ، ويجري وراء شهواته كمحمد (كبُرت كلِمةً تخرجُ من أفواههم إن يقولونَ إلا كذِبا) .

حقاً إنهم لحاقدون كاذبون .. فما كان « محمد » عليه الصلاة والسلام ، رجلاً شهوانياً .. إنما كان نبياً إنسانياً .. تزوج كما يتزوج البشر ؛ ليكون قدوة لهم في سلوك الطريق السويّ .. وليس هو إلهاً ولا ابن الله – كما يعتقد النصارى في نبيّهم – إنما هو بشر مثلهم ، فضله الله عليهم بالوحي ، والرسالة « قُل إنما أنا بشرٌ مِثلُكم يوحى إليَّ » .

ولم يكن صلوات الله وسلامه عليه بدعاً من الرسل ، حتى يخالف سنتهم ، أو ينقض طريقتهم ، فالرسل الكرام قد حكى القرآن الكريم عنهم بقول الله جلّ وعلا :

« ولقد أرسلنا رُسلاً من قبلِك ، وجعلنا لهم أزواجاً وذرّية .. »

فعلام إذاً يثيرون هـــذه الزوابع الهوجاء في حق خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، ولكن كما يقول القائل :

« قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم المـــاء من سقم »

وصدق الله حيث يقول :

(فإنها لا تعمَى الأبصار ، ولكن تعمَى القلوبُ التي في الصُّدور) .

« ردّ الشبهة »

أيها الإخوة الأفاضل :

هناك نقطتان جوهريتان، تدفعان الشبهة عن النبي الكريم ، وتلقمان الحجر لكل مفتر أثيم.. يجب ألا نغفل عنها ، وأن نضعها نصْب أعيننا حين نتحدث عن أمهات المؤمنين ، وعن حكمة تعدّد زوجاته الطاهرات ، رضوان الله عليهن أجمعين .

هاتان النقطتان هما :

أولاً : لم يعدّد الرسول الكريم ﷺ زوجاته إلا بعد بلوغه سن الشيخوخة، أي بعد أن جاوز من العمر الخمسين .

ثانياً : جميع زوجاته الطاهرات ثيبات (أرامل) ما عدا السيدة عائشة رضي الله عنها فهي بكر ، وهي الوحيدة من بين نسائه التي تزوجها ﷺ وهي في حالة الصبا والبكارة .

ومن هاتين النقطتين ندرك — بكل بساطة — تفاهة هذه التهمة ، وبطلان ذلك الادعاء ، الذي ألصقه به المستشرقون الحاقدون .

فلو كان المراد من الزواج الجري وراء الشهوة، أو السير مع الهوى ، أو مجرد الاستمتاع بالنساء ، لتزوّج في سن (الشباب) لا في سن (الشيخوخة) ولتزوج

الأبكار الشابات ، لا الأرامل المسنات .. وهو القائل لجابر بن عبد الله حين جاءه وعلى وجهه أثر التطيب والنعمة :

« هل تزوجت؟ قال : نعم .. قال : بكراً أم ثيباً ؟ قال : بل ثيباً .. فقال له صلوات الله عليه : فهلاّ بكراً تلاعبها وتلاعبك ، وتضاحكها وتضاحكك » ، فالرسول الكريم أشار عليه بتزوج البكر ، وهو ﷺ يعرف طريق الاستمتاع وسبيل الشهوة ، فهل يعقل أن يتزوج الأرامل ويترك الأبكار ، ويتزوج في سن الشيخوخة ، ويترك سن الصبا ، إذا كان غرضه الاستمتاع والشهوة ؟!

إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يفدون رسول الله ﷺ بمهجهم وأرواحهم ، ولو أنه طلب الزواج لما تأخر أحد منهم عن تزويجه بمن شاء من الفتيات الأبكار الجميلات ، فلماذا لم يعدّد الزوجات في مقتبل العمر ، وريعان الشباب ، ولماذا ترك الزواج بالأبكار ، وتزوج الثيبات ؟

إن هذا – بلا شك – يدفع كل تقوّل وافتراء .. ويدحض كل شبهة وبهتان ويردُّ على كل أفّاك أثيم ، يريـد أن ينال من قدسية الرسول ، أو يشوّه سمعته الطاهرة ، فما كان زواج الرسول ﷺ بقصد (الهوى) أو (الشهوة) وإنما كان لحكم جليلة ، وغايات نبيلة ، وأهداف سامية ، سوف يقرُّ الأعداء بنبلها وجلالها ، إذا ما تركوا التعصب الأعمى ، وحكّموا منطق العقل والوجدان .. وسوف يجدون في هذا الزواج (المثل الأعلى) في الانسان الفاضل الكريم ، والرسول النبي الرحيم ، الذي يضحّي براحته في سبيل مصلحة غيره ، وفي سبيل مصلحة الدعوة والاسلام .

أيها الاخوة الأفاضل :

إن الحكمة من « تعدّد زوجات الرسول » كثيرة ومتشعبة ، ويمكننا أن نجملها بما يلي :

أولاً : حكمة تعليمية .

ثانياً : حكمة تشريعية .

ثالثاً : حكمة اجتماعية .

رابعاً : حكمة سياسية .

ولنتحدث باختصار عن كلٍ من هذه الحِكَم الأربع ، ثم نعقبها بالحديث عن أمهات المؤمنين الطاهرات ، وحكمة الزواج بكل واحدة منهن استقلالاً فنقول ومن الله نستمد العون :

أولاً ـ الحكمة التعليمية :

لقد كانت الغاية الأساسية من تعدُّد زوجات الرسول ﷺ هي تخريج بضع معلمات للنساء ، يعلمنهن الاحكام الشرعية .. فالنساء نصيف المجتمع ، وقد فرض عليهن من التكاليف ما فرض على الرجال .

وقد كان الكثيرات منهن يستحيين من سؤال النبي ﷺ عن بعض الامور الشرعية ، وخاصة المتعلقة بهن ، كأحكام الحيض والنفاس ، والجنابة والامور الزوجية ، وغيرها من الاحكام ، وقد كانت المرأة تغالب حياءها حينما تريد أن تسأل الرسول الكريم عن بعض هذه المسائل .

كما كان من خلق الرسول ﷺ الحياء الكامل ، وكان ـ كما يروي البخاري ـ أشد حياء من العذراء في خدرها .. فما كان عليه الصلاة والسلام يستطيع ان يجيب عن كل سؤال يعرض عليه من جهة النساء بالصراحة الكاملة ، بل كان يكنّي في بعض الأحيان ، ولربما لم تفهم المرأة عن طريق (الكناية) مراده عليه الصلاة والسلام .

تروي السيدة عائشة رضي الله عنها ، أن امرأة من الأنصار سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض ، فعلّمها ﷺ كيف تغتسل ، ثم قال لها : خذي فرصة ممسّكة (أي قطعة من القطن بها أثر الطيب) فتطهّري بها .. قالت : كيف أتطهر بها ؟ قال : تطهّري بها ، قالت: كيف يا رسول الله أتطهر بها ؟ فقال لها: سبحان الله تطهّري بها !..

قالت السيدة عائشة : فاجتذبتها من يدها ، فقلت : ضعيها في مكان كذا وكذا ، وتتبعي بها أثر الدم ، وصرحت لها بالمكان الذي تضعها فيه .

فكان صلوات الله عليه يستحيي من مثل هذا التصريح ، وهكذا كان القليل أيضاً من النساء من تستطيع ان تتغلب على نفسها ، وعلى حيائها ، فتجاهر النبي ﷺ بالسؤال عما يقع لها .

نأخذ مثلاً لذلك حديث (أم سلمة) المروي في الصحيحين ، وفيه تقول :

« جاءت أم سُلَيم (زوج أبي طلحة) الى رسول الله ﷺ فقالت له : يا رسول الله إن الله لا يستحيي من الحق .. هل على المرأة من غُسْل إذا هي احتلمت ؟ فقال لها النبي ﷺ : نعم إذا رأت الماء .

فقالت أم سلمة : لقد فضحتِ النساء ، ويحك أوَتحتلم المرأة ؟ فأجابها النبي الكريم بقوله: «إذاً فبمَ يشبهها الولد؟» مراده عليه الصلاة والسلام أن الجنين يتولد من ماء الرجل وماء المرأة ، ولهذا يأتي له شبه بأمه ، وهذا كما قال الله تعالى :

(إنا خلقنا الإنسانَ من نُطفةٍ أمشاجٍ نَبْتليه ، فجعلناهُ سميعاً بصيراً) .

قال ابن كثير رحمه الله :

« أمشاج : أي أخلاط، والمشج والمشيج الشيء المختلط بعضة ببعض .. قال ابن عباس : يعني ماء الرجل وماء المرأة ، اذا اجتمعا واختلطا » .

وهكذا مثل هذه الأسئلة المحرجة ، كان يتولى الجواب عنها فيما بعد زوجاته الطاهرات .. ولهذا تقول السيدة عائشة رضي الله عنها :

« رحم الله نساء الأنصار ، ما منعهن الحياء أن يتفقهن في الدين » .

وكانت المرأة منهن تأتي الى السيدة عائشة في الظلام لتسألها عن بعض امور الدين وعن أحكام الحيض والنفاس والجنـابة وغيرها من الأحكام ، فكان نساء الرسول خير معلمات وموجهات لهن ، وعن طريقهن تفقّه النساء في دين الله .

ثم إنه من المعـلوم أن السنّة المطهرة ليست قاصرة على قول النبي ﷺ فحسب ، بل هي تشمل قوله ، وفعله ، وتقريره .. وكل هذا من التشريع الذي يجب على الأمة اتباعه ، فمن ينقل لنـا أخباره وأفعاله عليه الصلاة والسلام في المنزل، غير هؤلاء النسوة اللواتي أكرمهن الله فكنَّ أمهات للمؤمنين، وزوجات لرسوله الكريم في الدنيا والآخرة ؟..

لا شك أن لزوجاته الطاهرات رضوان الله عليهن أكبر الفضل في نقل جميع أحواله وأطواره وأفعاله المنزلية عليه أفضل الصلاة والتسليم .

ولقد أصبح من هؤلاء الزوجات معلمات ومحدثات نقلن هديه ﷺ ، واشتهر بقوة الحفظ والنبوغ والذكاء .

ثانياً ـ الحكمة التشريعية :

ونتحدث الآن عن (الحكمة التشريعية) التي هي جزء من حكمة تعـدد زوجات الرسول ﷺ ، وهذه الحكمة ظاهرة تدرك بكل بساطة ، وهي أنها

كانت من أجل إبطال بعض العادات الجاهلية المستنكرة ، ونضرب لذلك مثلاً (بدعة التبني) التي كان يفعلهـا العرب قبل الإسلام ، فقد كانت ديناً متوارثاً عندهم ، يتبنـّى أحدهم ولداً ليس من صلبه ، ويجعله في حكم الولد الصلبي ، ويتخذه إبناً حقيقياً ، له حكم الأبنـــاء من النسب في جميع الأحوال ، في الميراث ، والطلاق ، والزواج ، ومحرمات المصاهرة ، ومحرمـات النكاح ، إلى غير ما هنالك مما تعارفوا عليه وكان ديناً تقليدياً متبعاً في الجاهلية .

كان الواحد منهم يتبنى ولد غيره فيقول له : « أنت ابني ، أرثك وترثني » وما كان الإسلام ليقرهم على باطل ، ولا ليتركهم يتخبطون في ظلمات الجهالة ، فمهّد لذلك بأن ألهم رسوله ﷺ أن يتبنى أحد الأبناء — وكان ذلك قبل البعثة النبوية — فتبنى ﷺ (زيد بن حارثة) على عادة العرب قبل الإسلام .

وفي سبب تبنيـــه قصة من أروع القصص ، وحكمة من أروع الحِكم ، ذكرها المفسرون وأهل السيَر ، لا يمكننا الآن ذكرها لعدم اتساع المجـال .. وهكذا تبنى النبي الكريم (زيد بن حارثة) وأصبح الناس يدعونه بعد ذلك اليوم (زيد بن محمد) روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال :

« إن زيد بن حارثة مولى رسول ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : (أُدعوهم لآبائِهم هو أقسَطُ عند الله) فقال النبي ﷺ : أنت زيد ابن حارثة بن شراحيل » .

وقد زوّجه ﷺ بابنة عمته (زينب بنت جحش الأسدية) وقد عاشت معه مدة من الزمن ولكنها لم تطل ، فقــد ساءت العلاقات بينهما ، فكانت تغلظ له القول ، وترى أنها أشرف منه ، لأنه كان عبداً مملوكاً قبل أن يتبناه الرسول ، وهي ذات حسب ونسب .

والحكمة يريدها الله طلّق زيد زينب ، فأمر الله رسوله أن يتزوجها ليبطل (بدعة التبني) ويقيم أسس الاسلام ، ويأتي على الجاهلية من قواعدها . ولكنه ﷺ كان يخشى من ألسنة المنافقين والفجّار ، أن يتكلموا فيه ويقولوا : تزوج محمد امرأة ابنـه ، فكان يتباطأ حتى نزل العتاب الشديد لرسول الله ﷺ في قوله جل وعلا :

«وتخشى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه،فلما قضى زيدٌ منها وَطراً زوَّجناكها لكي لا يكونَ على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضَوْا منهن وَطراً ، وكان أمر الله مفعولاً » .

وهكذا انتهى حكم التبني،وبطلت تلك العادات التي كانت متبعة في الجاهلية، وكانت ديناً تقليدياً لا محيد عنه، ونزل قوله تعالى مؤكداً هذا التشريع الجديد: « ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم،ولكنْ رسولَ الله وخاتمَ النبيِّين، وكان الله بكل شيء عليماً » .

وقد كان هـــذا الزواج بأمر من الله تعالى ، ولم يكن برغبة النبي ﷺ ولا بميله كما يقول بعض الأفـّاكين المرجفين من أعداء الله ، وكان لغرض نبيل ، وغاية شريفة هي إبطال عادات الجاهلية ، وقد صرّح الله عز وجل بغرض هذا الزواج بقوله: « لكي لا يكون على المؤمنينَ حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضَوْا منهن وَطراً » .

وقد تولى الله عز وجل تزويج نبيه الكريم بزينب ، امرأة ولده من التبني ، ولهذا كانت تفخر على نساء النبي بهذا الزواج الذي قضى به رب العزة من فوق سبع سماواته .

روى البخاري بسنده أن (زينب) رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول: زوّجكنّ أهاليكنّ، وزوّجني الله من فوق سبع سموات.

وهكذا كان هذا الزواج للتشريع ، وكان بأمر الحكيم العليم ، فسبحان من دقت حكمته أن تحيط بها العقول والأفهام ، وصدق الله (ومـا أُوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

ثالثاً ـ الحكمة الاجتماعية :

أما الحكمة الثالثة فهي (الحكمة الاجتماعية) ، وهذه تظهر بوضوح في تزوج النبي ﷺ بابنة الصدّيق الأكبر (أبي بكر) رضي الله عنه خليفته الأول .. ثم بابنة خليفته الثاني الفاروق (عمر) رضي الله عنه وأرضاه .. ثم باتصاله عليه الصلاة والسلام بقريش اتصال مصاهرة ونسب ، وتزوجه منهم ، ممـا ربط بين هذه البطون والقبائل برباط وثيق ، وجعل القلوب تلتف حوله ، وتلتقي حول دعوته في إيمان ، وإكبار ، وإجلال .

لقد تزوّج النبي ﷺ بالسيدة (عائشة) بنت أحبّ النـاس اليه وأعظمهم قدراً لديه ، ألا وهو أبو بكر الصدّيق ، الذي كان أسبق الناس الى الاسلام ، وقدّم نفسه وروحه وماله في سبيل نصرة دين الله ، والذود عن رسوله ، وتحمّل ضروب الأذى في سبيل الاسلام ، حتى قـال ﷺ – كما في الترمذي – مشيداً بفضل أبي بكر :

« ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه بها ، ما خلا أبا بكر ، فإن له عندنا يداً يكافيه الله تعـالى بها يوم القيامة . وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر . وما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له كبوة (أي تردُّد وتلكؤ) إلا أبا بكر فإنه لم يتلعثم ، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ألا وإن صاحبكم خليل الله تعالى » .

فلم يجد الرسول ﷺ مكافأة لأبي بكر في الدنيا ، أعظم من أن يُقرّ عينه

بهذا الزواج بابنته ، ويصبح بينهما (مصاهرة) وقرابة ، تزيـــد في صداقتهما وترابطهما الوثيق .

كما تزوج صلوات الله عليه بالسيدة (حفصة بنت عمر) ، فكان ذلك قرّة عين لأبيها عمر على إسلامه ، وصدقه ، وإخلاصه ، وتفانيه في سبيل هذا الدين. وعمر هو بطل الإسلام ، الذي أعزّ الله به الإسلام والمسلمين ، ورفع به منــار الدين ، فكان اتصاله عليه السلام به عن طريق المصاهرة ، خير مكافأة له على ما قدّم في سبيل الاسلام ، وقد ساوى ﷺ بينه وبين وزيره الأول أبي بكر في تشريفه بهـذه المصاهرة .. فكان زواجه بابنتيهما أعظم شرف لهما ، بل أعظم مكافأة ومنّـة ، ولم يكن بالإمكان ان يكافئهما في هذه الحياة بشرف أعلى من هذا الشرف ، فما أجلّ سياسته ، وما أعظم وفاءه للأوفياء المخلصين !..

كما يقابل ذلك إكرامه لعثمان وعلي رضي الله عنهما بتزويجهما ببنـــاته .. وهؤلاء الأربعة هم أعظم أصحابه ، وخلفاؤه من بعده في نشر ملـّته ، وإقامة دعوته ، فما أجلـّها من حكمة ، وما أكرمها من نظرة ؟

رابعاً ـ الحكمة السياسية :

لقد تزوج النبي ﷺ ببعض النسوة ، من أجل تأليف القلوب عليه ، وجمع القبائل حوله .. فمن المعلوم أن الانسان اذا تزوج من قبيلة ، أو عشيرة ، يصبح بينه وبينهم قرابــة و (مصاهرة) وذلك بطبيعته يدعوهم الى نصرته وحمايته ، ولنضرب بعض الأمثلة على ذلك من زواجه ﷺ لتتضح لنا الحكمة ، التي هدف إليها الرسول الكريم من وراء هذا الزواج .

أولاً : تزوج صلوات الله عليــه بالسيدة (جويرية بنت الحارث) سيد بني المصطلق ، وكانت قـــد أسرت مع قومها وعشيرتها ، ثم بعد أن وقعت تحت الأسر ، أرادت أن تفتدي نفسها ، فجاءت الى رسول الله ﷺ تستعينه بشيء

من المال ، فعرض عليها الرسول الكريم أن يدفع عنها الفداء وأن يتزوج بهـــا فقبلت ذلك فتزوجها فقال المسلمون: أصهار رسول الله ﷺ تحت أيدينا ؟ (أي أنهم في الأسر) فأعتقوا جميع الأسرى الذين كانوا تحت أيديهم ، فلما رأى بنو المصطلق هذا النبل والسمو ، وهذه الشهامة والكرم أسلموا جميعاً ، ودخلوا في دين الله ، وأصبحوا من المؤمنين فكان زواجه ﷺ بها بركة عليها وعلى قومهـا وعشيرتها ، لأنــه كان سبباً لإسلامهم وعتقهم ، وكانت « جويرية » أيمن امرأة على قومها .

أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

« أصاب رسول الله ﷺ نساء بني المصطلق ، فأخرج الخـُمُس منه ثم قسمه بين الناس فأعطى الفرس سهمين، والرجل سهماً، فوقعت (جويرية بنت الحارث) في سهم ثابت بن قيس ، فجاءت الى الرسول فقالت : يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه ، وقد أصابني من الأمر ما علمت ، وقد كاتبني ثابت على تسع أواق ، فأعني على فكاكي ، فقال ﷺ : « أو خير من ذلك ؟ فقالت: ما هو ؟ فقــال : أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك .. فقالت : نعم يا رسول الله فقال رسول الله قد فعلت » .

وخرج الخبر الى الناس فقالوا: أصهار رسول الله يُسترقون؟ فأعتقوا ما كان في أيديهم من سبي بني المصطلق ، فبلغ عتقـُهم مائة بيت ، بتزوجه ﷺ بنت سيد قومه .

ثانياً : وكذلك تزوج ﷺ بالسيدة (صفية بنت حُييّ بن أخطب) الــتي أسرت بعد قتل زوجها في (غزوة خيبر) ووقعت في سهم بعض المسلمين، فقال أهل الرأيِ والمشورة : هــذه سيدة بني قريظة ، لا تصلح إلا لرسول الله ﷺ فعرضوا الأمر على الرسول الكريم ، فدعاها وخيـّرها بين أمرين :

أ – إما أن يعتقها ويتزوجها ﷺ فتكون زوجة له .

ب – وإما أن يُطلق سراحها فتلحق بأهلها .

فاختارت أن يعتقها وتكون زوجة له، وذلك لما رأته من جلاله، وعظمته، وحسن معاملته ، وقد أسلمت وأسلم بإسلامها عدد من الناس .

روي أن (صفية) رضي الله عنها لما دخلت على النبي ﷺ قال لها : لم يزل أبوك من أشدّ اليهود لي عدواة حتى قتله الله .. فقالت : يا رسول الله إن الله يقول في كتابه « ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى » .

فقال لها الرسول الكريم : اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك ، فقالت يا رسول الله : لقد هويت الإسلام ، وصدّقت بك قبل أن تدعوني إلى رحلك ، ومـــا لي في اليهودية أرب ، ومالي فيها والد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام فالله ورسوله أحبُّ إلي من العتق وأن أرجع إلى قومي ، فأمسكها رسول الله ﷺ لنفسه .

ثالثاً : وكذلك تزوج عليـه الصلاة والسلام بالسيدة أم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان) الذي كان في ذلك الحين حامل لواء الشرك ، وألدّ الأعداء لرسول الله ﷺ وقد أسلمت ابنته في مكة ، ثم هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فراراً بدينها ، وهناك مات زوجها فبقيت وحيدة فريدة ، لا معين لهـا ولا أنيس ، علم الرسول الكريم بأمرها أرسل إلى (النجاشي) ملك الحبشة ليزوجه إياها ، فأبلغها النجاشي ذلك فسُرّت سروراً لا يعرف مقداره إلا الله سبحانه ، لأنها لو رجعت إلى أبيها أو أهلها لأجبروها على الكفر والردة ، أو عذبوهـــا عذاباً شديداً ، وقد أصدقها عنه / ٤٠٠ / أربعمائة دينار مع هدايا نفيسة ، ولما عادت إلى المدينة المنورة تزوجها النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام .

ولما بلغ (أبا سفيان) الخبر أقرّ ذلك الزواج وقال : « هو الفحل لا يقدع أنفه » فافتخر بالرسول ولم ينكر كفاءته له .

ومن هنا تظهر لنا الحكمة الجلية في تزوجه ﷺ بابنة أبي سفيان ، فقد كان هذا الزواج سبباً لتخفيف الأذى عنه وعن أصحابه المسلمين ، سيما بعد أن أصبح بينهم نسب وقرابة ، مع أن أبا سفيان كان وقت ذاك من ألدّ بني أمية خصومة لرسول الله ، ومن أشدهم عداء له وللمسلمين ، فكان تزوجه بابنته سبباً لتأليف قلبه وقلب قومه وعشيرته .. كما أنه ﷺ اختارها لنفسه تكريماً لها على إيمانها لأنها خرجت من ديارها فارّة بدينها ، فما أكرمها من سياسة ، ومـــا أجلها من حكمة ؟!

(أمهات المؤمنين الطاهرات)

أيها الإخوة الأفاضل :

وبعد أن تحدثنا عن حكمة تعدد زوجات الرسول بالإجمال ، نتحدث الآن عن أمهات المؤمنين الطاهرات رضوان الله تعالى عليهن، فقد اختارهن الله لحبيبه المصطفى ﷺ وأكرمهن بهذا الشرف العظيم، شرف الإنتساب إلى سيد المرسلين واختارهن من صفوة النساء ، وجعلهن أمهات المؤمنين ، في وجوب الاحترام والتعظيم ، وفي حرمة الزواج بهن حتى بعد وفاته ﷺ تكريماً لرسوله فقـال : وهو أصدق القائلين :

(النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسِهم ، وأزواجُه أمهاتُهم ..) وقال تعالى :

(وما كان لكم أن تُؤذُوا رسولَ الله، ولا أن تنكِحوا أزواجَه من بعده أبداً ، ان ذلكم كان عند الله عظيماً) .

قال العلامة القبرصي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) ما نصه :

« شرّف الله تعالى أزواج نبيّه ﷺ ، بأن جعلهن أمهات المؤمنين ، أي في وجوب التعظيم ، والمبرّة ، والإحلال ، وحرمة النكاح على الرجال ، فكان ذلك تكريماً لرسوله ، وتشريفاً لهن .. » .

أسماء أُمهات المؤمنين

وأمهات المؤمنين اللواتي تزوجهن الرسول الكريم ، يزيد عددهن على عشر نسوة ، وهن كالآتي :

أولاً : السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها .

ثانياً : السيدة سودة بنت زمعة « « « .

ثالثاً : السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها .

رابعاً : السيدة حفصة بنت عمر رضي الله عنها .

خامساً : السيدة زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها .

سادساً : السيدة زينب بنت خزيمة رضي الله عنها .

سابعاً : السيدة أم سلمة (هند بنت أبي أمية المخزومية) رضي الله عنها .

ثامناً : السيدة أم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان) رضي الله عنها .

تاسعاً : السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها .

عاشراً : السيدة جويرية بنت الحارث رضي الله عنها .

حادي عشر : السيدة صفية بنت حُيّي بن أخطب رضي الله عنها .

١ – السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

هي أول أزواجه ﷺ ، تزوجها الرسول الكريم قبل البعثة وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وهي ثيب (أرملة) بنت أربعين سنة ، وقد كانت عند (أبي هالة) بن زرارة أولاً ، ثم خلف عليها بعد أبي هالة (عتيق بن عائذ) ثم خلف عليها رسول الله ﷺ كما في الاصابة ، وقد اختارها صلوات الله عليه لسداد رأيها ، ووفرة ذكائها ، وكان زواجه بها زواجاً حكيماً موفقاً ، لأنه كان زواج العقل للعقل ، ولم يكن فارق السن بينهما الأمر الذي يقف عقبة في طريق الزواج ، لأنه لم يكن الغرض منه (الوطر والشهوة) وإنما كان هدفاً إنسانياً سامياً ، فمحمد رسول الله قد هيأه الله لتحمُّل الرسالة ، وتحمل أعباء الدعوة ، وقد يسّر الله تعالى له هذه المرأة التقيّة النقيّة ، العاقلة الذكيّة ، لتعينه على المضي في تبليغ الدعوة ، ونشر الرسالة ، وهي أول من آمن به من النساء .

ومما يشهد لقوة عقلها ، وسداد رأيها ، أن الرسول ﷺ حين جاءه جبريل وهو في غار حراء رجع إلى زوجه يرجف فؤاده ، فدخل عليها وهو يقول : زملوني زملوني ، حتى ذهب عنه الروع ، فحدّث خديجة بالخبر وقال لها : لقد خشيتُ على نفسي ، فقالت له : (أبشر ، كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ..) والحديث في الصحيحين .

قضى الرسول مع خديجة زهرة شبابه ، فلم يتزوج عليها ، ولا أحبّ أحداً مثل حبه لها ، وكانت السيدة عائشة تغار منها مع أنها لم تجتمع معها ولم ترها ، حتى تجرأت مرة عليه عند ذكره ﷺ لها فقالت :

« وهل كانت إلا عجوزاً في غابر الازمان ، قد أبدلك الله خيراً منها –تعني نفسها– فغضب ﷺ من هذه الكلمة وقال لها : لا والله ما أبدلني الله خيراً

منها .. لقد آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدّقتني إذ كذّبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » . قالت: فلم أذكرها بسوء بعده أبداً ..

وروى الشيخان عنها أنها قالت :

« ما غرت على أحدٍ من نساء النبي ﷺ ، ما غرت على خديجة ، وما رأيتها قط ، ولكن كان النبي يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة ثم يبعثها في صدائق خديجة وربما قلت له : كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة . فيقول : إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد».

عاشت مع الرسول خمساً وعشرين سنة ، خمس عشرة قبل البعثة ، وعشراً بعدها، ولم يتزوج الرسول الكريم امرأة عليها، ورزق منها جميع أولاده ما عدا إبراهيم ، وحين انتقلت الى رحمة الله راضية مرضية كان الرسول ﷺ قد بلغ الخمسين من العمر ، وليس عنده سواها ، فلم يعدّد زوجاته الا بعد وفاتها ، لبعض تلك الحكم التي ذكرناها ، رضي الله تعالى عنها وأرضاها ، وجعل الجنة مسكنها ومأواها .

٢ – السيدة سودة بنت زمعة رضي الله عنها

تزوجها ﷺ بعد وفاة خديجة، وهي (أرملة السكران بن عمرو الأنصاري) ، والحكمة في اختيارها مع أنها أكبر سناً من رسول الله ، أنها كانت من المؤمنات المهاجرات ، توفي عنها زوجها بعد الرجوع من هجرة الحبشة الثانية ، فأصبحت فريدة وحيدة ، لا معيل لها ولا معين ، ولو عادت الى أهلها بعد وفاة زوجها ، لأكرهوها على الشرك ، أو عذّبوها عذاباً نكراً ، ليفتنوها عن الاسلام، فاختار ﷺ كفالتها فتزوجها ، وهذا هو منتهى الإحسان والتكريم لها على صدق إيمانها وإخلاصها لله ولرسوله .

ولو كان غرض الرسول الشهوة ، كما زعم المستشرقون الأفاكون، لاستعاض عنها وهي الأرملة المسنة التي بلغت من العمر الخامسة والخمسين، بالنواهد الأبكار، ولكنه ﷺ كان المثل الأعلى في الشهامة، والنجدة ، والمروءة ، ولم يكن غرضه إلا حمايتها ورعايتها ، لتبقى تحت كفالته عليه أفضل الصلاة والتسليم .

٣ ـ السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها

تزوجها ﷺ وكانت بكراً ، وهي الوحيدة من بين نسائه الطاهرات ، فلم يتزوج بكراً غيرها، وكانت عائشة أذكى أمهات المؤمنين وأحفظهن ، بل كانت أعلم من أكثر الرجال ، فقد كان كثير من كبار علماء الصحابة ، يسألونها عن بعض الأحكام التي تشكل عليهم فتحلها لهم .

روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: (ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط ، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً) .

وقال أبو الضحى عن مسروق : (رأيت مشيخة أصحاب رسول الله الأكابر يسألونها عن الفرائض) .

وقال عروة بن الزبير : (ما رأيت امرأة أعلم بطب ، ولا فقه ، ولا شعر من عائشة). والأعجب فهذه كتب الحديث تشهد بعلمها الغزير، وعقلها الكبير، فلم يروَ في الصحيح عن أحد من الرجال أكثر مما روي عنها إلا شخصان هما : أبو هريرة ، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهما .

وكان ﷺ يحب عائشة أكثر من بقية نسائه ، وكان يعدل بينهن في القسمة ويقول : اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما لا أملك .

ولما نزلت آية التخيير بدأ بعائشة فقال لها : إني ذاكر لك أمراً فلا تعجلي حتى تستأمري أبويك ـ قالت: وقد علم أن أبويّ لم يكونا يأمراني بفراقه ـ فقرأ

عليها : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها... » الآية . فقالت : أوَفي هـــذا أستأمر أبوي !! فإني اريد الله ورسوله والدار الآخرة .

ولقد كانت مصاهرة الرسول للصدّيق أبي بكر ، أعظم منّة ومكافأة له في هذه الحياة الدنيا ، كما كان خير وسيلة لنشر سنّته المطهرة ، وفضائله الروحية ، وأحكام شريعته ، ولا سيما ما يتعلق منها بالنساء ، كما بيّنا عنـــد ذكر الحكمة التعليمية .

٤ – السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها

تزوجها النبي ﷺ وهي أرملة ، وكان زوجها (خنيس بن حذافة الأنصاري) قد استشهد في غزوة بدر ، بعد أن أبلى بلاءً حسناً ، فقد كان من الشجعان الأبطال، الذين سجّل لهم التاريخ أنصع الصفحات في البطولة والرجولة والجهاد.

وقد عرضها أبوها (عمر) رضي الله عنه ، على عثمان بعد وفاة زوجته (رقية) بنت الرسول ، ثم تزوجهـــا الرسول ﷺ ، فكان ذلك أعظم إكرام ومنّة وإحسان لأبيها عمر بن الخطاب .

أخرج الإمام البخاري عن عبـــد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن عمر حين تأيمت حفصة من خنيس بن حذافة – وكان شهد بدراً وتوفي بالمدينة – لقي عثمان فقال : إن شئتَ أنكحتك حفصة ؟ قال : سأنظر في أمري . فلبث ليـــالي ، فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج . قال عمر: فقلت لأبي بكر: إن شئتَ أنكحتك حفصة ؟ فصمَتَ ، فكنت عليه أوجد مني على عثمان ، فلبث ليالي ، ثم خطبها النبي ﷺ ، فأنكحتها إياه .

فلقيني أبو بكر فقـــال : لعلك وجدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة ، فلم

أرجع اليك شيئاً ؟ قلت : نعم ، قال : إنه لم يمنعني أن أرجع اليك إلا أني علمت أن النبي ﷺ ذكرها ، فلم أكن لأفشي سره ، ولو تركها لقبلتها .

هذه هي الشهامة الحقة ، بل هـــذه هي الرجولة الصادقة ، تظهر في فعل الفاروق عمر رضي الله عنه وأرضاه ، فهو يريد أن يصون عِرضه ، فلا يرى في نفسه غضاضة أن يعرض ابنته على الكفء الصالح ، لأن الزواج خـــير وسيلة للمجتمع الفاضل . فأين نحن اليوم من جهل المسلمين بأحكام الاسلام ، وجمـاله الناصع ؟ يتركون بناتهم عوانس حتى يأتي الخاطب ، ذو المال الكثير ، والثراء الوفير ؟!

٥ — السيدة زينب بنت خزيمة رضي الله عنها

تزوجها ﷺ بعد حفصة بنت عمر ، وهي أرملة البطل المقدام شهيد الاسلام (عبيدة بن الحارث) بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه ، الذي استشهد في أول المبارزة في غزوة بدر . وقـد كانت حين استشهاد زوجها تقوم بواجبها في إسعاف الجرحى ، وتضميد جراحهم ، ولم يشغلها استشهاد زوجها عن القيـــام بواجبها ، حتى كتب الله النصر للمؤمنين في أول معركة خاضوها مع المشركين. ولما علم رسول الله ﷺ بصبرها وثباتها وجهادها ، وأنه لم يعد هناك من يعولها خطبها لنفسه وآواها ، وجبر خاطرها بعد أن انقطع عنها الناصر والمعين .

يقول أخونا فضيلة الشيخ (محمد محمود الصواف) في رسالته القيمة (زوجات النبي الطاهرات) بعد أن ذكر قصة استشهاد زوجها وما فيها من سموّ وعظمة :

(وكانت قد بلغت الستين من عمرها حينما تزوج بهـا النبي ﷺ ، ولم تعمّر عنـــد النبي الكريم سوى عامين ، ثم توفاها الله اليه راضية مرضية . فما رأي الخراصين بهذا الزواج الشريف ، وغايته النبيلة ؟ وهل يجدون فيه شيئاً ممـــا يأفك الأفاكون ؟

أيجدون فيه أثراً للهوى والشهوة ؟ أم هو النبل ، والعفاف ، والعظمة ، والرحمة ، والفضل والإحسان ، من رسول الإنسانية الأكبر ، الذي جاء رحمة للعالمين .

فليتق الله المستشرقون المغرضون، وليؤدوا أمانة العلم ولا يخونوها، في سبيل غايات خبيثة استشرقوا ودرسوا العلوم الاسلامية خاصة للدس والكيد ، والنيل من سيد الانسانية محمد ﷺ .

٦ – السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها

تزوجها ﷺ وهي ثيب ، وهي ابنة عمته ، وكان قد تزوجها (زيد بن حارثة) ثم طلّقها ، فتزوجها الرسول ﷺ لحكمة لا تعلوها حكمة في زواج أحد من أزواجه ، وهي إبطال (بدعة التبني) كما مرّ معنا عند ذكر الحكمة التشريعية .

وهنا يحلو لبعض المغرضين ، الحاقدين على الاسلام وعلى نبي الاسلام ، من المستشرقين الماكرين ، وأذنابهم المارقين ، أن يتخذوا من قصة تزوج الرسول الكريم بزينب منفذاً للطعن في النبي الطاهر الزكي ، ويلفّقوا الشبه والأباطيل ، بسبب بعض الروايات الاسرائيلية ، التي ذكرت في بعض كتب التفسير .

فقد زعموا – وبئسما زعموا – أن النبي ﷺ مرّ ببيت زيد ، وهو غائب ، فرأى زينب فأحبها ووقعت في قلبه ، فقال : سبحان مقلّب القلوب ، فسمعت زينب ذلك فلما جاء زوجها أخبرته بما سمعت من الرسول ، فعلم أنها وقعت في نفسه ، فأتى الرسول يريد طلاقها فقال له : أمسك عليك أهلك وفي قلبه غير ذلك ، فطلّقها زيد من أجل أن يتزوج بها الرسول . يقول ابن العربي رحمه الله في تفسيره (أحكام القرآن) رداً على هذه الدعوى الأثيمة : فأما قولهم إن النبي ﷺ رآها فوقعت في قلبه فباطل ، فإنه كان معها في كل وقت وموضع ، ولم

يكن حينئذ حجاب ، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ، ويلحظها في كل ساعة ، ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج ، قد وهبته نفسها ، فكيف يتجدد له هوى لم يكن ، حاشا لذلك القلب المطهّر من هذه العلاقة الفاسدة ، وقد قال الله له « ولا تَمُدنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لِنَفتنهم فيه) . وقد تعقب عليه رحمة الله تلك الروايات الاسرائيلية وبيّن أنها كلها ساقطة الأسانيد .

أيها الاخوة الأفاضل :

إن نظرة بسيطة إلى تاريخ (زينب) وظروفها في زواج (زيد) تجعلنا نؤمن بأنّ سوء العشرة ، التي كانت بين زيد وزينب إنما جاءت من اختلافهما اختلافاً بيناً في الحالة الاجتماعية .. فزينب شريفة ، وزيد كان بالأمس عبداً ، وقد أراد الله امتحانها بزواج زيد لتحطيم مبدأ (العصبية القبلية) والشرف الجاهلي ، وجعل الإسلام الشرف في (الدين والتقوى) فحين عرض الرسول على زينب الزواج من زيد امتنعت واستنكفت اعتزازاً بنسبها وشرفها فنزل قوله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى اللهُ ورسولهُ أمراً أن يكونَ لهم الخِيَرة من أمرهم ومن يعصِ اللهَ ورسولهُ فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) .

فخضعت زينب لأمر الرسول ، وأسلمت لزيد جسدها دون روحها فكان من وراء ذلك الألم والضيق .

وكان محمد ﷺ يعرف زينب من الصغر ، لأنها ابنة عمته ، فمن كان يمنعها منه ؟ وكيف يقدّم إنسان امرأة لشخص وهي (بكر) حتى اذا تزوجها وصارت (ثيباً) رغب فيها ؟!

حقاً إنهم قوم لا يعقلون ، فهم يهرفون بما لا يعرفون ، ويقولون على الرسول كذباً وزوراً ، وبهتاناً وضلالاً .. ثم انظر اليهم وهم يقولون : إن الذي أخفاه

محمد هو حبه لزينب ، ولهذا عوتب.. فهل يعقل مثل هذا البهتان ؟ وهل يعاتب الشخص لأنه لم يجاهر بحبه لامرأة جاره ؟ (سبحانك هذا بهتان عظيم) .

ثم إن الآية صريحة كل الصراحة ، وواضحة كل الوضوح ، في هذا الشأن .. فقد ذكرت الآية الكريمة أن الله سيظهر ما أخفاه الرسول (وتُخفي في نفسك ما الله مُبديه) فماذا أظهر الله تعالى ؟ هل أظهر حب الرسول أو عشقه لزينب؟ كلا ثم كلا ، إنما الذي أظهره هو رغبته ﷺ في تنفيذ أمر الله بالزواج بها لإبطال حكم التبني ، ولكنه كان يخشى من ألسنة المنافقين أن يقولوا : تزوج محمد حليلة ابنه ، ولهذا صرّح الباري جلّ وعلا بهذا الذي أخفاه الرسول (فلما قضى زيدٌ منها وَطراً زوّجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائهم).

وهكذا تبطل مزاعم المفترين أمام الحجج الدامغة ، والبراهين الساطعة ، التي تدل على عصمة سيد المرسلين، وعلى نزاهته وطهارته مما ألصقه به الدساسون المغرضون .

٧ – السيدة هند ام سلمة المخزومية رضي الله عنها

تزوج الرسول الكريم بأم سلمة وهي أرملة (عبد الله بن عبد الأسد)، وكان زوجها من السابقين الأولين الى الاسلام ، وهاجر الى الحبشة ، وكانت زوجته معه خرجت فراراً بدينها ، وولدت له (سلمة) في أثناء ذلك ، واستشهد زوجها في غزوة أُحد ، فبقيت هي وأيتامها الأربعة بلا كفيل ولا مُعيل، فلم يرَ ﷺ عزاء ولا كافلاً لها ولأولادها غير أن يتزوج بها، ولما خطبها لنفسه اعتذرت اليه وقالت : « إني مُسِنّة ، وإني أم أيتام ، وإني شديدة الغيرة » .

فأجابها ﷺ وأرسل لها يقول : أما الأيتام فأضمّهم إليّ ، وأدعو الله أن يذهب عن قلبك الغيرة ، ولم يعبأ بالسن ، فتزوجها ﷺ بعد موافقتها ، وقام على تربية أيتامها ، ووسعهم قلبه الكبير ، حتى أصبحوا لا يشعرون بفقد الأب إذ عوّضهم أباً أرحم من أبيهم صلوات الله وسلامه عليه .

وقــد اجتمع لأم المؤمنين النسب الشريف ، والبيت الكريم ، والسبق إلى الإسلام .. على أن لهـــا فضيلة أخرى هي (جودة الرأي) ويكفينا دليلاً على ذلك استشارة النبي ﷺ لها في أهم ما حزَنه وأهمَّه من أمر المسلمين ، ومـــا أشارت به عليه ، وذلك في (صلح الحديبية) فقد تأثر المسلمون بالغ التأثر من ذلك الصلح مع المشركين ، على ترك الحرب عشر سنين بالشروط التي قدموهـــا ورأوا في ذلك هضماً لحقوقهم مع أنهم كانوا في أوج عظمتهم ، وكان من أثر هذا الإستياء،أنهم تباطئوا عن تنفيذ أمر الرسول حين أمرهم بالحلق أو التقصير لأجل العودة إلى المدينة المنورة ، فلم يمتثل أمره أحد،فدخل الرسول على زوجه (أم سلمة) وقال لها : هلك الناس ، أمرتهم فلم يمتثلوا ، فهوّنت عليه الأمر ، وأشارت عليه بأن يخرج اليهم ويحلق رأسه أمامهم، وجزمت بأنهم لا يترددون حينذاك عن الاقتداء به ، لأنهم يعلمون أنـــه صار أمراً مبرماً لا مردّ له . وكذلك كان ، فما أن خرج رسول الله وأمر الحلاق بحلق رأسه ، حتى تسابقوا الى الإقتداء به صلوات الله عليه ، فحلقوا وتحلّلوا ، وكان ذلك بإشارة ام المؤمنين ام سلمة رضي الله عنها وأرضاها .

٨ – السيدة أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها

وفي سنة سبع من الهجرة تزوج الرسول الكريم بالسيدة (أم حبيبة) رضي الله عنها وهي أرملة (عبيد الله بن جحش) مات زوجهـــا بأرض الحبشة ، فزوجها النجاشي للنبي ﷺ وأمهرها عنه أربعة آلاف درهم ، وبعث بهـا إليه مع شرحبيل بن حسنة ، وقد تقدمت الحكمة من تزوج الرسول بها فيما سبق .

٩ – ١٠ – السيدة جويرية بنت الحارث والسيدة صفية بنت حيي رضي الله عنهما

وتزوج الرسول الكريم بالسيدة (جويرية بنت الحارث بن ضرار) سيد بني المصطلق ، وهي أرملة (مسافع بن صفوان) الذي قتــل يوم المريسيع ، وترك

هـذه المرأة فوقعت في الأسر بيد المسلمين ، وكان زوجها من ألدّ أعداء الاسلام وأكثرهم خصومة للرسول، وقد تقدم معنا الحكمة من تزوج الرسول الكريم بها ، كما تقدم الحديث عن (صفية بنت حيي بن أخطب) عنـــد الكلام عن الحكمة السياسية .

١١ – السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها

كان اسمها (برّة) فسمّاها ﷺ (ميمونة) ، وهي آخر أزواجه ﷺ ، وقد قالت فيها عائشة : أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم، وهي أرملة (أبي رهم بن عبد العزى) ، وقد ورد أن العباس رضي الله عنه هو الذي رغبه فيها ، ولا يخفى مـــا في زواجه بها من البر وحسن الصلة وإكرام عشيرتها الذين آزروا الرسول ونصروه .

هذه – أيها السادة – لمحة عن أمهات المؤمنين، زوجات الرسول الطاهرات، اللواتي أكرمهن الله بصحبة رسوله ، وجعلهن أمهات للمؤمنين ، وخاطبهن بقوله جلّ وعلا :

(يا نساءَ النبيّ لسُتنّ كأحدٍ منالنساء إنِ اتـّقيُتنّ فلا تخضَعنَ بالقولِ فيطمعَ الذي في قلبه مرضٌ ، وُقلنَ قولاً معروفاً) . وقد كان زواج الرسول بهن لحكم كثيرة ، راعى فيهـــا ﷺ مصلحة الدين والتشريع ، وقصد تأليف القلوب ، فجذب اليه كبار القبائل ، وكرام العشائر .

وجميع زوجات الرسول (أرامل) ما عدا السيدة عائشة ، وقـــد عدّد الرسول زوجاته بعـد الهجرة ، في السنة التي بدأت فيها الحروب بين المسلمين والمشركين ، وكثر فيها القتل والقتال ، وهى من السنة الثانية للهجرة الى السنة الثامنة التي تمّ فيها النصر للمسلمين . وفي كل زواج ظهر لنا الدليل الساطع على

نبل الرسول ، وشهامته ، وسموّ غرضه ، وجميـــل إحسانه ، خلافاً لما يقوله الأفنّاكون الدسّاسون ، فلو كان للهوى سلطان على قلب النبي لتزوج في حال الشباب ، ولتزوج الأبكار ، ولكنه الحقـــد الأسود الذي ملأ قلوب اولئك المستشرقين الغربيين فأعماها عن رؤية ضياء الحق الساطع ، وصدق الله (بل نقذفُ بالحق على الباطل فيدمغُه فإذا هو زاهق) .

والسلام عليكم ورحمة الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعوة الإسلامية والمقاومة ضد الغزو المسيحي في المغرب العربي

لفضيلة الشيخ أحمد بن هرمة العلوي

أيها السادة الكرام ، إنه لشرف عظيم لي أن أحظى بالمساهمة في هذه المحاضرات القيمة التي امتازت رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة أن تنظمها كل سنة في هذا الشهر الحرام في هذا البلد الحرام ، والتي تحضرها شخصيات إسلامية من جميع أقطار العالم . وإن عنوان محاضرتكم هذه الليلة هو : الدعوة الإسلامية والمقاومة ضد الغزو المسيحي في المغرب العربي .

وإذا كان هذا العنوان يتطلب استقصاؤه ساعات كثيرة فإنني سأحاول بإذن الله تعالى أن أقتصر على نقاط ثلاث وهي :

أولاً : الدخول في الموضوع الذي يتطلب الكلام عن دخول الإسلام في المغرب العربي .

ثانياً : موقف هذا الاقليم من الحملات الصليبية .

ثالثاً : نتعرض لتفسير قوله ﷺ « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم » الخ .

أيها السادة : إذا قيل المغرب العربي إزاء الشرق العربي فإنما نعني شيئاً واحداً هو بقعة جغرافية لها طرفان ما هو غرب وما هو شرق، أما فيما عدا هذا فالمغرب عربى كالشرق عربى ، ومن هـذا الميدان لا يُفصَلُ عن الشرق حتى يُعَدّ شيئاً مغايراً له فإذا ذكرنا المغرب العربى بجانب الشرق العربى فإنا نذكر الأخ بجانب أخيه الشقيق كلاهما ينضم إلى الآخر ليكونا نواة العروبة والإسلام ، وكلاهما ينضوي تحت هـذا اللواء الخفاق الذي جمعهما في عروبته ، كما جمعهما في مبادئه وسوّى بينهما ، حتى أن المغربي يعرف أنه شرقي في الشرق ، ولا شيء يميزه عن السعودي أو المصرى أو الشامي إلا تلك الخريطة الصامتة التي الغرض منها مبدئياً تعريف المسافات وأمكنة البحار والأنهار ومنازل الشعوب والقبائل وتغيرها الأطوال والعروض التي لا تتحكم على تلك الألسن التي تكرر وترتل في المشرق وفي المغرب بصوت واحد (وللهِ المشرقُ والمغربُ يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم) .

هذه هي الحقيقة وهـذا هو الوضع الذي يوجد عليه المغرب بجانب أخيه المشرق الذي زاده الإسلام قوة ومتـانة صلة وتوثيق عُروة ، إذ لم يكن في الحقيقة وليد التاريخ الذي انبثق من نور الإسلام ، وإنما كانت له أسس ارتكزت على أغوار التاريخ القديم الذي اجتازت بمراحله قوافل المئات من السنين ، ثم طمس تلك الأسس العتيقة غبار كثيف انبعثت من تلك الاضطرابات والمطاحنات التي كان يجد المغرب نفسه فيها وقد دفع إليها دفعاً. فما كان أشبهه في موقفه ذلك بنفسه في هذا الموقف الذي أدركناه عليه ، وقد تكالبت عليه شعوب الاستعمار والحملات الصليبية الضارية ، وطوحت به إلى حيث أرادت وإلى حيث لم يرد ، ولكنه ما لبث أن صارع الأعداء حتى وجد نفسه بعد أزمات عنيفة اجتازها

ببسالة وصمود حراً طليقاً فحطم الاستعمار ورد الهجمات الصليبية على أعقابها ، وأعاد البنيان إلى ما أراده الله له ورفرفت على معالمه راية الإسلام الخفــاقة وخفقت لانتصاره قلوب العرب فرحاً، كما قلقت لهذا النصر قلوب أعداء الاسلام فرقا (وجوهٌ يومئذٍ مُسفِرة ضاحكة ٌمستَبْشِرة ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرة تَرهقُها قَتَرَة أولئكَ همُ الكفَرَة الفَجَرَة) .

وقد تكلم النسابون كثيراً في العلاقة العتيدة التي توجد بين المشرق والمغرب، كابن حزم وابن خلدون والطبري والكلبي وغيرهم مما يطول ذكرهم ولنا اعتماد على أقوال السلف الصالح والمؤرخين الحقيقيين الذين شاهدوا التاريخ وارتووا مما شاهدوه ، وإن كنا لا نلتزم أن نأخذ ببعض الجزئيات فالقضية الكبرى التي نعتبرها صادقة في الواقع والاعتقاد وتؤيدها شواهد التاريخ ومبادىء المنطق ، هى أن المغرب ارتبط بالمشرق منـذ آلاف السنين ارتباطاً قوياً ، فكان الشرق يرسل رجـالاً يحملون حضارتهم الى المغرب ، كما كان المغرب يرسل رجاله الى المشرق لبثّ حضارته ، ولهذا كانت حضارة المغرب مزدوجة كمـا كانت في المشرق . ثم جـاء دور الفكر والخيال فكان بين المغرب والمشرق تجاوب في العقائد الوثنية والخيالات الخرافية ، وإذا كان العرب قبائل رُحلاً يملكون من وسائلهم ما يطوي الفيافي والقفار، فإن وقوف البحار في سبيلهم ما كان إلا مدة قصيرة حتى ذلّلوها ، ولأجل ذلك كانت لهم رحلات متعددة الى هذا المغرب الذي كان متصلاً بهم براً وبحراً ، فالجمل كان هو السفينة البرية المختارة للفيافي والصحارى والقفار ، وكانوا يبلغون به ما أرادوا من البلاد اذا دعتهم الى ذلك الظروف والأزمان ، وقـد كان وسيلتهم المختارة الى الكسب والتوسّع ومد السلطان .

ولما أراد الله بالبشرية خيراً بعث اليها (محمـداً ﷺ) ليخرجها من ظلمات الزيغ والظلم والضلال الى نور الهداية والعدل وعبادة الله وحده لا شريك له .

كان المغرب أول من أنصت الى المشرق لأنه امتداده وطرف منه، واستجاب للدعوة المحمدية وهو يسمع بانتباه الى تلك الضجة القائمة ، فلم يكن منها إلا أن هرعت اليه تتسابق نحوه بدعاتها وتعاليمها وجيوشها ، حتى فتح لهـــا صدره واستقبلها استقبال الأخ الشقيق لشقيقه (هو الذي أرسلَ رسولَه بالهدى ودينِ الحق ليُظهرَه على الدينِ كله ولو كَرِهَ المشركون) .

ومن الغني عن الذكر أن المغرب أنجب في أول عصور دخول الاسلام اليه ، أقول أنجب رجالاً أقاموا فيه عروشهم وأسسوا فيه دولهم فجذبوا الشرق نحوهم كما جذبهم نحوه ، وقد ظهرت بالمغرب العربي شخصيات فذة عبر التاريخ قلّ ما كانت توازيها في ذلك العهد شخصية اخرى من شتى الأقاليم الاسلامية الاخرى.

وبعد هذه الكلمة الخاطفة عن الدخول في الموضوع ، اليكم – أيهـــا السادة الكرام – بدء دخول الدين الحنيف الى المغرب العربي ، ولقصر الوقت لا يمكننا إلا ان نهمل المحاولات الاولى لدخول الاسلام في المغرب الأقصى من قبـــل أمراء الجيوش في عهد الخلفاء الراشدين ، لأن هذه المحاولات – رغم أنها كللت ببعض النجـــاح – لم تحظَ بالاستقرار . وكان أول تمركز اسلامى حقيقى في المغرب العربي على يد عقبـــة بن نافع سنة ٥١ هجرية موافق ٦٧٠ مسيحية ، حين بنى مراكز وحصون في القيروان في بلاد تونس ، وكانت هـــذه أول قاعدة حربية ومدنية للمسلمين في شمال افريقيا ، وكان النجاح لعقبة بن نافع في دعوة سكان تلك البلاد الى الاسلام بطيئاً وكانت لذلك البطء أسباب داخليـة وخارجية ، إلا أن ولاة العرب الذين تولوا هذه البلاد في أواخر القرن الاول والقرن الثاني من الهجرة بذلوا جهوداً جبارة سلمية أحياناً وعسكرية أحياناً لتحويل البربر الذين كانوا معظم سكان البلاد الى الاسلام ، كما عملوا على إدماجهم في جيوشهم وانضوائهم تحت ألويتهم ، وبهـــذه الوسائل استطاعوا أن يجذبوا أغلبيتهم الى اعتناق الاسلام الحنيف .

وقد اشتهر البربر بالبسالة في الحرب والصبر عند اللقاء والوفاء بالعهد والإيمان بالله لمن دخلوا الاسلام ، وقد كان منهم قواد ورؤساء وأمراء وملوك دافعوا عن الاسلام وحوزته ، وبسبب دخولهم في الاسلام وما بذلوا من أموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، استطاع المسلمون فتح الاندلس، وهي اسبانيا ، في أقل من نصف قرن ، على أن صلات الصداقة بين العرب والبربر لم تدم طويلاً ، وقد رأى هؤلاء أنهم لم يكافؤا على ما قدموه من خدمات كما كانوا يأملون ، ومع اعتناقهم الاسلام لم يعاملهم العرب معاملة النظير للنظير بل معاملة السيد للمسود ، وكان من أثر هذه المعاملة أن حقد البربر على ولاة الأمر وانحاز بعضهم الى بعض الخوارج الذين دخلوا المغرب وأخذوا يثيرون الفتن والقلاقل في وجه العرب ، حتى أننا اذا تتبعنا حوادث سنة ١٣٠ تبين لنا ضعف الخليفة الأموي في شمال افريقيا آنذاك وقد غدت افريقيا مسرحاً للفتن والقلاقل في العصر العباسي الاول وذلك بسبب ضعف السلطة المركزية ولعدم اضطلاع البربر في ذلك العصر على كثير من مزايا الدين الحنيف وعدم استعدادهم لقبول الحضارة الاسلامية وبغضهم لولاتهم من العرب، وكان من سبب البغض ما ذكرناه من قبل وزادته الضرائب الفادحة التي فرضت عليهم ورغم موجة من الفوضاء والبلبلة تأسست دولة بالمغرب الاقصى سنة ١٧٢ وهي دولة الادارسة التي حققت معجزة في ذلك التاريخ من استتباب الامن وتحكم النظام وتطبيق الشريعة الإسلامية والسنة المحمدية ، كما أسس الأغـــالبة دولتهم في تونس بعد أن أقطع هارون الرشيد بن المهدي ابراهيم بن الأغلب تونس في سنة ١٨٤ هجرية وكانت عاصمة دولة الأغالب في القيروان السالف الذكر وكانت مركزاً للصراع والفتن فتارة يستولي عليها البربر وتارة تنزع منهم . وقد كان الخليفة العباسي ببغداد يرسل الجيوش تلو الجيوش دون جدوى حتى قُتل الأغلب وبعده ولي افريقيا عمر بن حفص من ولد قبيصة أخ المهلب بن أبي صفرة فوصل إلى القيروان وكان جند الأغلب قد استولوا عليها بعد وفاته في شهر صفر

سنة ١٥١ وأقر الأمن وأقـام العدل في تلك الربوع وبنى مدناً عديدة ومراكز ومساجد للإسلام ، إلا أنه أي عمر بن حفص بسبب جولاته عبر البلاد قد انتهز البربر الحاقدون عليه وانقضوا على هذا الوالي وهاجموا مدينة القيروان وانقضت افريقيا من كل جانب وقد جمعوا إثنا عشر عسكراً ضد الإسلام والمسلمين . فقد قام الصفري في أربعين ألفاً وعبد الرحمن بن رستل في خمسة عشر ألفاً وأبو حاتم في عسكر جرار وعـاصم الصدراني في ستة آلاف فارس والمسعودي الزناتي في عشرة آلاف وعـدد كثير من رؤساء الجيوش يطول ذكرهم باسمائهم ، إلا أن عمر بن حفص بسبب تجربته في الحرب ومن أجل ما قسم من الأموال استطاع أن يضعف حصار بعض المدن وذلك بارشاد بعض المحاصرين من الخوارج وبعد ذلك قصد عمر بن حفص القيروان التي اشتد الحصار عليها وأعمل الحيلة حتى دخلها . . .

ولما علم أبو جعفر المنصور بما حل بجند عمر بن حفص بعث يزيد بن حاتم بن قبيصه بن أبي صفرة في ستين ألف فارس فوصل إلى افريقيـا سنة ١٥٤ هجرية فبادر أبو حاتم الخارجي الى لقائه ولكن الهزيمة حلت به وقتل هو وجنده من البربر وغيرهم في شهر ربيع الأول ١٥٥ هـ واستتب الأمر شيئاً مـا في تونس . ومرت حقبة من الزمن والقلاقل والاضطرابات تتبادل مع النظام والاستقرار بسبب استمرار قبائل من البربر في افريقيا في مناوءة سلطان العباسيين وأخذت قبـائل البربر في الخروج على حكمهم وغدت كفة النصر ترجح لهم حيناً وفي جانب العباسيين حيناً آخر ، وليس من الضروري أن نشير الى الدور التمردي الذي قامت به قبائل من البربر ، كان بسبب الإعانات والإمدادات الصليبية ، الشيء الذي كان في علم المسلمين ويحسبون حسابه ولا أدل على هذا من أنه لمـا دخل البربر في الإسلام ولم يجد الصليبيون نواة من الأهـالي يستندون عليها لحرب المسلمين والإسلام أعلنوا الحرب هم أنفسهم على المسلمين ، كما سنتطرق لهـذا

الموضوع ان شاء الله . وفي شهر ربيع الأول ١٧٩ هجرية بعث الرشيد جيشاً كبيراً تحت قيادة هرثمة بن أعين لنصرة المسلمين في تونس واستطاع أن يضعف من قوتهم الا أن هـــذا القائد بثاقب نظره وطول خبرته استنتج أن ليس في استطاعته تحقيق النصر على البربر لكثرة عددهم وقوة شوكتهم متنـــازلا عن القيـــادة وطلب العودة الى الشرق حيث البذخ والرفاهية فأذن له بالقدوم في رمضان ١٨١ هجرية فكانت ولايته سنتين ونصف ، وقد عين هارون الرشيد مكان هرثمة محمد بن مقاتل بن محمد المكي أخاه في الرضاعة، فأساء معاملة الأهلين فتجددت ثورات البربر والعرب ودخلوا القيروان،أي البربر، فجمع ابراهيم بن الأغلب، وكان يلي بعض نواحي البلاد هناك، جيشاً كبيراً طرد به الثوار ودخل القيروان رغم الاضطراب والفوضاء .

وكان الصليبيون الذين طردوا من بعض الأماكن وخاصة الريفية يمدون البربر والمتمردين العرب بالرجال والعتاد وكان من أثر هذا التمرد والعداء الذي أظهره البربر في بلادهم ضد المسلمين يشجعه الأمويون والعبـاسيون بخلافاتهم الدامية كما يشجعه انضمام بعض العرب النازلين في هذه البلاد الى البربر .

وانتشرت آنذاك الفتن والقلاقل في ربوع تلك البلاد وعمل بعض زعمائهم على الاستقلال عن الدولة العباسية فتأسست ولايات من البربر على يد زعماء من سلالة العرب استقلت استقلالاً يكاد يكون تاماً ، كما تأسست ولايات على يد مسلمين سنيين وشيعيين. كان تأسيس بعضها تلقائياً وسلمياً أكثر مما كان جبرياً وعسكرياً. ومن هـــذه الولايات التي أسست على تقوى من الله : دولة الأدارسة في المغرب الأقصى ، التي أسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن في المغرب الأقصى سنة ١٧٢ إلى سنة ٣١٣ ، وقد مكثت دولة الأدارسة مـــائة وواحداً وأربعين سنة في المغرب الأقصى كلها كفاح ومقاومة للصليبيين والوثنية، ونشرت الدين الحنيف في ربوع المغرب الأقصى رغم الهزات العنيفة والمقاومات الشديدة من قبل الصليبيين والوثنيين داخل البلاد وخارجها .

هذه أيها الاخوة الكرام نظرة خاطفة على دخول الاسلام المغرب العربي والمقاومة التي لاقته . ولنتكلم الآن اذا سمحتم عن بعض مواقف المغرب العربي ومقاومته ضد الغزو الصليبي، والذي سأتطرق اليه هنا هو جملة قليلة من تدخلاته ضد الحروب الصليبية التي كانت تدب في فترات من الزمن في شتى نواحي العالم الاسلامي ، ومن المعروف أن الشام تعرضت غير ما مرة الى حروب صليبية دامت سنين عديدة ، وقد ساهم المغرب العربي بقسط كبير في طرد الصليبين خلال المائة السادسة من الهجرة عندما تحالفت جميع الدول الاوروبية المسيحية أن ترجع سيطرتها على الشام وتسترجع بيت المقدس ، ولنأتي هنا ببعض ما سجله ابن جبير في هذا المنوال بمناسبة حديثه عن الحدود القائمة وراء مدينة عكا في فلسطين عند مدخل المنطقة الصليبية حين ذكر أن المغاربة الذين هبّوا من بلادهم للدفاع عن الاراضي المقدسة ألزمهم الصليبيون عند الحدود ضريبة مكسية دون سواهم وما لذلك من سبب سوى البطولات التي قاموا بها في احدى المعارك الظافرة تحت قيادة نور الدين « زنكي » أمير سوريا ، ضد المسيحيين الغاصبين ، وفي هذا يقول ابن جبير : وأكثر من تعرض لهذا المكس المغاربة ، والاعتراض على غيرهم في جميع بلاد المسلمين وذلك لمقدمة منهم أحفظته الافرنج عليهم سببها أن طائفة من أجدادهم غزت مع نور الدين — رحمه الله — أحد الحصون فكان لهم في أخذه تاريخاً ظهر واشتهر فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم فكان المغربي يزن على رأسه الدينار المضروب عليه في اختلافه على بلادهم وقال الافرنج ان هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزؤهم شيئاً فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع اخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم ، فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو ويسهله عليهم ويخفف عنته عنهم .

ويتحدث ابن جبير — بعد هذا — عن لون آخر لهذه المساهمة المغربية ضد

الحروب الصليبية ويتجلى هذه المرة في العطف الذي يتمتع به أسراء المغاربة في الحروب وما يلاقونه من اهتمام بمصيرهم من طرف الامة الشامية حكومة وشعباً وهو يقول في هـذا : من جميل صنع الله تعالى بأسرى المغاربة بهذه البلاد الشامية الافرنجية أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهـات الشامية وسواها إنمـا يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم وانهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعـد الله عز وجل فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم ، فملوك أهل هـذه الجهات من المسلمين والخواتين « الأميرات » من النساء وأهل الثراء إنما ينفقون أموالهم في هذا السبيل ، وقـد كان نور الدين رحمه الله نذر في مرضة أصابته تفريق اثني عشر الف دينار في فداء أسرى المغاربة ، فلمـا شفي من مرضه أرسل في فدائهم فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة وكانوا من الحماة من جملة عمالته وقال : هؤلاء يفكهم أهلوهم وجيرانهم والمغاربة غرباء لا أهل لهم ، ومن الواضح أن كلمة المغاربة في نص ابن جبير يتسع لما يشمل سائر المغرب العربي والاندلس ، ونجد في طليعة المغاربة الاقصويين ، الذين جاهدوا ضد الحروب الصليبية أساساً، عالماً صالحاً مغربياً منقلعة فندلاوة التي كانت قائمة بقربة من مدينة فاس قبل أن يعدمها المرابطون. وقد تحدث عن موقفه البطولي طائفة من المؤرخين المشارقة، وهذا سياق ياقوت في «معجم البلدان» حيث قال عند مادة فندلاوة :

يُنسَب اليه يوسف بن دوناس الفندلاوي المغربي ، أبو الحجاج الفقيه المالكي، قدم الشام حاجاً فسكن بانياس مدة وكان خطيباً بهـا ، ثم انتقل الى دمشق فاستوطنها ، ودرس بها على مذهب مالك رضي الله عنه ... وكان الافرنج قـد نزلوا على دمشق يوم الاربعـاء ثاني ربيع الأول سنة ٥٤٣ هجرية ، وكان خرج اليهم أهـل دمشق يحاربونهم فخرج الفندلاوي فيمن خرج فلقيه الأمير المتولي

لقتالهم ذلك اليوم قبل أن يتلاقوا وقد لحقته مشقة من المشي ، فقال له : أيها الشيخ الإمام ارجع ، فأجابه : نحن بعنا واشتُرِيَ منا ، يريد قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأن لهمُ الجنةَ يقاتِلون في سبيل الله) . فلما انسلخ النهار حتى حصل له ما تمنى من الشهادة .

ويضيف أبو يعلى في « ذيل تاريخ دمشق » على الثبات الذي تحلى به هذا المغربي عند المعركة الاولى التي يقول في صدد الحديث عنها :

استشهد في هذا اليوم الإمام يوسف الفندلاوي المالكي (رحمه الله) لوقوفه في وجوههم وترك الرجوع عنهم . ويضيف ابن أبي شاسة الى قصة الفندلاوي تعيين مشهده بدمشق ويقول عنه : وقبره — الآن — يزار بمقابر الباب الصغير من ناحية حافظ المعلى وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله .

فتلكم — أيها السادة — بعض مشاركات المغرب ضد الغزو الصليبي في الشام . ولم يقف هذا البلد العربي الاسلامي مكتوف الأيدي حينما تعرضت مصر سنة ١٢١٣ هجرية للاعتداء الغاشم الذي قام به نابوليون بونابرت ضدها ، وقد اهتز الشعب المغربي لهذا الحدث ، وكان للحجاج المغاربة أثر فعّال في مساهمة بلدهم في الدفاع عن أرض الكنانة حين ألّف المغاربة كتيبة كبيرة من المجاهدين تحت قيادة العلامة الشهير والمجاهد الكبير الشيخ محمد الجيلاني السباعي عالم مراكش ومفتيه . وحسب ما أورده الجبرتي في كتابه « عجائب الآثار » فقد كان الشيخ المغربي حين الحادثة مجاوراً بمكة ، ولما وردته أخبار الحملة الصليبية الاستعمارية ضد مصر للحجاز جمع الناس بالحرم الشريف ، وصار هذا الشيخ يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد بالمسجد الحرام ، ويوجد كتاب مؤلّف لهذا الغرض ، فاتعظ جملة من الناس فهبّوا للجهاد وبذلوا أموالهم وأنفسهم ، وقد وصلوا فعلاً الى مصر

في جموع كثيرة وحاربوا الفرنسيين، وثبت الشيخ السباعي في جماعته الى أن توفي بأرض مصر .

وألّف المغاربة أيضاً كتيبة ثانية تحت قيادة ابن الاحرش ، وكان زعيماً من زعماء المغرب الأقصى وقد جاء وافداً لحج بيت الله الحرام ، فلما بلغه نبأ غزو نابوليون لمصر جمع جيشاً كبيراً من سكان المغرب العربي وانضمّ الى الجيش المصري وقاتل المعتدين ببسالة وأبلى بلاءً حسناً ، كما ذكر ذلك في كتاب « تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر » .

وخارجاً عن ما قام به هذان الجزائريان المغربيان فقد تجلى الحماس الكبير للقضية المصرية بصورة أكثر وأنجع في داخل المغرب ، وظهر بعض الخطباء والشعراء في الفصيح والملحون ، ونذكر من بين شعراء الفصيح أبا الربيع سليمان الحوات ، ومن بين شعراء الزجل في تلك الفترة الحاج محمد النجار في قصيدة تعرف بالمصرية، وأخرى مثلها لمحمد بن علي العمراني، ويوجد من بين خطب الفقيه الرهوني المعروفة، واحدة وضعها بمناسبة حملة بونابرت ضد مصر يقول فيها: فلهذا تسلّط أهل الكفر على أهل الاسلام واستولوا على أعظم البلاد بلا ضرب بالسيوف ولا رمي بالسهام ، فما أعظمها من مصيبة أصابت الخاصة من المسلمين والعامة ، فليس في الحياة بعد هذا من خير ولا يزداد الحال إلا لعظيم الضير . انظر « الخطبة المنبرية » لمحمد بن محمد الرهوني . وفي خطبة اخرى للرهوني يقول : وانفروا للجهاد خفافاً وثقالاً وأبدوا الجد في نصرة اخوانكم المسلمين أنفساً وأموالاً . فقد أتاهم النصارى دمرهم الله أفواجاً وأذاقوهم من سوء صنيعهم ملحاً أجاجاً . أفيطيب عيشكم يا معشر المسلمين وإخوانكم قد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ؟.. وجاء في خطبة لأبي الربيع سليمان بن الحوات ما

نصه : وهل سيتم ما كان فى هـذا العصر من دخول الكفار لبلاد مصر وعثوهم فيها وإفسادهم نهباً وقتلا ؟..

وفى انتصاف القرن الثامن تعرضت مدينة طرابلس الغرب لاعتداء من طرف المملكة الإيطالية ، وكان ملك المغرب إذ ذاك هو السلطان أبو عنـان المريني ، وما أن سمع بالنبأ المفجع حتى فكر فى تحرير المدينـة المحتلة ، ثم كاتبه نوابه ليخابروا المحتلين فى فدائها ، وكان المبلغ الذي صار اليه الاتفـاق يقدّر بخمسين الف دينار ذهبية . ولما علم بهذه النتيجة استبشر وقال : الحمد لله الذي استرجعها من أيدي الكفار بهذا القدر اليسير . وأمر في الحين ببعث ذلك المبلغ ورجعت المدينة الى حظيرة الاسلام بفضل مسعى السلطان المغربي .

وقد تعرضت المدينة لحصار أمريكي أوائل المائة الثالثة عشر للهجرة فعـاد المغرب لنجـدة طرابلس وفك الحصار عنها أيام السلطان العلوي المولى سليمان . ففي عـام ١٢١٧ هجرية ١٨٠٣ ميلادية وجهت أمريكا أسطولها الحربي لحصار طرابلس، ولما كانت سفنها تمر – آنذاك – بالسفن المغربية ، هبّ المغرب لنصرة القطر الشقيق وسار الاسطول المغربي يسابق الرياح حيث كانت فيه سفن خفيفة وبهذا كانت قوة سيره مضاعفة ، وما كاد الاسطول الأمريكي يصل الى طرابلس حتى اعترضه الاسطول المغربي فقطعه عنها ، ولم تمض إلا مدة يسيرة حتى صيّره على وجه الماء . ولما بلغ هـذا مسامع أمريكا بعثت بعمارة اخرى الى طرابلس ، ولكن لقيها الاسطول المغربي مرة اخرى فبدّد العمارة الامريكية هناك .

وهناك رسالة جادوث عن السلطان المولى سليمان الى أمير ليبيا يوسف باشا ، وقد جاء فيها في هـذا الصدد : « ... لا نألوا جهداً في صلة نصرتكم وإعزاز أمركم وإسعاف قصدكم » . وتُبرز الرسالة الغـاية من قطع هذا الوعد وتقول :

« وقصدنا بهذا أن يُعلَم اعتناؤنا بأمركم وعملنا على نصركم واهتمامنا بشأنكم ليقصر شأو أعدائنا وأعدائكم ويتمزق طائر طغيانهم » . وفي هذا تلميح لمحاصرة الاسطول الأمريكي لمدينة طرابلس . وقبل طرابلس نذكر أن مدينة تونس استهدفت هي الاخرى لاعتداء أجنبي على كيانها حيث تعرضت للحملة الاسبانية سنة ٩٤١ هجرية ، وقد كان لهذا الحادث صداه في البلاد المغربية ، وممن تفجع له إمام فاس أبو الحسن علي بن هارون في قصيدة يقول في مطلعها :

شاقك الغيث إذا الغيث انهمر

حضرة الانس البديع التونسي

وفي هذه الفترة قام السلطان أبو العباس الوطاسي بفداء علامة تونس من الأسر وهو الإمام محمد بن أبي الفضل خروف التونسي ٩٤٧ هجرية حيث استوطن مدينة فاس الى ان توفي بها وقد ذكر هذه القصيدة في فهرسته ويطول ذكرها هنا .

وفي الجزائر اعتدى الاسبان على مدينة وهران ٩١٥ هجرية ثم اعتدوا بعدها على مدينة تلمسان ، وقد تدخل المغرب لفائدة تحرير هذه المدينة الأسيرة من المحتلين أيام السلطان ابو العباس الوطاسي ، كما يطول ذكر الوقائع التي خاضها المغاربة ضد المحتلين الاسبان والفرنسيين في القرن الحادي عشر والثاني عشر من الهجرة في الجزائر ، وقد استمر كفاح المغرب ضد الغزو الصليبي والاستعماري حتى غلبت دول الاستعمار الثلاثة وهي: فرنسا، واسبانيا، وايطاليا . واحتلت أقطاره الأربعة ، إلا أن المقاومة الشعبية التي قادها الشعب تحت قيادة ملوكه كالمغرب وزعمائه كالاقطار الأخرى كانت قوية ومستمرة الى أن طردوا الصليبيين والاستعماريين من أرضهم .

فتلكم أيها السادة مقتطفات من التاريخ الماضي عن دخول الاسلام للمغرب العربي وعن بعض المقاومة التي قــام بها ضد الاحتلال الاجنبي والغزو الصليبي وإليكم الآن كلمة عن مقاومته الحديثة للدول الاستعمارية التي احتلته كما ذكرنا آنفاً ، فقـــد قام زعماء كل قطر من أقطاره الأربعة بمقاومة المحتلين بمساندة شعوبهم . فمن المعلوم أن عبقرية الأشخاص تترعرع وتتكون أصولها وفروعها معهم غالباً في صغرهم وتتطور وتتجلى معهم في احتكاكاتهم الخاصة والعامة ، وكما أن التاريخ يحدثنا عن عدد من الشخصيات البارزة فى جميع المجالات وعبر حقب التاريخ ، فقد شاهدنا فى عصرنا هذا شخصيات أنجبها المغرب العربي ومن أبرزها ذلكم الرجل المسلم القائـــد الموهوب والبطل الصلب الذي لا يقبل الضيم الملك محمد الخامس رحمه الله الذي جاوز صيته المغرب العربي،وقد قاوم الاستعمار والغزو الصليبي، قبل ان تسند اليه مقاليد الحكم فىبلاده بكيفية رسمية ودولية، بالدعاية للاسلام ورفضه الاعتراف بسلطات الحماية الفرنسية. فأعلنها حرباً صادقة قوية على الظلم والطغيان وكافح طيلة عشرين سنة وكان يسانده ويؤازره ابنه وولي عهده الملك الحالي الحسن الثاني ، ولم يزالا في كفاحها ومقاومتها للظلم والطغيان حتى نصرهما الله في سنة ١٩٥٥ حيث رجع الملك الصالح محمد الخامس رحمه الله بوثيقة الاستقلال من منفاه .

وفي الختام أريد أن أتطرق الى حديث شريف يدل معناه على ما حل بالأمة الاسلامية من ضعف وهوان كما تطرق الى تفسيره العــالم المغربي الشهير « الرحالي الفاروقي » بمناسبة مؤتمر القمة العربي والاسلامي الذي عقد في الرباط: « جاء عن النبي ﷺ انه قال : يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة الى قصعتها فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم كثيرون ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهــابة منكم ، وليقذفن الله الوهن في قلوبكم ، فقال قائل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قـــال : حب الدنيا وكراهية الموت » .

هذا الحديث الشريف يعبر بدقة وصراحة عن حياة المسلمين في هـذا العصر الطاغي المترامي وينعتها بالتأخر والضعف والتراخي وكأنمـا عبر عن مشاهدة الوقائع والمجريات ومتابعة الأطوار والأحداث . كيف لا وقـد أخبر أن أمم الكفر وهي ملة واحدة ودولة واحـدة ستتداعى على المسلمين بالقوة والعداوة لتكسير شوكتهم وتمزيق وحدتهم وتوزيع ثروتهم ، كما تتداعى الأكلة في حرص وشره الى قصعتها لتتناول ما بها من طعام وأدام ، وفعلاً فإن الأمم الأجنبية قد تمالأت وتألبت بأشكال مختلفة على اقتسام النفوذ واكتساب المصالح في بلدان المسلمين من قريب وبعيد حتى انهم باتوا رعية لغيرهم يتحكمون في سياستهم وتخطيطاتهم ويتصرفون في مصيرهم ومقدراتهم ويستدرجونهم بما خف من العلم ويستذلونهم بما قلّ من المال.ولما أخبر النبي ﷺ أصحابه قال: بل أنتم كثيرون ولكنكم غثاء كغثاء السيل وصدق رسول الله ﷺ ، فإن المسلمين في المشارق والمغارب يتجاوزون اليوم سبعمائة مليون ولكنهم لا يحركون ساكناً ولا يدفعون غاصباً ، ولا يعترضون مغيراً ، ولا يجتمعون على أمر . والغثاء عبارة عما يحمله السيل عند اندفاعه من الأوساخ والأقذار التي لا بال لها ولا شأن ، والمراد أن الأمم المتداعية عليهم تزدريهم وتحتقرهم في قرارة نفسها ولم تقم لهم وزناً عند وضع سياستها لجهلهم وفقرهم وسوء تصرفهم ، ومن هنا عقب ﷺ ذلك بقوله : « ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم » .

ولا أدل على صدق هذا القول الشريف من أن دويلة الغرباء واللفيف أصبحت تقيم فوق أراضيهم وتعتدي على معالم دينهم وتفرض وجودها بالعنف عليهم بمقامرة الصهيونية الكافرة ومغامرة الرأسمالية الفاجرة ولا تحسب أي حساب لوجودهم ولا تعير أدنى اهتمام بحقوقهم وما ذلك إلا لتنازعهم واختلافهم واتخاذ الشعارات المخالفة لشريعتهم وطبيعتهم وإلا لكراهيتهم الجهاد والانفاق في سبيل الله ،

ومن أجل ذلك قال ﷺ : « وليقذفنّ الله الوهنَ في قلوبكم » . فقال قائل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حُبُّ الدنيا وكراهية الموت » .

وترجمة الحديث أن النبي ﷺ حذر المسلمين بوحي من الله منذ أربعة عشر قرناً من الوقوع فيما آلوا اليه من التخلف المخزي والهوان المزري ، وذلك بسبب الركون الى الدعة والراحة وحب الحياة والبقاء ، والهروب من الجهاد ومواجهة الأعداء .

وأخبرهم أن الشعوب ستنتهز فرصة ضعفكم وفساد أخلاقكم فتتعاون على المزيد من إضعافكم وإفسادكم، ثم تتداعى الى إخضاعكم واحتلال أراضيكم وفرض أنظمتها وقوانينها عليكم بواسطة أسماء مزوّرة وألقاب مفتعلة ، وإنه لا عبرة يومئذ بكثرتكم لاختياركم الحياة على الموت ، ولتفضيلكم الإمساك على الإنفاق .

ثم إن الحديث الكريم يحمل مع هذا الإخبار بالغيب ، إثارة مشاعر المسلمين وبعث حماسهم ونشاطهم وضرورة تغيير أحوالهم ومراجعة تاريخهم ، فإن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ، وإن من حذرك من تعاطي أسباب الحقارة والمهانة فقد طلب إليك أن تأخذ بوسائل القوة والمتانة ، وأن تعلم أن العزة والرفعة تكمنان في الجهاد والنضال وإعداد العدة لميادين القتال ، وفي إقامة العدل وإصلاح الأحوال ، وفي تصعيد الإنتاج وتحريك الأموال .

وإذا كانت الأمم قد تداعت كما أخبر النبي ﷺ الى الهجوم الظالم الممنوع ، فالمسلمون مأمورون بالتداعي الى حرب الدفاع المشروع امتثالاً لقوله تعالى : (وقاتِلوا في سبيل الله الذين يُقاتِلونَكم ولا تَعتَدُوا إنَّ اللهَ لا يحبُّ المعْتدِين) (وأنفِقوا في سبيل الله ولا تُلقُوا بأيديكم إلى التَّهلُكَة وأحسِنوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحسِنين) .

أيها الاخوة الكرام ،

رغم هذا كله فإنه لا ينبغي لنا اليأس ، فقد شاهدنا أنه وقعت خطوات في طريق الخير ، فقد سمعنا منذ ٦ سنوات دعوة الملك فيصل آل سعود حفظه الله الى اجتماع رؤساء المسلمين وجمع كلمتهم في خطابه التاريخي بمكة المكرمة بمناسبة موسم الحج ، وقليل ما كان يفكر آنذاك أحد في إمكان اجتماع من هذا النوع . ولم يكلّ ولم يملّ الملك فيصل ، بل استمر في دعوته الاسلامية في جميع خطبه الدولية والدينية في كل مناسبة ، جزاه الله أحسن جزاء . وها نحن شاهدنا ثلاث مؤتمرات عقدتها جميع الدول العربية والإسلامية ، أولها مؤتمر القمة العربي والاسلامي الذي عُقد بالرباط سنة ١٩٦٩ م .

ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يوحّد كلمة المسلمين ويوفق قادتهم لما فيه خير الدنيا والآخرة إنه سميع مجيب . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

●

بسم الله الرحمن الرحيم

الحج والجهاد - أو الحج أحد الجهادين

فضيلة الشيخ محمد الشاذلي بن القاضي

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله الطاهرين وأصحابه الغر الميامين ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين . والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين .

أما بعد فإني ممنون منشرح الصدر لتلبية الدعوة الكريمة التي تقدمت بها إليّ رابطة العالم الإسلامي الموقرة للمشاركة في هذه الندوات المباركة .

هذه الرابطة التي يعلق عليها النخبة من المسلمين آمالا طيبة لتحقيق ما عز تحقيقه نحو الإسلام والمسلمين منذ دهر طويل . وإن هذا المنبر الذي أقامته الرابطة لتصدر منه دعوة الحق في حرم الله الشريف لهي حسنة من حسناتها المتعاقبة ، وتحقيق لغرض من سامي الأغراض التي أنشئت من أجلها ونحن لا يسعنا

إلا الشكر والثنـــاء لأمينها الهمام الشيخ محمد سرور الصبان وأعضاده الصالحين الذين يعملون جميعاً جادين لتحقيق الأهداف الحميدة التي أنشئت من أجلها رابطة العالم الإسلامي .

وإن التطور العظيم الذي تدرجت فيه الرابطة من عهد تأسيسها الى ما حصل في سنواتها العـــامرة من جليل الأعمال ليطمئن نفوسنا نحن معشر المسلمين على المستقبل الباسم الذي سيكون خيراً كله بعون الله وقوته وحسن توفيقه .

وان ما أولاها به الملك المعظم خادم الحرمين الشريفين فيصل بن عبد العزيز من رعاية وتقدير وسامي عناية وتشجيع وتكريم لكفيل بتوطيد أركانهـــا وصيانتها من العثرات ومدد عظيم لتحقيق مشاريعها الصالحة .

فإن رابطة العالم الإسلامي فريدة في نوعها ، تأسست في وقت نحن في أشد الحاجة الى مؤسسة عامة اسلامية بالمعنى الصحيح تعمل على شدّ أواصر الأخوة الإسلامية بين المسلمين أفراداً وجماعات وشعوباً ، وتسعى لجمع كلمتهم على الحق وتنشر بينهم تعاليم الإسلام السامية وتساند المؤسسات الإسلامية في سائر بلاد الإسلام وغيرها وتجمع شملهم وتوجيههم الى الواجب الذي يحتم عليها القيام به في أقطارهم وبين بني أمتهم ونحو حكوماتهم من قيـــام أحكام الشريعة الإسلامية الغراء لتكون كلمة الله هي العليا وشريعة الإسلام هي المحكوم بهـــا المتبعة في الأمور كلها المعمول بها وبأحكامها بين المسلمين فيما بينهم ، المهيمنة على ما سواها من المستحدثات التي ما أنزل الله بها من سلطان .

وإن الدعوة الفاضلة التي تقدمت بها رابطة العـــالم الإسلامي الى التضامن الإسلامي وتلبية الملك المعظم لهذه الدعوة الصالحة وما حصل من اجتماع الملوك والرؤساء وما أحدث من تأسيس أمانة عامة لهذا المشروع الخطير المبارك ، كل ذلك يسجل لرابطة العالم الإسلامي في تاريخها هذه المنقبة بكل اعتزاز وتقدير

ويشجع مجلسها الموقر على السير قدماً نحو الأهداف ليخطو بشارينه الخطوات الصالحة بتوءدة وحسن تبصر مستعيناً بالله تعالى ذي الحول والطول والقوة، متقيداً بأحكام الشريعة، غير مبدل ولا مغير لأحكام الله، محيياً سنة الرسول وسنة خلفائه الراشدين، مجدداً لهذه الأمة أمر دينها باعثاً فى نفوس المسلمين ما به يكونون رحماء بينهم أعزاء فى أوطانهم متضامنين متكافلين لا يضرهم من خالفهم أشداء على من عاداهم ومن أراد بهم السوء وأراد طمس نور الله الذي زينه فى قلوبهم وهداهم به جل جلاله الى الصراط المستقيم «ولله العزة ولرسوله والمؤمنين». «ويأبى الله إلا أن يُتمّ نوره ولو كَرِه الكافرون». وإن أعز ما تقوم به رابطة الإسلامى ومجلسها الموقر هو: اقناع المسلمين قادة وشعوباً بأن تكون القيادة للإسلام لا سواه.

فقد عمل أعداء الإسلام على انتزاع ذلك من نفوس المسلمين منذ قرون حتى صار المسلمون فى هذه العصور يشكون من صلاحية تلك القيادة التى أمر الله بها وحققها رسوله والمسلمون بعده. فيجب علينا جميعاً أن نراجع نفوسنا فى هذا الأمر الخطير ونسعى جادين فى اقناع الخاصة والعامة بأن تكون القيادة للإسلام، وعند ذلك يتحقق النصر نصر الله الموعود بـه «وَعْدَ اللهِ حقاً ومَن أصدقُ مِن اللهِ قيلاً» «ان اللهَ لا يُخلِفُ الميعاد» وان ما يشاهد من تحمس المسلمين للاسلام واقبالهم على الحرمين الشريفين واقبالهم على الحج والعمرة بما لا مثيل له فى الماضى ليبعث في النفوس الزكية الطاهرة قوة الأمل والسعى الدؤوب على رفع منار الهداية الإسلامية والتوجيه المقنع النافع لشرع الله المتين وتجديد القيادة الاسلامية على الوجه الأكمل.

فظاهرة المسلمين في إقبالهم على أداء هذا الركن العظيم مع ما يكتنفه من مشاق وأتعاب وبذل ليسفّه أحلام من يعملون على تحويل المسلمين عن دينهم والظانين بالمسلمين ظن السوء.

فان اجتماع هذا العدد الضخم من أبناء الاسلام على صعيد واحد وفي وقت واحد وعلى اتجاه واحد للحج والعمرة بقلوب مؤمنة حلّت بها الهداية الربانية وخالطتها بشاشة الإيمان فأذاقها الله حلاوته وزكّاها ورفع عنها دواعي الخطيئة فثابت الى الرشد واستعدت لتلقي كلمة الحق من أهل الحق، كما استعدت لارتكاب الصعاب وهجر الاوطان وبذل النفيس مستجيبة لداعي الله .

«لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» كلمة الاسلام تحج بها أصوات الحجيج الوافدين على الله وترتفع بها أصوات القادمين على حرم الله تجردت نفوسهم من دواعي الشهوات، كما تجردت أجسامهم من فاخر الثياب والرياش وزينة الحياة .

هذه ظاهرة لها وزنها ولها اعتبارها ولها معقباتها عند من يحسب لها حسابها ويعي معنى الحج وأسراره والحج وما أدراك ما الحج الحج ركن الاسلام العظيم .

الحج دين .

الحج شريعة .

الحج عبادة .

الحج جهاد .

أما كون الحج ركن من أركان الاسلام فذلك ما أفصح عنه حديث جبريل عليه السلام الذي جاء يسأل الرسول ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة فأجابه الرسول ﷺ عن الاسلام بأنه شهادة أن لا إله إلا الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا، فكان الحج خامس الأركان التي بني عليها الاسلام .

وأما كون الحج ديناً فإن الله عز وجل أمر به في كتابه المنزل فقال جلّ

جلاله وقوله الحق: (ولله على النّاس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا) وبينه رسوله ﷺ في حديث جبريل عليه السلام وقال « : في الآخرة هـذا جبريل جاء يعلمكم دينكم» ، فالحج دين يجب اعتقاد فريضته ومن جحد فريضته كان كافراً بما جاء به رسول الله ﷺ ، وما هو معلوم من الدين بالضرورة المجمع عليه بين المسلمين يعلمه الخاصة والعامة .

وفي هذا السلك يدخل من يستهزىء بمشروعيته من الضالين المفتونين الجاهلين للإسلام وأحواله وقواعده وأركانه .

وأما كون الحج شريعة فان الله شرعه في شريعة الاسلام ومن ضمنها أحكام الحج وأوضح معالمه في محكم آياته وعلى طريق رسوله ، فبين ما شرع من أحكام لهذه العبادة وبيّن مناسك هذه العبادة وشعائرها أتم بيان قولاً وفعلاً ، فجاءت شرائع الحج في الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة ، وقال الرسول ﷺ في حجة الوداع: «خذوا عني مناسككم» تبييناً لشرائع الحج بالقول والفعل، ونقلها عنه أصحابه من بعده للناس وعليها عمل المسلمين الى اليوم .

والحكمة في مشروعية الحج قد سار الناس في بيانها في هـذا العصر على وجه فيه شطط فقالوا: ان الحكمة في مشروعية الحج هي اجتماع جماعات المسلمين من أجناس مختلفة وآفاق متباعدة في صعيد واحد ليتدارسوا ويتدبروا مصالحهم ويتعاونوا على ما ينفع المسلمين ويعود عليهم بالخير العميم ويجددوا ما اندثر ونسي من تعاليم الاسلام ويحكموا الخطط الرشيدة ويتخذوا الوسائل الحكيمة لتكون كلمة الله هي العليا وطريقة الاسلام هي المثلى .

فالحج مؤتمر اسلامي عالمي جاء به الاسلام تشد اليه الرحال في كل عام..الخ.

وهذا حسن وحسن جداً وواقع .

ويمكن أن نقول في هذا الصدد أن أول مؤتمر من هذا النوع عُقد في الاسلام هو : ما تم عقده في العقبة بمنى وحضره النقباء من المدينة وتمت فيه بيعة العقبة التي مهدت للرسول ﷺ الهجرة من مكة الى المدينة التي كانت تسمى يثرب ، ونهى الرسول ﷺ عن تسميتها بعد الهجرة بذلك الاسم وصارت «مدينة الرسول» والمدينة المنورة برسول الاسلام .

فكون الحج هو مؤتمر اسلامي جد وحسن وواقع ولكن الأمر فوق ذلك ، فان الحج عبادة لله من أخلص العبادات قبل كل شيء ، فلا يصح صرف الأنظار عن كونه عبادة لله تعالى والله سبحانه في تشريعه للعبادات جعل لكل عبادة معالم وشعائر ، وكان منها ما عممه لسائر العبادات فجعل التجمع لعبادة المولى سبحانه جل جلاله له مقام عظيم في شريعة الاسلام .

وهذا التجمع يكون زمانياً ويكون مكانياً ويكون زمانياً ومكانياً معاً ، فجعل سبحانه الصيام عبادة وشرع له التجمع الزماني ، قال في محكم تنزيله : (شَهْرُ رَمَضانَ الذي أُنزِلَ فيهِ القرآنُ هُدىً للناسِ وبَيِّناتٍ مِنَ الهُدَى والفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنكمُ الشهْرَ فلْيَصُمْهُ) .

ففي شهر رمضان يجتمع المسلمون على عبادة الله تعالى في وقت واحد وندب تجمع طائفة منهم في الحرم الشريف وطائفة في الحرم النبوي تجمعاً مكاني لهذه العبادة وأجزل لهـا الثواب العظيم ، وكذلك شرع الزكاة وشرع لهذه العبادة التجمع الزماني الخاص فيؤدون الكثير منها في أوقات متقاربة يوم حصاد الزرع ويوم حلول الحول بحسب البلدان والأقاليم فهي تجمعات بالمعنى الخاص .

وشرع سبحانه العبادة بالصلاة وشرع لها التجمع الزماني فتؤدى في أوقات معينة بحسب الأقاليم والبلدان ، والتجمع المكاني الخاص في مسجد الحي في الصلوات الخمس ، والتجمع العام الاقليمي في صلاة الجمعة بحسب البلدان .

وشرع الحج وشرع له التجمع العام الزماني والمكاني لعبادته سبحانه يوم الحج الأكبر بعرفات يجتمع الحجيج في مكان واحد وعلى صعيد واحد وفي وقت واحد ويفيضون من عرفات في وقت واحد ويرمون الجمار في زمان واحـد ، وهكذا يؤدون مناسكهم في تجمع لا مثيل له يكتنف سائر المناسك ويشمل جميعها في أوقات واحدة وأمكنة واحدة .

وأما عقد المؤتمر بما يعود على الاسلام والمسلمين بالخير والصلاح فهو يدخل في حكمة : ليشهدوا منافع لهم ويشمله عمومها .

والحج عبادة تعبد الله بها عبادة من عهد ابراهيم الخليل عليه السلام ، فقد أسس ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل عليهما السلام الكعبة المشرفة زادها الله تشريفاً وتكريماً وتعظيماً لعبادة الله وحده لا شريك له. ودعا ابراهيم الناس الى حج هذا البيت المبارك الذي انبثقت فيه الأنوار الإلهية بدين التوحيد وعبادة الواحـد الاحد فهرع الناس اليه من كل فج عميق يأخذون عنه قواعد هذه الديانة .

وانتشر دين ابراهيم في جزيرة العرب هذه فكانت قبائلهم تحج البيت وتعظم شعائر الله على نحو ما رسمه ابراهيم من النسك .

ولبثوا على ذلك أحقاباً ثم تطاول عليهم العهد فنسوا معالم دينهم وأثر فيهم اختلاطهم بغيرهم من الأمم فأخذوا عنهم ضروباً من العبادات الوثنية والنحل الغريبة عنهم حتى بلغ بهم الأمر فنصبوا الأصنام التي جلبوها من البلاد الخارجية حول الكعبة وفي جوفها ، ودخل عبـادة الحج التحريف والتبديل إلى ظهور الإسلام .

فشرع الله الحج للمسلمين على قواعده الأولى عبـادة لله الواحد الأحد الفرد الصمد لا شريك له ولا ند ، وحج النبي ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة النبوية وحج معه عشرات الألوف من المسلمين حجة الوداع الكبرى التي نزل فيها يوم

عرفة يوم الحج الأكبر (اليومَ أكملْتُ لكم دينَكُم وأتممْتُ عليكم نِعمتي ورَضِيتُ لكم الإسلامَ ديناً) .

فجدد الرسول عليه الصلاة والسلام شعائر الحج وسننه وآدابه بما أوحى الله إليه وردها على مثل صورتها الاولى مبرأة مما دخلها من الفساد. واقتدى المسلمون بالرسول ، فمن حضر تلك الحجة المباركة وحذقوا ما شاهدوا منه وما سمعوه وعلموا من أقواله وأفعاله وحفظوا الالفاظ التي نطق بها مع الحرص البالغ والوعي الذي لا مثيل له ، ولم يتركوا صغيرة مما يعرض للحاج إلا سألوا عنها ، وهو صلوات الله عليه يبين لهم ويجيبهم عن أسئلتهم ، ويقول لهم خذوا عني مناسككم .

فأحصوا جميع أعمال الحج وما قام به رسول الله ﷺ وما صدر منه من أقوال أو أفعال أحصاء لم يؤثر أن أمة من أمم الارض اهتمت وحفظت ووعت ما صدر عن نبيها مثل ما قام به أصحاب رسول الله في نقل الشريعة وما قام به الخلف عن السلف على مر العصور بأسانيد صحيحة بنقل الثقة الحافظ العدل عن مثله إلى التابعي إلى الصحابى يرفعه إلى الرسول ﷺ .

وقد اشتد حرصهم على السند وصحته وحتى على علو الاسانيد حتى قال فيه عبد الله بن المبارك رضي الله عنه : السند من الدين .

وذلك باعتبار أنة الطريق التي أوصلت لنا شريعة الإسلام ودين الله الخاتم. فالحج ومناسكه وشعائره التي عليها الناس اليوم هي على غرار ما كان عليه سلف الامة وما جاء به الرسول ﷺ من الله وما شرعه من فروض وواجبات وسنن وآداب .

ومن أعظمها ذلكم الموقف العظيم يوم الحج الاكبر بعرفات فهو الموقف الجليل الذي يقع فيه تجديد العهد مع الله الذي كان قطعه الخلائق على أنفسهم يوم يقول تعالى: (ألسْتُ بربِّكم ؟ قالوا : بلى) .

فيقف أمام المسلمين على جبل الرحمة معلناً بكلمة التوحيد التي ينطق بهـا تجديد العهد بالله الواحد الذي لا شريك له، إياه نعبد ولا نشرك في عبادته ونخلص له العبـــادة قانتين خاشعين مستغفرين تائبين آيبين طالبين الرحمة والرضا داعين للمسلمين بالحسنى والفلاح وإصلاح ما فسد ، والهداية الشاملة والرشاد ، وحسن الخـــاتمة .

وأما أن الحج واحد الجهادين المشروعين في الإسلام فإن الله تعالى شرع الجهاد في الإسلام بالمعنى الشرعي الذي أراده سبحانه من المسلمين وهو مصدر جاهد يجاهد جهاداً ، بما فيه من إجهاد البدن والنفس على المقاومة والمقارعة والدفاع في مرضاة الله سبحانه وإعلاء كلمة الحق وشعائر دينه سبحانه. وهو الجهاد الشرعي الذي يراد به أن تكون كلمة الإسلام هي العليا ونشر الإسلام بين الانام وصد من يعترض سبيله ومقـــارعة البغي والفساد والضرب على أيدي البغاة وأهل الفساد دفاعاً عن حوزة الإسلام .

فالدفاع عن بيضة الإسلام جهاد .

والذود عن بلاد الإسلام وبيضة الإسلام جهاد .

وقتال المارقين الخارجين عن أحكام الاسلام جهاد .

وحتى منازلة المبطلين لشعائر الملة جهاد كقتل من أصرّوا على إبطال الأذان فإن إمام المسلمين يقاتلهم على ذلك، وقتالهم جهاد للمحافظة على شعيرة من شعائر الاسلام .

فإن المسلمين مأمورون بتعظيم شعائر الله ، وقـد جعل الله تعظيم شعائره من التقوى المأمور بهـا في الاسلام . قال الله تعالى في محكم تنزيله : (وَمَنْ يُعَظِّمْ شعائرَ اللهِ فإنها من تقوَى القلوب) .

والجهاد إجهاد وأي إجهاد بما يتحمله المجاهد وما يبذله من عزيز عليه ، يبذل ماله ويبذل نفسه طالباً مرضاة الله عز وجل .

وهي التجارة الرابحة لا يعتريها نقص ولا تتطرقها خسارة ولا كساد ، فنعمة الصفقة مع الله ونعم البيع لله ونعم الشراء ونعم الثمن .

والجهاد في الاسلام فريضة محكمة على مر العصور الى أن يأتي أمر الله ، وقد وعد الله على لسان رسوله بقيام طائفة المسلمين المجاهدين في سبيل الله أنهم يكونون ظاهرين على الحق الى أن يأتي أمر الله في آخر أدوار الحياة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم الى أن يأتي أمر الله » .

وأمر الله آت لا ريب فيه ، وذلك هو الحد الفاصل بين المسلمين المؤمنين باليوم الآخر والدهريين الذين كفروا به الملحدين الذين يجحدون يوم الدين ويقولون بقدم العالم وأنه لا يأتيه الفناء ، أرحام تدفع وأرض تبلع والحياة باقية للبشرية الى ما لا نهاية له .

كَبُرَتْ كلمةً تخرج من أفواههم عن غير علم ولا سلطان مبين .

وقد جاء الأمر بالجهاد مشفوعاً بالأمر بالاستعداد له بحسب ما يقتضيه كل عصر من معدّات حتى يكون الجهاد على الوجه الذي يتحقق معه النصر . فالدعوة التي ينادي بها أهل الإيمان الصادق الآن لمنازلة أعداء الاسلام اليهود الذين استولوا على أرض الاسلام والأقصى الشريف هي دعوة الى احكام العدّة لذلك ، أولاً إعداد العدّة التي ترهب عدو الله على نحو ما هو كائن عنده وما يفوقه تأثيراً في ميدان الحرب يقتحم بها المسلمون المجاهدون عدوهم بقلوب مُلئت إيماناً بأن لها الجنة فتسعى لها مجاهدة جادة ليأتيها نصرُ الله وما النصر إلا من عند الله .

وما صرخة الجهاد التي أعلنها الملك فيصل في جموع الحجيج في العام الماضي

والتي كان لهـــا الأثر البالغ في نفوس المسلمين إلا دعوة لرؤساء الدول الاسلامية ليأخذوا العدة لذلك الجهـاد المقدس الذي يفرضه عليهم دينهم نحو مقدسات المسلمين ونحو المسلمين الذين شرّدوا من وطنهم وأُبعدوا عن ديارهم ونحو بلاد الاسلام السليبة ، فجزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيراً .

وفي هذه الأيام أعلن مذياع المملكة العربية السعودية عن الحفـلة التي أقيمت بمناسبة تخريج طائفـــة من قواد الجيش في الطيران الحربي ذاكراً الاستعدادات والإنجازات العظيمة التي تقوم بها الحكومة السعودية بما يتفق وما تتطلبه الحروب العصرية في عصر الصاروخ والإلكترون ، ومـــا تحصّل عليه اولئك القواد من معلومات فنية في هـــذه العلوم ومعارف التقنية يكونون قادرين بهـا على خوض الحروب العصرية بأتم معنى هـــذه الكلمة . وأعلن أنهم تكوّنوا على ذلك دفاعاً عن الدين الاسلامي والوطن السليب وملك البلاد حامي حمى الحرمين الشريفين.

وأعلن السادة قادة الجيوش في خطبهم التي ألقوها في ذلك الاحتفال بحضور الأمير « تركي بن عبد العزيز » نائب وزير الدفـاع والطيران « الأمير سلطان بن عبـــد العزيز » ، أعلنوا أن الجيش السعودي تطوّر تطوّراً عظيماً وأصبح من الجيوش الحربيـة بالمعنى الصحيح بمعدّاته وآلاته الحربية ومصانعه التي تصنع الرجال الضباط وتصنع المعدّات والآلات الحربية المواكبة للتطور الذي حصل عند الأمم الاخرى. فكبرنا لهذا النبأ العظيم الذي كنا نجهله وفي غفلة عنه ، وحمدنا الله تعالى للدولة العربية السعودية وملكها لما وصلت اليه وبلغته في هذا الشأن وهذا الميدان العظيم الذي هو الاساس الذي تبنى عليه الدولة التي تريـــد لنفسها العزة والمنعة .

ومن كان مثلي حضر استعراض الجيش السعودي ثاني أيام عيد الأضحى حجة عام ستة وستين وثلاثمائة وألف ، أمام قصر الملك بمنى وقارن بين ما شاهده وما سمعه الآن في حجة هـــذا العام عن جيش الاسلام في دولة الاسلام يدرك الشوط

العظيم الذي قطعته هـــذه الدولة العربية السعودية وما وفق الله اليه ملكها وحكومته من البذل والاستعدادات والاستحكامات ، وان خير مال ينفق ويصرف في بلاد الاسلام بل أوجبه هو المال الذي يبذل في هذا الميدان .

وان العالم الاسلامي لم يؤخذ من قلة وإنما استضعف من الوجهة الحربية أولاً وآخراً فلا تنفعه المنشآت التكميلية ولا ترفع شأنه زخرفة البلاد بالاجنبية في الميادين ولا تقيم صرحه العمارات الشاخة ما دام متخلفاً عن قافلة الامم الحربيـة فالواجب المفروض على المسلمين شعوباً وحكومات أن يتكاتفوا في إقامة صرح المناعة الحربي ، وما ذلك إلا بانشاء القوة الحربية الضاربة المدافعة الحامية للحمى الذائدة عن الاسلام العزيزة المعززة لتحقيق ما أمر الله به رسوله والمؤمنين بقوله:

(وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة) .

وقد قيل : (اذا أردت السلم فاستعد للحرب) تلك الكلمة الجامعة الـــتي سارت على ضوئها وتسير الدول الرشيدة في سائر العصور في الماضي والحاضر .

ومن أهم ما يتطلبه هذا الاستعداد تكوين أفراد الأمة تكويناً دينياً علمياً وأخلاقياً لتتكون منهم الشعوب الفاضلة الواعية المجتمعة على الخير والصلاح والفضيلة القوية بايمانهـا وتربيتها وأخلاقها المتماسكة في وحدة صماء كالبنيان يشد بعضه بعضاً، رجالها صناديد عباد بالليل أسود بالنهار تجمعهم كلمة الاسلام وتربط بينهم وشائج الاخوة الاسلامية رحماء بينهم أشداء على من عاداهم يسعون الى الخير للانسانية قاطبة وتبليغ كلمة الحق للناس كافة يتجمعون على تقوى من الله في مواطن الخير والعبادة وخاصة يوم حجهم الأكبر تظلهم راية الاسلام راية التوحيد وترتفع أصواتهم بكلمة واحدة لبيك اللهم لبيك .

والحج جهاد وأي جهاد كما وصفه بذلك الرسول ﷺ ، روى عثمان بن سليمان

عن جدته أم أبيه قالت : « جاء رجل الى النبي ﷺ فقال : اني أريد الجهاد في سبيل الله . فقال ﷺ : ألا أدلك على جهاد لا شوكة فيه ؟ فقال : بلى . فقال ﷺ : حج البيت » . أخرجه سعيد بن منصور .

فهذا الحديث دلّ على أمرين أولهما : أن الحج جهاد . وثانيهما : أن الرسول ﷺ رأى من حال الرجل ما يقتضي أن يحول وجهته من جهاد ذي شوكة الى جهاد لا شوكة فيه .

وهذه طريقة للنبي ﷺ من طرق التبليغ والتوجيه مثلها ما جاء في إجابة السائلين عن أفضل الاعمال ، فقد اختلفت أجوبته ﷺ بحسب حال السائل ، فأجاب مرة بالجهاد وأجاب مرة بالحج الى غير ذلك ، فكانت الأجوبة بحسب الحال والمقام .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : « جهاد الكبير والصغير والمرأة الحج والعمرة » أخرجه الحافظ النسائي .

فهذا الحديث تضمن وصف الحج والعمرة بالجهاد وانه جهاد هؤلاء الأصناف الثلاثة الشيخ المسن الكبير والمرأة والصغير .

وأخرج أبو ذر الهروي في كتاب المناسك عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : اذا وُضعت السروج فشدُّوا الرحال للحج والعمرة فإنهما أحد الجهادين . هذا منه رضي الله عنه ، وإن لم يرفعه فهو في حكم المرفوع الى رسول الله ﷺ ، لأن مثل ذلك لا يصدر من الصحابي من تلقاء نفسه لما فيه من شرع ، وهو خاص بالرسول المبلّغ عن الله عز وجل كما أوضحه علماء السنّة في غير ما موضع .

واقتران الحج بالجهاد على لسان الشارع ورد كثيراً بما يدلّ على اعتباره هذا

الاعتبار . فقد أخرج أبو ذر الهروي في مناسكه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : « حجة لمن يحج خير من عشر غزوات، وغزوة لمن حج خير من عشر حجج » . الحديث .

وذلك أن الحج في حق المستطيع فرض عين في حقه ، والغزو فرض كفاية يقوم به غيره ، فقدّم الرسول ﷺ في حديثه الحج في حالة الوجوب والفريضة على فرض الكفاية ، وبالنسبة لمن أدّى الحج فإن الغزو خير له أضعافاً مضاعفة لأن فرض الحج مندوب ويقدّم الفرض على المندوب .

ومقارنة الحج للجهاد لما اشتمل عليه من أمور ومخاطر .

ففيه المخاطرة بالنفس والمال .

وفيه البذل .

وفيه الاغتراب عن الوطن والأهل .

وفيه كسر شهوة النفس والخروج عن المألوف وتحمّل شظف العيش وخشونته .

وفيه تحمّل الأذى .

ومن جهة اخرى فيه مجاهدة النفس كالجهاد على ما بين الجهادين من تفاوت .

وفيه الإقبال على الله بالقلب والجوارح والإعراض عن الدنيا .

وفيه الأوبة الى الله .

وفيه استجابة داعي الله .

وفيه البروز لإعلاء كلمة الله .

الى غير ذلك مما يتفق فيه جهاد الحج والعمرة بجهاد القتال مما كانا فيه على غراره .

وإذا كان الحج والعمرة بهذه المنزلة العظمى فلا جرم أن يكون الحجاج والعمار وفد الله ، وجعل قراهم الجنـــة كالمجاهدين الذين هم وفد الله تعـالى وقراهم الجنة .

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قـــال رسول الله ﷺ : « وفود الله ثلاثة : الغازي والحاج والمعتمر » . أخرجه الحافظ والنسائي ، ومثله عند أبي حبان وزاد في بعض طرق الحديث : دعاهم فأجابوا .

وفي رواية عبـــدالله بن عمر رضي الله عنهما عن ابن الجوزي في مثير الغرام الساكن قال : قال رسول الله ﷺ : « الحجاج والعمار وفد الله إن سألوا أعطوا وإن دعوا أجيبوا وإن أنفقوا أُخلف عليهم ، والذي نفس أبي القاسم بيده مـا أهلّ مهلّ ولا كبّر مكبّر على شرف من الأشراف إلا هلّل مـــا بين يديه وكبّر تكبيره حتى ينقطع التراب » .

وقد بيّن الرسول الأعظم ﷺ مـــا أعدّ الله ووعد به لهذه العبادة ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ في مسجد الخيف ، فجاءه رجلان أحدهمـــا أنصاري والآخر ثقفي ، فسلما عليه ودعوا له وقالا : جئناك يا رسول الله نسألك .

فقال : إن شئتما أخبرتكما عما جئتما عنه تسألان وإن شئتما سكتُّ فتسألان .

فقالا : أخبرنا يا رسول الله نزدَدْ إيماناً — أو قالا يقيناً شك الراوي — .

فقال الأنصاري للثقفي : سَلْ رسول الله .

فقال الثقفي : بل اسأله أنت فإني أعرف لك حقك .

قال : أخبرني يا رسول الله .

قال عليه الصلاة والسلام : جئتما تسألاني عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ومالك فيه ،وعن طوافك بالبيت وما لك فيه ، وعن الركعتين بعد الطواف وما لك فيها، وعن طوافك بين الصفا والمروة وما لك فيه ، وعن موقفك عشية عرفه وما لك فيه ، وعن رميك الجمار وما لك فيه ، وعن نحرك وما لك فيه ، وعن حلاقك رأسك وما لك فيه، وعن طوافك بالبيت بعد ذلك وما لك فيه.

قال: اي والذي بعثك بالحق انه الذي جئت أسألك عنه ،فقال ﷺ: فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفاً ولا ترفعه إلا كتب الله لك بها حسنة ، ومحا عنك بها خطيئة ، ورفع لك بها درجة ، وأما ركعاتك بعد الطواف فعتق رقبة من بني اسماعيل ، وأمـــا طوافك بين الصفا والمروة فعتق سبعين رقبة ، وأما وقوفك عشية عرفة فإن الله عز وجل يهبط إلى السماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة ، فيقول هؤلاء عبادي جاؤني شعثاً غبرا من كل فج عميق يرجون رحمتي ومغفرتي ، فلو كانت ذنوبهم كعدد الرمل أو كعدد القطر أو كزبد البحر لغفرتها ، أفيضوا عبادي مغفوراً لكم ولمن شفعتم لهم ، وأمـــا رميك الجمار فيغفر لك بكل حصاة رميتها كبيرة من الكبائر الموبقات الموجبات، وأما نحرك فمدخر لك عند ربك، وأما حلاقك رأسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة ويمحى عنك بها خطيئة .

فقال : يا رسول الله أرأيت إن كانت الذنوب أقل من ذلك ؟

فقال ﷺ : إذن يدخر لك في حسناتك ، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك – يعني طواف الافاضة – فإنك تطوف ولا ذنب لك ، ويأتي ملك حتى يضع كفه بين كتفيك فيقول لك : اعمل لمـــا قد بقي فقد غفر لك ما مضى . الحديث أخرجه ابن حبان في كتاب «تفصيح الانواع» وابن الجوزي في «مثير الغرام» وسعيد ابن منصور في سننه .

وهكذا جاء البيان وهكذا جاءت البشارة وأعظم بها من منقبة للحج الذي هو أحد الجهادين، وأنعم به من ثواب للحج المبرور الذي جزاؤه الجنة دار الابرار المتقين الفائزين برضا الله ورؤيته والنعيم الدائم المقيم ولمثل هـــذا فليعمل العاملون .

محمد الشاذلي ابن القاضي

●

بسم الله الرحمن الرحيم

منهاج القضاء في الإسلام

فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف

الحمد لله الذي هدانا للحق وشرح صدورنا للإسلام، وجعلنا خير أمة أخرجت للنـــاس باتباع خير الأنام، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه البررة الكرام.

وبعد، ففي مثل هذا الوقت من العام الماضي لبَّينا دعوة (رابطة العـــالم الإسلامي) بهذا البلد الأمين الذي شرفه الله تعالى ببيته المعظم الذي جعله مثابة للناس وأمناً، وببعثة خاتم الرسل والنبيين فيه رحمة للعـــالمين ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً – للتعـــاون على نشر الهَدْي الإسلامي والكشف عن أسرار التشريع الإلهي، والدعوة إلى الحق والنور، وإلى مـــا به مجد الإسلام وصيانة حرماته، وحماية مقدساته والزياد عن أمته وبلاده، قياماً بالواجب وأداء للأمانة – فشكراً للرابطة الموقرة لدعوتها، وما تبذله بإخلاص

وصدق من عظيم الجهود في أداء مهمتها ، وابتهالاً إلى الله تعالى أن يديم توفيقها ويوفقنا والمسلمين عامة إلى ما فيه الخير والصلاح .



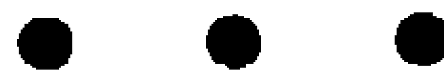
وموضوع حديثنا في هـذه الليلة المباركة (منهج القضاء في الإسلام) وهو موضوع هام مترامي الأطراف ، متشعب المسالك ، لو أردنا أن نتقصّاه أصولاً وفروعاً ، وقواعد وأحكاماً ، ومذاهب وأدلة لاقتضى منـا محاضرات عديدة والوقت غير فسيح .

لذلك سنقتصر على أهم المباحث والأصول ونوجز القول مستعينين بالله فنقول:

١ — الحاجة الى القضاء في المجتمع الانساني

إن من الضروري لحفظ النوع الإنساني وبقـائه إلى الأمد المقدر له تضافـر قواه وتعاونها على توفير كل مـا تقتضيه حياته وبقاؤه بحيث يقوم كل أفراده وجماعاته بمـا تواتيهم القدرة عليه من الأعمال الضرورية فيتوافر من جميع ذلك ما لا بد للإنسان منه وما تتحقق به خلافته في عمـارة الأرض حسبما اقتضته الحكمة الإلهية .

وهذا التعاون الضروري هو قوام المجتمع الإنساني ، أو رُوح العمران ، ومن المأثور في ذلك عن قدماء الفلاسفة قولهم (الإنسان مدني بالطبع) .



وقـد أودع الله في الإنسان قوى جسيمة وحواس ظاهرة كغيره من أنواع جنسه ، وخصه بقوى عقليـة وحواس باطنة فوهبه فكراً وفهماً ، وإدراكاً

وتمييزاً ، وعلوماً ومعارف ، امتاز بهـا عن سائر الأنواع تكريماً له وتشريفاً ، وغرس في نفسه ميولاً ورغبات، ونوازع وشهوات تبدو في أعماله وسائر شؤونه التي تصدر عنه عن قصد وتوجه ، وإرادة وتدبير .

وبحسبها اختلفت أفراده وجماعاتـه في طبائعهم واتجاهاتهم ، وفي مقاصدهم وأعمالهم اختلافاً كثيراً نشأ عنه ضرورة تهارجٌ وتدافع ، وتخاصم وتنازع ، فاقتضت الحكمة الإلهية درءاً لأخطارها وسلامة للمجتمع من أضرارها إقامة (وازع قوي) يقيم العدل بميزانه ويقرُّ الحق في نصابه ، ويحمي الضعيف من سطوة القوي ، وينتصف للمظلوم من الظالم وذلك هو (القضاء بالحق بين المتخاصمين وفصل النزاع بالعدل بين المتنازعين) .

٢ – عناية الاسلام بالقضاء

وقد عني الاسلام فيما عني بـه من المرافق الضرورية للمجتمع بولاية القضاء بين الناس أعظم عناية وأوفاها ، فشرَّع الأحكام العادلة ، وقرّر المبادىء القويمة ، ووضع المناهج الحكيمة ، وأوجب العمل بهـا لصيانة الحقوق في المجتمع وتحقيق العدالة بين أفراده ، قال تعالى : (إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ) وقـال : (وإذا قلتمْ فاعدلوا ولوْ كانَ ذا قُربى) وقال: (إنَّ اللهَ يأمُرُكم أنْ تؤَدُّوا الامانات إلى أهلِها وإذا حكَمْتُم بينَ الناسِ أنْ تحكُموا بالعدلِ إنَّ اللهَ نعمَّا يَعِظُكُم به) وقـال : (ولا يَجرِمَنَّكُم شَنآنُ قومٍ على أنْ لا تَعْدِلوا أعدِلُوا هوَ أقربُ للتَّقوى واتَّقوُا اللهَ) وقال:(وإنْ طائفتان منَ المؤمنينَ اقْتَتَلوا فأصْلِحوا بينَهما فإنْ بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبْغي حتى تفيءَ إلى أمرِ اللهِ فإنْ فاءَتْ فأصْلِحوا بينَهُما بالعدلِ وأقْسِطوا إنْ اللهَ يُحبُّ المقْسِطين) وقـال : (لقد أرسَلْنا رُسُلنا بالبيناتِ وأنزلنا معهُم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقِسْطِ) وقال :

(والسماءَ رفعَهَا ووَضَعَ الميزانَ أن لا تَطغَوْا في الميزانِ وأقيموا الوزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخسِروا الميزان) والميزان هو العدل ، أو الآلة المعروفة التي بها يعرف العدل وضده في التعامل بين الناس .

وقد أشارت هـذه الآيات الكريمة إلى عظم شأن العدل في كل أمر وأنه ضروري لصلاح المجتمع وبقائه وأنه قوام الحق ودعامته .

ولذلك شرعه الحق سبحانه لعباده ، وأوحى بـه إلى أنبيائه عليهم السلام وأمرهم بإقامته والدعوة اليه والحث عليه حتى يقتدى بهم فيه « وبالعدل قامت السموات والأرض » .

والعدل في القضاء إنما يقوم بأمرين – بالتشريع العادل والقاضي العادل وهو مَن جمع الى العلم الراسخ بالأحكام التشريعية الفقه فيه والعدل الخلُقي والتقوى والإخلاص لله في العمل ومراقبته في السر والعلن والنزاهة والعفة والتنبه واليقظة .

فمن اكتمل له ذلك كان أهلاً لولاية القضاء في الاسلام وللخلافة في هـذا المنصب الخطير ، عن سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ولأداء حق الله تعالى وحقوق العباد .

ومن فقد شيئاً من ذلك فقد أهليته للقضاء وإذا وليه كان خطره عظيماً وإثمه كبيراً . ففي السنن من حديث بريدة رضي الله عنه قال قـال رسول الله ﷺ : « القضاة ثلاثة : واحد في الجنة واثنان في النـار ، رجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة ، ورجل قضى بين الناس بالجهل فهو في النـار ، ورجل عرف الحق فجار فهو في النار » .

وفيها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال : « من قعد قاضياً بين المسلمين فقد ذبح بغير سكين » . وفي سنن البيهقي عن أبي هريرة رضي

الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ويل للأمراء ، ويل للعرفاء ، ويل للأمناء ، ليتمنين أقوام يوم القيامة أن نواصيهم كانت متعلقة بالثريا يتجلجلون بين السماء والارض وأنهم لم يلوا عملاً » .

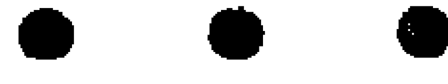
وفي ذلك من شدة الترهيب من تبعة القضاء وخطره والتحذير من الإخلال بحقه ما لا يخفى على بصير .

٣ – أمر الرسول والمؤمنين بالقضاء بالعدل

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالحكم بين الناس بالعدل فكان أولَ قاض في الاسلام وأول حاكم فيه بالعدل والحق، قال تعالى : (وإنْ حكمْتَ فاحكُم بينَهم بالقِسْطِ إنَّ اللهَ يُحبُّ المقْسِطين) . وقال : (ثُمَّ جعلْناكَ على شريعةٍ مِنَ الأمرِ فاتَّبِعْها ولا تتَّبعْ أهواءَ الذينَ لا يعلمون) . وقال : (فاحكُمْ بينَهم بما أنزلَ اللهَ ولا تتَّبع أهواءَهم) .

وأمر المؤمنين بالحكم بالعدل فقال تعالى : (وإذا حكمْتُمْ بين الناسِ أن تحكمُوا بالعَدْلِ) ، وبطاعة الرسول ﷺ اهتداءً ، وسلوك سبيله اقتداءً ، والرضا بأحكامه إذعاناً وتسليماً والعمل بها إفتاءً وقضاءً . فقال تعالى: (أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ) ، وقال : (مَنْ يُطِعِ الرسولَ فقد أطاعَ اللهَ) ، وقال تعالى : (قُلْ إن كنتمْ تُحِبّونَ اللهَ فاتَّبِعوني يُحْبِبْكمُ اللهُ ويَغفِرْ لكم ذنوبَكم) ، وقال تعالى : (إنما كان قولُ المؤمنينَ إذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِه لِيَحْكُمَ بينهم أن يقولوا سَمِعْنا وأَطعْنا وأولئك هم المُفلِحون) ، وقال : (فلا ورَبِّكَ لا يؤمِنون حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شجَرَ بينهم ثم لا يَجِدوا في أنفُسِهم حرَجاً مِمّا قضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تسْليماً) ، وقال : (وما كان لمؤمنٍ

ولا مُؤمِنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُه أمراً أن يكونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ من أمرِهِمْ ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَه فقد ضلَّ ضلالاً مُبِيناً) .



وقد أمر الله الرسول ﷺ والمؤمنين بالحكم بما أنزل الله وهو ما أوحى به اليه كتاباً أو سُنَّة ، وحرَّم الحكم بغير مــا أنزله في ثلاث آيات فقال : (ومَنْ لم يَحْكُمْ بما أنزَلَ اللهُ فأولئك هُمُ الكافرون) (ومَنْ لم يَحْكُمْ بما أنزَلَ اللهُ فأولئك هُمُ الظالمون) (ومَنْ لم يَحْكُمْ بما أنزَلَ اللهُ فأولئكَ هُمُ الفاسقون).

فالذين يحكمون بأهوائهم معرضين عن كتاب ربهم وسنة نبيهم ، مؤثرين مــا يرضيهم ويشبع شهواتهم على ما يرضي الله ورسوله ، ومرتضين خلاف ما شرعه الله ورسوله ، أولئك في ضلال مبين وإثم عظيم .

٤ – المصدر التشريعي للقضاء في الاسلام

والقضاء المشروع في الاسلام إنما يستمد أحكامه من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، فهما القانون الحكيم العــادل والدستور القويم الكامل الواجب الاتباع اعتقاداً وقولاً وعملاً . إذ فيهم الحق والعدل والهدى والنور ، وهمــا الصراط المستقيم . قال تعالى : (ومَــا اختلفْتُم فيه من شيء فحُكْمُهُ إلى الله) ، وقال : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم ، فإنْ تنازعْتُمْ في شيءٍ فرُدُّوه إلى اللهِ والرسولِ إن كنتمْ تؤمنون باللهِ واليومِ الآخِرِ ذلك خيرٌ وأحسَنُ تأويلاً) .

فأوجب على المؤمنين طاعة الله وطاعة رسوله فيما أمر به ونهى عنه ، سواء كان أمر الرسول ونهيه في الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنه ﷺ لا ينطق عن الهوى وقد أوتي الكتاب ومثله معه .

وأوجب الله عليهم طاعة أولي الأمر إذا أمروا بما فيه طاعة الله وطاعة رسوله وإلا فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وأوجب عليهم عند التنازع في أي شيء الرد الى الله ورسوله .

وأجمع المسلمون على أن الرد الى الله هو الرد الى كتابه ، والرد الى الرسول هو الرد اليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد مماته ، وذلك خير في العاجل وأحسن في الآجل .

وسُنّته ﷺ هي أقواله وأفعاله وتقريراته .

ويرجع الى هذين الأصلين التشريعيين — كما نص عليه علماء أصول الفقه — أصلان آخران :

أحدهما : ما أجمعت عليه الأمة من الأحكام لما رواه أحمد في مسنده « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » ، والحديث « لا تجتمع أمتي على ضلالة » ، لأنها أمة عادلة كما قال تعالى : (وكذلك جعلناكم أمةً وسَطاً لتكونوا شُهَداءَ على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكمْ شهيداً) أي جعلناكم أمة عادلة خياراً ، وهي لا تجمع على حكم شرعي إلا استناداً الى مبدأ تشريعي كتاباً أو سنة .

ثانيهما : ما ثبت من الأحكام بطريق الاجتهاد قياساً للنظير على النظير والمثل على المثل المنصوص عليه في الكتاب أو السنة لاشتراكهما في المعنى الذي لأجله شرع الحكم في المقيس عليه فيعدى الحكم من المقيس عليه الى المقيس ، ويسمى الأول أصلاً والثاني فرعاً والمعنى المشترك بينهما علة . وذلك هو القياس الشرعي المعبر عنه بالاجتهاد والاستنباط ، وسيأتي القول فيه .

وقد أقره الرسول ﷺ وامتدحه إذا صدر من أهله حين لا يجد للحادثة حكماً منصوصاً عليه في الكتاب ولا في السنة ، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه

قال : لما بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن قال له : كيف تصنع إن عرض لك قضاء قال : أقضي بما في كتاب الله تعالى ، قال فإن لم يكن في كتاب الله قال : فبسنة رسول الله ﷺ ، قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ، قال : أجتهد رأيي ولا آلو (لا أقصر عن جهد) قال فضرب رسول الله ﷺ بيده صدري ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله .

وهو حديث مشهور رواه عن معاذ جماعة ثقات من أصحابه معروفون بالعلم والدين والفضل والصدق ومن خيار المسلمين ، وممن رواه عنهم شعبة الذي قال فيه بعض أئمة الحديث « إذا رأيت شعبة في إسناد حديث فاشدد يديك به » .

وتقريره ﷺ أمراً سنة من سننه كما قدمنا .

فدل الحديث على أن الحكم الذي يثمره الاجتهاد والقياس حكم شرعي مستند إلى الكتاب والسنة ، وقد درج الصحابة والخلفاء الراشدون على الإجتهاد عند عدم النص وسار على نهجهم التابعون والأئمة بعدهم .

وفي كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى شريح القاضي إذا وجدت شيئاً في كتاب الله فاقض به ولا تلتفت إلى غيره ، وإن أتاك شيء ليس في كتاب الله فاقض بما سنّ رسول الله ﷺ ، فإن أتاك ما ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ فاقض بما أجمع عليه الناس ، وإن أتاك ما ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ ولم يتكلم فيه أحد قبلك فإن شئت أن تجتهد رأيك فتقدّم وإن شئت أن تتأخر فتأخر (رواه الشعبي عن شريح) .

وعن ميمون بن مهران كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا ورد عليه حكم نظر في كتاب الله تعالى فإن وجد فيه ما يقضي به قضى به وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سنن رسول الله ﷺ فإن وجد فيها ما يقضي به قضى به فإن أعياه ذلك سأل الناس هل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء فربما قام

إليه القوم فيقولون قضى فيه بكذا وكذا ، فإن لم يجد سنة سنها الرسول ﷺ جمع رؤوساء الناس فاستشارهم فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه « من عرض عليه قضاء فليقض بما في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله فليقض بما قضى به نبيه ﷺ فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيه فليقض بما قضى به الصالحون فإن جاء أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيه ﷺ ولا قضى به الصالحون فليجتهد رأيه فإن لم يحسن فليقم ولا يستحي .

ولما بعث عمر شريحاً على قضاء الكوفة قال له انظر ما يتبين لك في كتاب الله فما وجدته فلا تسأل عنه أحداً وما لم يتبين لك في كتاب الله فاتبع فيه سنة رسول الله ﷺ وما لم يتبين لك فيه السنة فاجتهد فيه رأيك .

وفي كتاب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري — كما سيأتي — أعرف الأمثال وقس الأمور ، وقاس علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وغيرهما من الصحابة .

وكان ابن عباس إذا سئل عن شيء فإن كان في كتاب الله قال به وإن لم يكن في كتاب الله وكان عن رسول الله ﷺ قال به فإن لم يكن في كتاب الله ولا عن رسوله ﷺ وكان عن أبي بكر وعمر قال به فإن لم يكن في كتاب الله ولا عن رسوله ﷺ ولا عن أبي بكر وعمر اجتهد رأيه .

وقال القاضي شريح نفسه قال لي عمر « اقض بما استبان لك من كتاب الله فإن لم تعلم كل كتاب الله فاقض بما استبان لك من قضاء رسول الله ﷺ فإن لم تعلم كل أقضية رسول الله ﷺ (وكلها من سننه) فاقض بما استبان لك من أقضية أئمة المهتدين فإن لم تعلم كل ما قضت به أئمة المهتدين فاجتهد رأيك واستشر أهل العلم والصلاح » .

وحاصل المنهج القضائي طلب الحكم من الكتاب أولاً وإلا فمن السنة ومنها الأقضية النبوية ثانياً وإلا ففيما أجمع عليه المسلمون ثالثاً وإلا اجتهد القاضي رأيه إن قدر عليه وأحسنه .

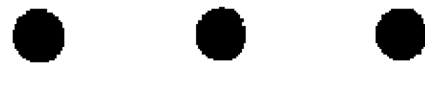
٥ – خطر منصب الاجتهاد في الدين

والاجتهاد المأمور بـه في الدين منصب خطير لا يحمل أعباءه ويقوم بحقه إلا من كان له أهلاً وتوافرت فيه شروط أهمها – كما يؤخذ من أصول الفقه – أن يكون من الراسخين في العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ منطوقاً ومفهوماً ، وإطلاقاً وتقييداً ، وعموماً وخصوصاً ، ومحكماً ومتشابهاً ، وناسخاً ومنسوخاً ، ومكياً ومدنياً ، عليماً بوجوه الدلالات والعلل التي ناط الشارع بها الأحكام وجعلها مؤثرة فيها طرداً وعكساً ، وبالحكم التشريعية ، وبأسباب النزول ، وبالأسانيد والجرح والتعديل للرواة وبأقوال الصحابة وبما استحسنه الفقهاء وبما أجمع عليه الأئمة مع العلم بعلوم اللغة العربية المحتاج اليها في فهم الكتاب والسنة ومع الأمانة في الدين والتثبت في الرواية والاستقامة في الفهم والنظر والاستنباط ، ومع الاخلاص لله في القول والعمل والتجرد عن الزيغ والهوى والإبتداع .

قال الامام محمد بن الحسن صاحب الامام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنهما : من كان عالماً بالكتاب والسنة وبقول أصحاب رسول الله ﷺ وبما استحسن فقهاء الإسلام وسعه أن يجتهد رأيه فيما يبتلي به ويقضي به ويمضيه في صلاته وصيامه وحجه وجميع ما أمر بـه ونهي عنه ، فإذا اجتهد ونظر وقاس على ما أشبه ولم يأل وسعه العمل بذلك وإن أخطأ الذي ينبغي أن يقول اهـ. أي مع توفر ما أشرنا اليه من الشروط المؤهلة للاجتهاد .

ونقل حجة الإسلام الغزالي عن الامام الشافعي رضي الله عنهما في الطريق

الذي يسلكه المجتهد أنــه اذا وقعت له واقعة يعرضها على نصوص الكتاب فإن وجد ظاهراً نظر في المخصصات من خبر أو قياس فإن لم يجد مخصصاً حكم به ، وإن لم يعثر على ظاهر من الكتاب ولا من السنة نظر الى المذاهب ، فان وجدها مجمعاً عليها اتبع الإجماع وإلا انحدر الى القياس اهـ.



ومن اجترأ على الاجتهاد والقياس في دين الله برأيه وهواه وقضى به أو أفتى فخطره عظيم وإثمه كبير ، قال تعالى : (وَمَنْ أضلُّ مِمَّن اتَّبع هواه بغير هُدىً من الله) . وقال تعالى : (ولا تتَّبع الهوى فيضلَّك عن سبيل الله). وقال تعالى : (ولا تتَّبع أهواءَ الذين لا يعلمون) . وقال : (قُلْ إنمـا حرَّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بَطنَ والإثمَ والبغيَ بغيرِ الحقِّ وأنْ تُشركوا بالله ما لم يُنزِّل بــه سُلطاناً وأنْ تقولوا على اللهِ ما لا تعلمون) . فجعل الله تعالى القول في دينه بغير عــلم ولا برهان رابع الكبائر المنكرات والعظائم الموبقات .

وقال تعالى : (ولا تقولوا لما تَصفُ ألسنتُكمُ الكذِبَ هـذا حلال وهذا حرامٌ لِتفْتروا على الله الكذبَ إنَّ الذين يفترونَ على الله الكذبَ لا يُفلحونَ متاعٌ قليلٌ ولهم عذابٌ أليم) . وتقدم ما ورد في القضاء بجهل والقضاء بجور وظلم وأنهما يوبقان صاحبهما في النار .

وفي الحديث «ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة أعظمها فتنة قوم يقيسون الدين برأيهم يحرمون به ما أحل الله ويحلون ما حرَّم الله » وفسره الامام ابن عبد البر بأنه القياس على غير أصل والكلام في الدين بالخرص والظن .

٦ ـ الحكم الاجتهادي حكم شرعي

والحكم المستنبط بالاجتهاد ممن هو أهله كفقهاء الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وأضرابهم حكم شرعي صحيح محمود لاستناده الى الكتاب أو السنة أو الإجماع بدليل تقرير الرسول ﷺ معاذاً رضي الله عنه على اجتهاده ، وتقريره أمراً سنةً من سننه كما سبق لقوله تعالى : (وما آتاكُمُ الرسولُ فخذوهُ وما نهاكمْ عنهُ فانتَهوا) .

وليس من قبيل الحكم بالرأي المحض والرجم بالظن كما قد يتوهم .

وذلك أن الرأي نوعان :

(رأي مذموم) ذمّه الله ورسوله والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون وعدّوه زيغاً وضلالاً ، وهو الرأي المخالف للنصوص المنابذ لها ، والرأي القائم على مجرد الظن والتخمين مع التقصير في معرفة النصوص واستنباط الأحكام منها بالمسلك الذي شرحناه ، والرأي المبني على التحريف والتأويل للنصوص طوعاً للهوى المجرد كما درجت عليه طوائف الابتداع والفرق الضالة كالباطنية الملاحدة والاسماعيلية والبهائية والقاديانية وأضرابهم المارقين، ويجمعها كلها اسم (الباطل والهوى) .

(ورأي محمود) وهو رأي من هم أفقه الأمة وأعمقهم علماً وأتمهم إدراكاً وأصفاهم ذهناً وأصحهم قصداً لمشاهدة التنزيل وفهم مقاصد النبوة وهم الصحابة رضي الله عنهم ، والرأي الذي يفسر النصوص ويبين وجه دلالتها ويوضح محاسنها ويسهل طرق الاستنباط منها عن صدق ويقين وأمانة في الدين وتجرُّد عن الهوى كما كان من الأئمة الذين طلبوا علم الوقائع من القرآن ولما لم يجدوه فيه التمسوه في السنة وفي أقضية رسول الله ﷺ ، ولما لم يجدوه فيها التمسوه في أقضية

الخلفاء الراشدين وأقضية الصحابة ، ولما لم يجدوه فيها التمسوه فيما أجمع عليه من الأحكام، ولما لم يجدوه فيه اجتهدوا الرأي وبذلوا الجهد وقاسوا النظير على النظير والمثل على المثل واستنبطوا الحكم وحكموا به .

وهـــذا الرأي محمود وهو الذي أقرّ الرسول ﷺ عليه معاذاً وسلك سبيله الصحابة والخلفاء الراشدون والأئمة المجتهدون ، وهو الذي له أجران إن أصاب الحق في علم الله ، وأجر واحد إن أخطأه لبذل الوسع فيه ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

٧ – نماذج قضائية مأثورة

وقد تبين مما أسلفناه أن الرسول ﷺ كان أول قاضٍ في الاسلام بأمر الله تعالى ، فحكم بالقسط بين النـــاس وشرع في القضاء مبادىء وأصولاً وأسساً ومناهج لإقامة العدل ، كلها علم ونور لمن ينشد الحق في كل زمان .

وإليكم قبساً منها على سبيل المثال :

١ – أوجب ﷺ على كل قاضٍ أن لا يقضي في الحـــادثة حتى يسمع كلام الخصمين سماع فهمٍ وتدبُّر كي يتبين له الحق فيقضي به، فقال لعلي رضي الله عنه: « إذا تقاضى اليك رجلان فلا تقضِ للأول حتى تسمع كلام الآخر فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء » .

وذلك يوجب أن يُستدعى المدعى عليـــه لمجلس القضاء لسماع كلامه ، فإذا لم يحضر وسع القاضي الحكم عليه بما ادّعاه المدعي ، ولكن للمدعى عليه أن يحضر بعـــد الحكم معارضاً له مثبتاً لما يعارض به الدعوى، فإذا تمّ ذلك نقض القاضي الحكم السابق ومنع المدعي من دعواه وإذا لم يتم سلم الحكم من النقض.

ومن هنا تضمنت القوانين القضائية الحديثة نُظم إعلان الدعاوى والمعارضة في الأحكام الغيابية واستئنافها .

٢ — وأوجب الشارع على القاضي أن لا يقضي حتى يكون حاضر الذهن صافي النفس سليم الصدر هادىء البال ، فقال ﷺ : « لا يقضينّ حاكم بين اثنين وهو غضبان » ، وذلك لأن الغضب ثورة نفسية وانفعال شديد يحول دون التدبر والفهم والتأمل والتبصر في الأقوال والأدلة والقرائن والملابسات ، فيتعذر معه القضاء بالحق .

وقد ضرب ﷺ الغضب في الحديث مثلاً وإلا فمثله في الحكم الهم الفادح ، والحزن البالغ ، والمرض المضني ، والجوع والعطش الشديدان ، وكل ما يشغل القلب ويثير النفس ويعوق عن كمال المعرفة والفهم ، فلا يصح القضاء مع شيء من ذلك لعدم أمن الخطأ بل لغلبة الخطأ في القضاء .

٣ — وأشار ﷺ بقوله : « القضاة ثلاثة ، واحد في الجنة واثنان في النار ، رجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة ، ورجل قضى بين الناس بالجهل فهو في النار ، ورجل عرف الحق فجار فهو في النار » ، إلى ما يجب أن يتوفر فيمن يلي القضاء من الرسوخ في العلم والمعرفة بما يتعلق بقضائه والتثبت منه وتجريد القصد إلى إقـــامة الحق والعدل فيه والحكم به وإنفاذه ، فإذا تحقق بذلك ادّخر عند الله ثواباً كريماً ونعيماً مقيماً في آخرته ، وكان من المحسنين .

أما إذا قصّر في العلم والمعرفة وتهاون في الأمر ولم يتثبت من الحق فقضى بجهالة ، أو غمط الحق وتنكر له فقضى بجور وظلم فقد ارتكب وبالاً واستوجب نكالاً وكان في آخرته من الخاسرين .

فعلى القاضي أن يسلك في قضائه سبيل سعادته ويحذر ما يفضي الى شقاوته والعاقبة للمتقين .

٤ — وشرع ﷺ (البينة على المدعي واليمين على المنكر) وقال للمدعي لما قال له هذا غصبني أرضي : « شاهداك أو يمينه » .

وهـــذا أصل شرعي وأساس جوهري في القضاء لا يتم إلا به ، فإذا أثبت المدعي دعواه بالبينة حكم له القاضي بحقه وألزم به المدعى عليه ، وإذا عجز عن البينة فله يمين الخصم المنكر ، فإذا وجهها القاضي اليه وحلف على بطلان دعوى المدعي حكم ببطلانها ، وإذا نكل عنها قضى للمدعي على المدعى عليه بمقتضى النكول وهو بذل للحق أو إقرار به ، وفي كل حـــال تنتهي الخصومة بالحكم العدل فيها .

ذلك منهج القضاء العادل في كل دعوى ، شرعه الرسول ﷺ إقامة للحق والعدل وطريقاً للفصل في النزاع بين المتخاصمين .

٥ — وحكم ﷺ في حضانة الصغير عنـــد فقد الأم بأن الخالة بمنزلة الأم فتكون أحق بها من غيرها ، حين اختصم اليه علي بن أبي طالب وأخوه جعفر رضي الله عنهما في حضانة بنت عمهما حمزة رضي الله عنه ، فقال علي : هي بنت عمي أخذتها ، وقال جعفر : هي بنت عمي وخالتها تحتي ، فقضى بها ﷺ لجعفر لتكون في حضانة خالتها وهي أحق بها وأولى .

٦ — وحكم ﷺ بأن الأم أحق بحضانة الصغير من الأب المطلق لأنها أقدر على رعايته والقيام بشؤونه في صغره حين اختصمت عنده امرأة ومطلقهـــا في ابنها الصغير ، فقالت المرأة إن ابني هـــذا كان بطني له وعاء وثديي له سقاء وحجري له حواء وان أباه طلقني وأراد أن ينزعة مني ، فقال لها رسول الله ﷺ « أنت أحق به ما لم تتزوجي » .

٧ — وحكم ﷺ بأن (الولد للفراش) ولهـــذه القاعدة في باب النسب آثار عظيمة اجتماعية ومـــالية ، وذلك حين اختصم إليه سعد بن أبي وقاص وعبد بن

زمعة في غلام ، فقال سعد هو ابن أخي عتبة بن أبي وقاص عهد إلي أنه ابنه قبل موته (من أمة) انظر إلى شبهه ، وقال عبد بن زمعـة هو أخي ولد على فراش أبي من وليدته (أمته) فنظر الرسول ﷺ إلى شبهه فرأى شبهاً بيناً بعتبـــة ولكن قال لعبد هو أخوك يا عبد(الولد للفراش وللعاهر الحجر) فألحقه بزمعة.

٨ – وقضى في باب القصاص بأن الحـــامل اذا قتلت أحداً عمداً لا تقتل قصاصاً حتى تضع حملهـا احياء للصغير ورعاية لمصلحته . الى ما لا حصر له من أقضيته ﷺ .

٨ – كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما في القضاء

ومن المهم الآن ونحن نتحدث عن (منهـــاج القضاء في الإسلام) أن نورد كتاب أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما وهو كتاب جليل تلقـــاه الأئمة بالقبول واعتمدوا عليه في القضاء فضلاً عن أنه وثيقة تاريخية عظيمة جامعة لمبادىء عامة ومناهج في القضاء هـــامة في أنضر عهوده وأشرفها مستمدة من مشكاة النبوة .

قال رضي الله عنه :

أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة .

فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاد له .

وآس الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البينة على من ادعى واليمين على من أنكر .

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً .

ومن ادعى حقاً غائباً أو بينه فاضرب له أمداً ينتهي اليه فإن بيّنه أعطيته بحقه ، وان أعجزه ذلك استحللت عليه القضية ـ فإن ذلك أبلغ في العــذر وأجلى للعماء .

ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه الى رشدك أن تراجع فيه الحق فإن الحق قديم لا يبطله شيء ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل .

والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجرباً عليه شهادة زور أو مجلوداً في حدّ أو ظنيناً في ولاء أو قرابة ، فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان .

ثم الفهمَ الفهمَ فيما أدلى اليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة ثم قايس بين الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ثم اعمد فيما ترى الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق .

وإياك والغضبَ والقلَق والضجر والتأذي بالناس والتنكّر عند الخصومة فإن القضاء في مواطن الحق ممـــا يوجب الله به الأجر ويحسن به الذكر ، فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين بمـا ليس فيه شانه الله فإن الله لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً لوجهه ، فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمتـه والسلام عليك ورحمـة الله . اهـ الكتاب .

٩ ـ المبادىء القضائية الهامة في هذا الكتاب الجليل

١ ــ بين عمر رضي الله عنه بقوله : (القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة) .

ان القضاء في الخصومات فريضة من فرائض الله أحكمها وأقـــام معالمها وبيَّن أحكامها وألزم بهـا وحذّر من مخالفتها تحقيقاً لمصالح الخلق وإقامة للعدل والحق وصلاحاً للمجتمع جاء بهـــا رسول الهدى ﷺ وقضى بنفسه وبعث بقضاته الى الأطراف لفصل الخصومات وقطع المنازعات بين الناس وأمر الله تعالى باتباعه فيها كسائر سننه الراشدة وأحكامه التي أوحى بها إليه فكان سنة متبعة .

قال تعالى : (وأنزَلـْنا إليكَ الذِّكـْرَ لِتـُبيِّنَ للناسِ ما نزّلَ إليهم) . وقال : (وما آتاكم الرسولُ فخذوهُ وما نهاكم عنهُ فانتهوا واتقوا الله) . وقال : (أطيعُوا اللهَ وأطيعُوا الرسولَ) . وقـال : (وأطيعُوا الرسولَ لعلكـُم تُرْحَمُونَ) . وقال : (قُلْ إنْ كنتـُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتـَّبِعوني يُحْبِبـْكـُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ ذُنوبَـكم) . فلا مَعدِل للمؤمنين عن هـذه الفريضة المحكمة والسنة النبوية الثابتة ، ولا للقضاة عن الاستناد في الحكم الى الكتاب والسنة وما يرجع اليهما .

هذا إذا أريد من القضاء في هذه العبارة المعنى المصدري وهو الحكم ، وأما إذا أريد به المقضي به وهو المحكوم به ، فالمراد كما قـــال الإمام ابن القيم أن ما يحكم به الحاكم نوعان : (فرض محكم غير منسوخ) كالأحكام الكلية التي أحكمها الله تعالى في كتابه (وأحكام سنها الرسول ﷺ) ، وهذان النوعان هما المذكوران في حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ « العلم ثلاثـة وما سوى ذلك فهو فضل آية محكمة وسنة قائمة وفريضة عادلة » .

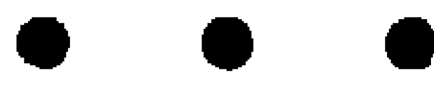
٢ — ثم أشار بقوله : (فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له) إلى أنه حيث كان القضاء فريضة من فرائض الله وسنة من سنن الرسول ﷺ وجب للقيام به حق القيام أن يفهم القاضي أمرين فهماً صحيحاً وينظر فيهما نظراً سديداً (أحدهما) ما يدلي به اليه المتقاضيان من أقوال وأدلة وما يحتف بالدعوى من أمارات وقرائن يستبين بها الحق ويتميز بها الكذب من الصدق . (والثاني)

الحكم الذي يجب أن يحكم بـه في الدعوى فإذا أحاط علماً بالأمرين حكم في الدعوى بحكم الله ورسوله ونفذه وألزم به مَن وجب عليه ، وتلك ثمرة القضاء فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

٣ ــ ثم أشار (رض) بقوله : (وآس الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك) إلى أن الحاكم يجب عليه أن يجمع بين العدل في نفسه والعدل فيمظهره فلا يميز في موقف القضاء أحد الخصمين عن الآخر كأن يؤثر أحدهما بالمكان الأقرب منه أو الأرفع درجة على الآخر أو يبش في وجـه أحدهما ويعبس في وجه الإخر أو يرفق لأحدهما في الخطاب ويغلظ فيه للآخر بل يسوّي بينهما في الموقف في سائر الأحوال مهما اختلف قدرهما في نفسيهما فإن ذلك عنوان العدل، كما أن التفرقة بينهما في موقفهما عنوان الجور ومدعاة سوء الظن ، ومن شأنها أن تطمع من رفعه وميزه في القضاء له ، وتيأس من وضعه من العدل في قضائه .

وهـذا من الأدب الرفيع والنصح البليغ والإرشاد النافع لمن يلي القضاء في مجلس قضائه .

٤ ــ ثم أشار (رض) بقوله : (البينة على المدعي واليمين على من أنكر) الى أصل هام من أصول القضاء قضى بـه الرسول ﷺ وشرعه في القضاء كما بيناه فيما سلف .



والبينة في الشائع بين الفقهاء الشاهدان وتطلق في كلام الله وكلام رسوله والصحابة على كل ما يبين الحق ويظهره فتشمل الشاهدين والقرائن والأمارات والشاهد واليمين وأيمان القسمة وأيمان اللعان ورجحه الإمام ابن القيم بأن الشارع إنما يقصد دائماً ظهور الحق بما يمكن به ظهوره ، وبيانه بكل ما يدل عليه ولا

يقف ظهوره على أمر معين لا فائدة في تخصيصه به مع مساواة غيره له في إظهار الحق أو رجحانه عليه رجحاناً ظاهراً لا يمكن دفعه وإلا ضاعت حقوق كثيرة.

٥ — ثم قال (رض): (والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً) وهو من حديث عمرو بن عوف عن الرسول ﷺ قال : (الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرّم حلالاً أو أحلّ حراماً) أخرجه الترمذي .

وقد جاء به الكتاب قال تعالى : (وإنْ طائفتانِ مِنَ المؤمنينَ اقْتَتَلوا فأصْلِحُوا بَيْنَهُما) . وقال : (وَإنِ امرأةٌ خافتْ مِنْ بعْلِها نُشوزاً أوْ إعراضاً فلا جُناحَ عليْهِما أنْ يُصْلِحا بينَهُما صُلحاً والصُّلْحُ خَيْرٌ) . ومضت به السنة فأصلح الرسول ﷺ في بعض الوقائع بين المتخاصمين ودرج عليه الصحابة ، وقال عمر : « ردوا الخصوم حتى يصطلحوا فإن فصل القضاء يحدث بين القوم الضغائن » . وقال : « ردوا الخصوم لعلهم أن يصطلحوا فإنه آثر للصدق وأقل للخيانة » .

والصلح الذي أمر الله تعالى به ورسوله إنما يجوز في حقوق الآدميين لقبولها الإسقاط والمعارضة عنها إلا أن يتضمن تحريم حلال أو تحليل حرام فإنه لا يجوز ومنه ما يتضمن أكل رباً أو إسقاط واجب أو ظلم ثالث أو نحو ذلك .

ولا يجوز الصلح في حقوق الله تعالى كالحدود والكفارات .

ومثل الرد الى الصلح الجائز في الأثر والفائدة والتحكيم في الخصومة المشار اليه بقوله تعالى : (فابعَثُوا حَكَماً مِنْ أهْلِهِ وَحَكَماً مِن أهْلِها إنْ يُريدا إصْلاحاً يُوَفّقِ اللهُ بينَهُما) .

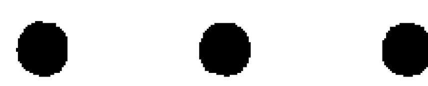
٦ — ثم قال (رض): (ومن ادعى حقاً غائباً أو بينة فاضرب له أمداً ينتهي اليه فإن بينه أعطيته بحقه وإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية فإن ذلك

أبلغ في العذر وأجلى للعماء) . لبيان أن المدعي إذا طلب أمداً لإحضار ما لا بد منه لإثبات دعواه يجيبه القاضي إبلاء للعذر وتمكيناً من إظهار الحق فإن بيّنه بياناً كافياً حكم له بحقه وإن عجز عنه منعه من دعواه لظهور أن لا حق له فيها ، غير أنه لا يجاب إلى طلب الإمهال إذا ظهر أنه متعنت في طلبه أو يقصد به إرهاق خصمه .

وعلى القاضي أن يتفطن ويتبصر في الأمر ويعطي كل حال حكمه .

٧ – ثم قال (رض) : (ولا يمنعنّك قضاء قضيت به اليوم فراجعت فيه رأيك وهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق فإن الحق قديم لا يبطله شيء ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل) . مشيراً الى أن القاضي إذا اجتهد في حادثة وقضى فيها بما أداه اليه اجتهاده ثم عرضت له مرة أخرى لا يمنعه اجتهاده في الأولى من إعادة الاجتهاد في الثانية لأن الاجتهاد قد يتغير ، فإذا هدي لرشده في الثانية وظهر له أنه هو الحق عمل به ولا يمنعه الاجتهاد الاول من العمل بالثاني لأن الحق أولى بالإيثار وهو سابق على الباطل والرجوع اليه محتم وهو خير من التمادي في الباطل .

وقد وقع ذلك لعمر رضي الله عنه في واقعة ميراث حكم فيها باجتهاده ثم عرضت له ثانياً فاجتهد فرأى غير ما رآه فيها أولاً فحكم به لظهور أنه الحق والأولى فقيل له في ذلك فقال: «تلك ما قضينا يومئذ وهذه على ما قضينا اليوم» فأخذ رضي الله عنه في كلا الاجتهادين بما ظهر له أنه الحق ولم يمنعه الاجتهاد الاول من الاجتهاد ثانياً ولم ينقض الحكم الأول . وجرى أئمة المسلمين بعده على هذين الأصلين .



٨ — ثم قــال : (والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجرّباً عليه شهادة زور أو مجلوداً في حدٍّ أو ظنيناً في ولاء أو قرابــة) . مبيناً أصلاً هاماً من أصول التشريع وهو قبول شهادة هذه الأمة بعضها على بعض لعدالتها قال تعالى: (وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على النــاس) أي عدولاً لا خياراً . إلا إذا قــام ببعض الأفراد مانع من قبول شهادته كمن جرب عليه شهادة الزور لفقدان عدالته أو أقيم عليه حد القذف أو حد الزنا لفسقه أو جرّ بشهادته نفعاً لنفسه من المشهود له كالسيد في شهادته لعتيقه أو العكس ، وكالأصل في شهادته لفرعه أو العكس، وكالقريب في شهادته لقريبه على خلاف بين الأئمة في الأخيرين ، والجمهور على عــــدم القبول في أولها وعلى القبول في ثانيها ، وقد أفاض ابن القيم في هذا الباب فراجعه .

٩ — ثم قال (رض) بياناً وتتميماً لما قبله : (فإن الله تبارك وتعالى تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان) . أي أن من ظهرت لنا منه علانية خير قبلنا شهادته أخذاً بالظاهر ووكلنا سريرته الى علاّم الغيوب الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فانه تعالى لم يجعل أحكام الدنيا على السرائر لخفائها بل على الظواهر ، والسرائر تبع لها بخلاف أحكام الآخرة فإنهــا على السرائر والظواهر تبع لها .

وقد ستر الله تعالى على العباد المحرمات التي تقترف في خفية وتستتر إلا إذا قامت عليها الأدلة والشواهد كالحبل في الزنا، ورائحة الخمر في الشرب، ووجود المسروق عنـــد السارق ، وكأيمان الزوج في اللعان ، وأيمان أولياء الدم في القسامة ، فإنه تعالى يظهرها بهــذه البينات ويفضح مقترفيها ، فأصلح سريرتك وعلانيتك في كل أمرك فمن أفسد باطنه وأصلح ظاهره كان بالمنافق أشبه، ومن أصلح باطنه وأفسد ظاهره كان بالماجن أشبه ، وكلاهما ساقط هالك عند الله والناس .

١٠ — ثم قال(رض): (ثم الفهمَ الفهمَ فيما أدلي إليك مما ورد عليك مما ليس

في قرآن ولا سنة ثم قايس بين الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ثم اعمد فيها فيما ترى الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق) إرشاداً الى أصل عظيم من أصول التشريع ومنهاج قويم في استنباط الأحكام من النصوص لا يستغني عنه فقيه إذ عرض له أمر ليس فيه نص ظاهر في الكتاب ولا في السنة ولا إجماع فيه من الأمة وأراد معرفة حكم الله فيه وهو قياس النظير على النظير والمثل على المثل وإلحاق الأول بالثاني في الحكم لاشتراكهما في علته وتحققها فيهما كقياس النبيذ على الخمر لتعدية حكم التحريم اليه لاشتراكهما في علته وهي الإسكار .

وقد قال تعالى : (فاعْتَبِرُوا يا أُولي الأبصار) . والاعتبار من ذوي العقول النيرة والقلوب البصيرة إنما يكون بالنظر والتعقل وإلحاق النظير بنظيره وتسويته في الحكم .

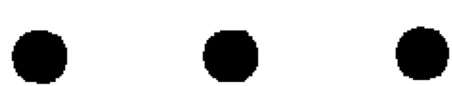
وقد ضرب الله الأمثال للتعقل والتفهم في بضع وأربعين موضعاً من القرآن تضمنت التسوية في الحكم بين المتماثلين والتفرقة بين المختلفين وكلها أقيسة عقلية واضحة وقال تعالى: (وتلكَ الأمثالُ نَضرِبُها للناسِ وما يَعْقِلُها إلا العالِمون).

ومن ذلك قياس النشأة الأخرى على النشأة الأولى في الامكان والقدرة عليها ردّاً لإنكار البعث ، وقياس حياة الأموات بعد البلي والتفرق على حياة الأرض بالنبات بعد مواتها في قوله تعالى : (ومِنْ آياتِهِ أنكَ تَرَى الأرْضَ خاشِعةً فإذا أنزَلنا عليها الماءَ اهتزَّتْ ورَبَتْ إنَّ الذي أحياها لَمُحْيي الموْتى إنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ) . لدلالة العباد بما يشاهدونه من إحياء الأرض بعد مواتها على ما استبعدوه من البعث والنشور ، إلى أمثال كثيرة كلها أصول تشريعية لاستنباط الأحكام .

وهذا باب واسع في العلم سلك سبيله النبيون ونبينا ﷺ والصحابة والخلفاء الراشدون والتابعون والأئمة المجتهدون وأقام الفقهاء معالمه وأسسوا قواعده وبيّنوا أحكامه وميّزوا صحيحه من فاسده بما لا مزيد عليه من البيان .

وهناك أقيسة فاسدة لم يحكها القرآن إلا عن المبطلين تسمى (قياس الشبه) كقياسهم الربا على البيع في جواز التعامل به لمجرد شبهه به في الصورة ، وقد أبطله الله تعالى بقوله : (وأحلَّ له البيع وحرَّم الربا) . فبيّن أنهما غير متماثلين حكماً .

وكقول منكري الرسالات (ما نراكَ إلا بشراً مثلنا) فكما أننا لسنا رسلاً فكذلك أنتم فإذا تساوينا في الشبه فأنتم مثلنا لا مزية لكم علينا وقد أبطل الله هـذا القياس الشبهي بقوله : (أهم يقسِمُونَ رحمةَ ربِّكَ نحنُ قسَمْنا بينَهم معيشتَهم في الحياةِ الدُّنيا ورفعْنا بعضَهم فوق بعضٍ درَجاتٍ ليَتَّخِذَ بَعضُهُم بعضاً سُخرياً) . وقوله : (اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته). وأجاب الرسل بقولهم : (إنْ نحنُ إلا بشرٌ مثلكم ولكنَّ اللهَ يمنُّ على مَنْ يشاءُ مِن عِبادِه) .



وقد درج الشارع في كثير من الآيات والسنن على ذكر علل الأحكام والمعاني المعتبرة في تشريعها ليدل بذلك على تعلق الحكم بها أينما وجدت ويرشد الى وجوب تعدي الحكم الى كل ما وجدت فيه تيسيراً على العباد وتقريباً إلا لمانع يعارض اقتضاءها ويوجب تخلف آثارها عنها وذلك كقوله تعالى في الخمر والميسر : (إنما يريدُ الشيطانُ أنْ يوقِعَ بينَكمُ العَداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميْسِرِ ويصُدَّكم عنْ ذِكرِ اللهِ وعنِ الصَّلاةِ فهلْ أنتم منتهونَ) . ليتعدى حكم التحريم الى كل مسكر وكل ميسر .

وكقوله ﷺ في تحريم ابنة عمه حمزة عليه (إنها بنت أخي رضاعاً) لإفادة تحريم كل بنت أخ رضاعاً ولو كانت بنت عم أو خال .

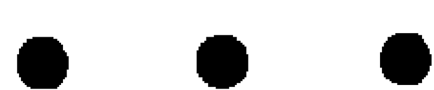
والأمثلة في هـذا الباب كثيرة في الكتاب والسنة ، وعلى البصراء بالعلم

المتفقهين في الدين أن يدركوا معانيها وأحكامها وعِللها والمصالح المقصودة منها ليعدُّوا أحكامها الى نظائرها وأمثالها .

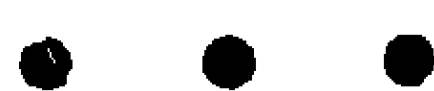
وبذلك لا تخلو الوقائع في كل زمان من الأحكام المنصوصة أو المستنبطة بالإجتهاد من النصوص والنظائر ، ويعلم أن الشريعة المطهرة كاملة تامة صالحة لكل زمان ومكان وكل أمة قال تعالى : (ما فرّطنا في الكتاب من شيءٍ) . وقال تعالى : (ونزّلنا عليكَ الكتابَ تِبياناً لكلّ شيءٍ وهُدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين) . وفي الحديث : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه » .

وكان الصحابة رضي الله عنهم وهم أفهم الأمة لمراد النبي ﷺ في أحكامه وأتبعهم له يجتهدون في الحوادث التي لا نص فيها ويقيسون الأمثال على الأمثال في حياته ﷺ وبعده فيستنبطون الأحكام بمعرفة المعاني المؤثرة فيها ويمثلون الوقائع بنظائرها ويشبهونها بأمثالها ويردون بعضها الى بعض في أحكامها .

وقد فتحوا لمن بعدهم بذلك باب الاجتهاد ونهجوا لهم طريقة حتى قال الإمام المزني : إن الفقهاء من عصر النبوة الى يومنا هذا وهلم جرا استعملوا المقاييس وجميع الأحكام في أمر دينهم وأجمعوا على أن نظير الحق حق ونظير الباطل باطل اه.



ذلك ما أراده أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بقوله في كتابه الجليل (واعرف الأشباه والنظائر) الى آخره . وهو قبَس من نور النبوة اهتدى اليه بنظره السديد وفطرته السليمة وعقله الراجح وشدة حرصه على الاقتداء والاهتداء بالرسول ﷺ في الأقوال والأعمال والتعليم والإرشاد وكل ما فيه خير للاسلام والمسلمين .



١١ ــ ثم قال (رض) : (وإياك والغضبَ والغَلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر عند الخصومة). تحذيراً للقاضي مما يحول بينه وبين العلم والفهم الصحيح وتجريد قصده الى الحق والحكم به في الخصومة وذلك أنه قد يستفزه لجاج الخصوم في مجلسه وتلاحيهم عنده الى الغضب وهو الثورة النفسية الجامحة التي تغتال العقول ، أو الى الغلَق وهو انسداد باب التصور والفهم ، أو الى الضجر والتبرم ، أو الى التأذي بالناس والتنكر عند الخصومة فيبدو منه ما لا يليق أن ينسب اليه فيعوقه ذلك عن الفهم والعلم والنظر الصحيح في الأقوال والأدلة وبالتالي عن الحكم الصحيح في الخصومة .

فوجّه (رض) الى ما هو واجب عليه من ضبطه لنفسه وإمساكه بزمامها وعدم التأثر بموجب هذه الانفعالات والعوارض المعوّقة عن إقامة الحق في القضاء وهو سرّ ما في حديث « لا يقضي القاضي وهو غضبان » ومثل الغضب سائر ما ذكر من الآفات .

فاذا سلم القاضي منها استقام له الأمر وتمكن من إقامة الحق والعدل في الخصومة .

١٢ ــ وقوله (رض): (فإن القضاء في مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ويحسن به الذخر) ، إيماءٌ الى أن القاضي اذا اتقى هذه المنهيات وأقام الحق وألزم به من هو عليه وصبر على ذلك وجاهد نفسه قام بحق العبودية لله في هذا الباب واستوجب على الله الأجر المكافىء والثواب المدخر لمن أحسن عملاً .

١٢ ــ ثم قال (رض) : (فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس) . إشارة الى أن رأس التقوى والإحسان خلوص النية والقصد في إقامة الحق لله تعالى وبالله سبحانه فاذا تحقق ذلك من العبد كان الله معه مؤيداً وله معيناً ونصيراً وجعل له من كل ضيق فرجاً ومن كل همٍّ مخرجاً

قـال تعالى : (إن اللهَ مَعَ الذينَ اتّقوا والذينَ هُمْ مُحْسِنونَ) . ومن كان الله معه فلا غالب له .

أما من قام في باطل ، أو قام في حق ولكن لغير وجه الله بل لطلب محمدة أو جزاء من الخلق ، أو قـام في حق لله ولكن بحوله وقوته لا مستعيناً بالله فيه ولا متوكلاً عليه فهو مذموم مخذول غير معان من الله تعالى ، وعلى القاضي أن يخلص نيته في قضائه بالحق لله تعالى مستعيناً بالله فيه متوكلاً عليه، بريأ من حول نفسه وقوته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

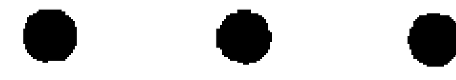
١٣ — ثم قال (رض) : (ومن تزين بما ليس فيه شانه الله) . إشارة الى أن من جانب الإخلاص لله تعالى والعمل لوجهه سبحانه ولو في إقامة حق وتزين للنـــاس بما ليس فيه رياء أو طلباً لمحمدة أو مثوبة من الناس كمن يتظاهر كذباً بالصلاح أو الخشوع أو العلم أو التنسك ونحو ذلك فهو مراءٍ كذاب وسيشينه الله ويفضحه ويكشف خبيثه بين الناس ولو بعد حين وهو ضرب من النفاق ، وكان بعض الصحابة يقول : أعوذ بالله من خشوع النفاق. قالوا : وما خشوع النفاق؟ قال : أن يُرى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع .

وهـــذه الحكمة وما قبلها مقتبستان من هدى النبوة وهما من أنفع الكلام وأشفاه للسقام كما ذكره ابن القيم رحمه الله وفيهما عظة للحاكم أي عظة والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

١٤ — ثم قال(رض) : (فإن الله لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً لوجهه). بياناً لأن العمل ولو كان صحيحاً لا يقبله الله تعالى ويثيب عليه إلا اذا كان مصحوباً بالإخلاص لله تعالى متمحضاً لوجهه الكريم ، فعلى القاضي أن يضع

ذلك نصب عينيه ، بل على كل مكلف أن يقصد بعمله وجـــه الله تعالى ليدخر عنده ثوابه .

١٥ – ثم قال (رض): (فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته). بياناً لعظم جزاء الإخلاص وأنه رزق عاجل في الدنيا ورحمة مدخرة في خزائن الله يوم القيامة كما يشير اليه قوله تعالى : (وآتيناهُ أجرهُ في الدُّنيا وإنهُ في الآخِرةِ لَمِنَ الصالحين) . وقوله تعالى : (لِلذينَ أحسنُوا في هذه الدُّنيا حَسَنَةٌ ولدارُ الآخِرَةِ خيرٌ ولَنِعْمَ دارُ المتقين) .



هذا شرح موجز لما تضمنه كتاب سيدنا عمر لأبي موسى الاشعري رضي الله عنهما بقدر ما وسعه الوقت وإلا فهو بحر زاجر لا يدرك ساحله وقد اهتدى بهديه أئمة الفقهاء وسار على نهجه أعلام القضاء واسترشدوا به في تقرير مبادىء قويمة وأنظمة حكيمة جروا عليها منذ قرون في البلاد الاسلامية فجزاه الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء .

١٠ – مبادىء قضائية عامة

١ – القضاء يتخصص بالزمان والمكان والحادثة فيكون القاضي ممنوعاً من القضاء في غير ما خصص بـه من قِبل وليّ الأمر باعتباره نائباً عنه في القضاء مقيداً بما يقيده به .

٢ – القاضي لا يقضي بعلمه فيما يعرض عليه من الأقضية وإنمـــا يقضي بما تقتضيه الأدلة .

٣ – العرف والعادة محكَّمان فيما يختلف باختلافها من الامور، فعلى القاضي أن يفهم عُرف أهل الجهة التي يلي القضاء فيها ويحكّمه في موضع النزاع حين يكون للعرف مدخل فيه. وقد قرر الفقهاء أن الأيمان مبنية على العرف فيحكمون فيها بحسبه .

٤ – اذا ظهر للقاضي أن الدعوى المطروحة أمامه إنما يقصد بها الكيد لثالث غير ممثَّل فيها يجب أن يرفضها ويقرر عدم سماعها لظهور أن الخصومة بين طرفيها الحاضرين صورية لا حقيقية .

٥ – لا يجوز للقاضي أن ينظر قضية من لا تقبل شهادته له كأبيه أو ابنه أو خادمه بل ولا لقريبه ، وإن كانت شهادته له جائزة دفعاً للريبة وترفعاً عما يمس القضاء .

وعليه في هذه الحالات أن يرد نفسه عن نظر القضية رسمياً لتولى نظرها قاض آخر يجوز قضاؤه فيها .

٦ – يجوز للقاضي طلب تزكية الشهود إذا رأى مزيد حاجة الى التوثق من أمرهم .

٧ – يمكّن القاضي المشهود عليه من الطعن في الشهادة والشهود فقد يكون لديه ما يبطلها أو يجرحهم تبياناً للحق وتحقيقاً للعدالة .

٨ – وكما يكون الإثبات بالبينة يكون بالمعاينة لموضع النزاع إما بنفسه وإما بواسطة خبير أو خبراء موثوق بهم وذلك أقرب لتحقيق العدالة في بعض القضايا .

٩ — إذا حكم على المدعى عليه غيابياً بعد إعلانه بالحضور يجوز له المعارضة في الحكم أمام القاضي وإبداء ما يراه فيه وعندئذ تسير القضية بحضور طرفيها ويقضى فيها بالوجه الشرعي .

١٠ — يجوز للمحكوم عليه حضورياً أو غيابياً استئناف الحكم الصادر عليه أمام محكمة أعلى وعندئذ تسير محكمة الاستئناف في القضية بحضور الطرفين وتقضى في الاستئناف بما يقتضيه المنهج الشرعي .

١١ — يجوز التوكيل في القضايا من طرفي الخصومة بتوكيل شفهي أو كتابي .

١٢ — جرى العمل في الديار المصرية من قديم على تقيد القاضي بالقضاء بالأرجح من مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه والأرجح مبين في كتب المذهب وبذلك لا يكون أمام القاضي إلا هذا القول الأرجح يقضي به ولا يسوغ له العدول عنه ولو فرض أنه تجاوزه ينقض حكمه من المحكمة الأعلى لتجاوزه حد ولايته . وفي هذا التقييد مصلحة كبرى . إذ لو ترك للقاضي أن يحكم بما يراه من الأقوال المختلفة في المذهب أو في الفقه عامة لحكم في قضية بقول وفي أخرى بقول آخر وهكذا ، وفي ذلك استثارة ظن السوء به واضطراب في العمل وفتح باب خطير لا تخفى مضرته .

وحبذا لو اتبع هذا التقييد في سائر الدول الإسلامية فينص في قوانينها القضائية على القضاء بالأرجح من أقوال المذهب الذي تخضع لأحكامه .

وفي كتب المذاهب الأربعة بيان واف به يعرف الأرجح بالرجوع اليها — هذا — ونقتصر الآن على هذا القدر من البيان في (منهج القضاء في الإسلام)

ولاستقصاء البحث فيه مجـــال آخر والله أعلم وهو الموفق والهادي الى الصراط المستقيم .

مكة المكرمة في ٢٨ ذي القعدة سنة ١٣٩٠ هـ.

٢٦ يناير سنة ١٩٧١ م.

كتبه

حسنين محمد مخلوف

مفتي الديار المصرية السابق

وعضو جماعة كبار العلماء



بسم الله الرحمن الرحيم

المساجد
وأثرها في الدعوة ونشر الثقافة الاسلامية

فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

أيها الاخوة : لكي ندرك أثر المساجد في الدعوة ونشر الثقافة الاسلامية يجب أن نسلم بما يلي :

١ – منزلة المساجد في الاسلام .

٢ – الصفات التي يتحلى بها رواد المساجد كما يريدها الاسلام .

٣ – نماذج من خريجي المساجد .

المساجد في الاسلام لها شرفها العظيم ولها ميزاتها الواضحة ولها أحكامها الخاصة التي تنفرد بها عن غيرها فهي ليست كأي مكان آخر .

من ذلك مثلاً : أن الداخل اليها يصلي ركعتين تحية لهذا المكان، بل لقد قال بعضهم حتى في أوقات النهي لا تسقط تحية المسجد .

ومنها الأمر بالمحافظة عليها وتنظيفها — وإن كان الاسلام قد أمر بالنظافة عامة — ولكن ورد في كثير من النصوص ما يخص المساجد بذلك كما هو معروف.

يقول الرسول ﷺ فيما يرويه عنه أنس رضي الله عنه : عرضت علي أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد . رواه أبو داود والترمذي وصححه ابن خزيمة .

كما يفيد الحديث بمفهومه أن من الأوزار إدخال القذاة في المسجد ، كما ورد النهي عن البصاق بها وتسمية ذلك خطيئة والأمر بدفنها وإن ذلك كفارة لتلك الخطيئة .

ومنها أيضاً النهي عن البيع والشراء وإنشار الضوال ولعن من اتخذها مقابر والنهي عن زخرفتها بالنقوش والأصباغ الجميلة لأن ذلك ليس من أهدافها مما هو جائز في غيرها .

ويكفيها ، أيها الاخوة ، ميزة واعتباراً أنها تسمى (بيوت الله) إذ ذاك . يشعر أنها لا تختص بأحد فهي لله وفي سبيل الله معدة لعبادة الله ونشر العلم.تقام بها الصلوات الخمس التي من مزاياها اجتماع المسلمين ومعرفة بعضهم حالة بعض ، ليفقده إذا مرض فيزوره ويسعى في جلب النفع والدواء له ، ما يفقده إذا غاب فينوب عنه بالقيام بشؤون أهله وإعانتهم على ما يحتاجونه ، ويجانب ذلك : فالاسلام لا يمنع أن يكون المسجد قاعة للمحاضرات في الموضوعات التي تمس العصر الحاضر وتهذب النفس وتصفي الروح وتحل المشكلات العارضة ، كما يكون المسجد مشرفاً على الحالة الاجتماعية للمجتمع وما يصاب من بؤس وفقر وانغماس في الشهوات ونحو ذلك .

أيها الاخوة : يمكن أن ينظر الى المسجد وكأنه مصح للحي الذي يقام فيه يعالج الأمراض الروحية والاجتماعية، تلك الامراض الخطيرة التي اذا استحكمت في شخص أردته قتيلاً ميتاً، انها ميتة ليس بعدها حياة، ميتة الحياة الروحية والعقلية (أم تحسبُ أن أكثرهم يسمعون أو يَعْقلون إنْهم إلا كالأنعام بلْ هُمْ أضلُّ) تلك هي الميتة التي لا حياة بعدها بمعنى أن بطن الارض خير له من ظاهرها لا يفيد ولا يستفيد .

لماذا لا يكون المسجد علاجاً لتلك الأمراض ؟ لماذا لا يكون رابطة تآلف وتعارف بين أهل الحي ينشر الوعي الصحي الروحي يستخدم الأدوية لمنع انتشار الأوبئة المعدية الفتاكة بعمل الحجر الصحي على اولئك المرضى اجتماعياً وروحياً ويتولى علاجهم ؟

لماذا لا يكون إمام المسجد بمثابة مدير المستشفى يتفقد المرضى ويعنى بشؤونهم كما يتفقد حالة المرضين والأطباء ومدى قيامهم بالواجب وإفادتهم لهؤلاء المرضى؟

تلك، أيها الاخوة، هي بعض من أعمال المسجد التي يمكن أن يقوم بها . وبعدها يشعر أهل الحي أن المسجد ضرورة لهم من ضروريات الحياة . وبمعنى آخر، يجب أن تتعلق قلوب السكان بمسجدهم ويغارون عليه ويعملون على رفعته والنهوض به من حيث النظافة والنظام والإمامة والخطابة يرون أنه لهم وأنهم له وأن منارته ينبعث منها الاصلاح في جميع نواحيه والمعالجة بكافة أصنافها وطرقها .

أيها الاخوة : لا تظنوا أني قد أتيت بجديد فهذا ليس غريباً . فلقد شعر آباؤنا وأسلافنا الصالحون بكل ذلك وأدركوا ضرورة المسجد لهم، وطبّقوا ما أراده الاسلام للمسجد من رفعة وعزة. والدليل على ما أقول واضح، فها هي آثارهم في ذلك نشاهدها اليوم باقية تستحثنا للاحتذاء بهم والسير على منهجهم القويم . فالأوقاف والحبوسات والأربطة للمساجد وطلاب المساجد مساعدة

منهم لهـــا لتؤدي خدمتها على أتم وجه . فالإمام والمؤذن والإضاءة والفرش والتنظيف كلها يرصد لهـا من هذه الأوقاف وتقوم بعملها على خير وجه وأتمه وتؤتي أكلها الطيب النافع .

أمـا اليوم — وكما ترون — فقد تركوها وهجروها وضيّعوا أوقافها وظنوا أنها لا تُبنى إلا للضعفاء والمرضى والزمناء والشيوخ والعميان والمحالين الى التقاعد ومَن لا حاجة لهم بالدنيا وطائفة أخرى هم الرجعيون .

أما الشباب والمثقفون ومَن أنعم الله عليهم برغد من العيش فلا يفكرون في المسجد ولا تحدثهم أنفسهم بزيارته كأن الملاهي والمقـــاهي والمساجد اقتسمت الناس فخُصّ المسجد بالشيوخ والعجائز والفقراء وخُصّت الملاهي بالفتيان والأغنياء .

وهي أيهـا الاخوة : حـــال لا تشعر بأمل ولا تبشر بخير (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أضاعوا الصلاةَ واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فسَوْفَ يَلْقَوْنَ غيّاً ، إلا مَنْ تابَ ...) .

أنسينا أن آباءنا الأولين وسلَفنا الصالحين مـــا كانوا يبايعون الأئمة إلا في المساجد ، ولا يخرجون الجيوش الفاتحين إلا منها ، ولا يطلبون العـــلم إلا بين جدرانها ؟؟؟ إذا حزَبهم أمر اجتمعوا في المسجد يتشاورون فيـه . فلو رجع لبيوت الله ما كانت عليه من إقامة الشعائر واجتماع المسلمين فيها ، لتعلقت بهـا قلوب كثير من الذين أعرضوا عنها واستخفوا بشأنها ، فتعلـُّق القلب بالمسجد يعني الإقرار بأهميته والإيمـــان بفائدته وجدواه والعمل على أدائه لمهمته بأكمل وجه والاستفادة منه ، ولهذا ورد في الحديث من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (... ورجل قلبه معلـَّق في المساجد) .

وكما قلنـا ، فتعلـُّق القلب بالمساجد يكون بإقامة الصلاة فيها والاعتكاف

والتعلم والتعليم . وذكر الله الله بقوله سبحانه : (إنما يَعْمُرُ مساجدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وأقامَ الصَّلاةَ وآتى الزكاةَ ولمْ يَخْشَ إلا اللهَ) .

ونستطيع من هذه الآية أن نعرف الصفات والمزايا التي تحلّى بها رواد المساجد والتي قلوبهم متعلقة بها.. فهم يعمرون المساجد بذكر الله وطاعته والعلم والتعليم .. وما ذلك إلا لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يؤمنون بالله الذي يجازي كلا بما عمل ، ويؤمنون بيوم الجزاء حيث يجازى المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته ، فعُمّار المساجد يؤدُّون واجبهم على أتم وجه ، ويشعرون بالمسؤولية ويقومون بها لأنهم يؤمنون بيوم الجزاء والحساب .

ثم جاء في سياق الآية (ولم يخْشَ إلا اللهَ) إنها تُشعر بما يقوم به من يعتاد المسجد وما يتحمله وما يجلبه المسجد والتعلم فيه من أداء الواجب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح المجتمع لا يداهن ولا يرائي (لم يخْشَ إلا اللهَ) . إذن لا غرابة أن يرد في السنة المطهرة : (إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان) .

ويأتي أيضاً في موضع آخر من القرآن الكريم وصف لرواد المساجد في سورة النور : (في بيوتٍ أذِنَ اللهُ أن تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسمُهُ يُسَبِّحُ لهُ فيها بالغُدُوِّ والآصالِ رجالٌ لا تُلْهيهمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ يَخافونَ يوْماً تتَقلَّبُ فيهِ القُلوبُ والأبصارُ . لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أحسَنَ ما عَمِلوا ويَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ واللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بغَيْرِ حِسَاب) .

المعتادون للمساجد لا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا شيء من مِتَع الدنيا عن القيام بنهجهم الإصلاحي ، بل لقد قدم سبحانه – كما نلاحظ – تلك الصفة على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

كما يفيد قوله سبحانه (لا تُلْهِيهِم تجارةٌ ولا بَيْعٌ) .. إنهم يتعاطون البيع والتجارة فلا يعيشون عالة على الغير ، يتعاطونها بقدر لا يلهيهم عن ذكر الله وتسبحه بالغدو والأوصال فهو يتكسب ويعف نفسه ومن ثم يقبل على أداء عمله ، يأكلون ليعيشوا فيؤدوا مهمتهم ولم يعيشوا ليأكلوا .

وما هذا العمل المستمر وما ذلك الشعور بالمسؤولية إلا لأنهم (يخافونَ يوماً تتقلب فيه القلوبُ والأبصار). وقد أوضحت الآية هنا ما أعد الله لهم من حسن الثواب لقيامهم بعملهم (ليجزيَهُمُ اللهُ أحسنَ مـــا عملوا ويَزيدَهم من فضلهِ والله يرزقُ منْ يشاء بِغَير حساب) .. ولا يفوتنا أن ننبه هنـــا إلى التناسب بين قوله سبحانه (لا تلهيهم تجارة ولا بيع) .. وقوله (ويزيدَهُمْ من فضله) ذلك أن عمار المساجد وطلابها ترفعوا عن الدنيا وشهواتها .. وزخرفها وأكتفوا بقدر ما يقيم أودهم ليقوموا بواجبهم الذي غرسه فيهم المسجد من إصلاح وتوجيه وأمر بمعروف ونهي عن منكر واعلاء لكلمة الله وعلم وتعليم فأتاهم الله أحسن ما عملوا .

أيها الأخوة : تلك هي الصفات التي يتحلى بهـا خريجوا المساجد وطلابه : شعور بالمسؤولية وقيام بالواجب خير قيام إيمان راسخ لا يتزعزع ، اعتقاد بيوم الحساب اليوم الذي يسئل فيه كل عما قدم .

إذن فلا بد أن ينتجوا أحسن إنتـــاج ، ولا بد أن يظهر من تحت أيديهم تلاميذ كأساتذتهم أو يفوقون صفات حميدة وأخلاق عالية وعلم نافع .. وتلكم هي الصفات التي بذرها محمد ﷺ في أصحابه وتولى سقيها ورعايتها حتى أثمرت وأتت أكلها ، كل ذلك كان في المسجد .. لقد أخرج محمد ﷺ من الظلمات إلى النور جيلاً مسلماً يتحلى بعالي الصفات ومكارم الأخلاق تبدلت أخلاقهم البدوية إلى الأخلاق الإسلامية الرفيعة من جور الجاهلية إلى عدل الإسلام ، من الفوضى والاضطراب إلى النظام والمساواة . المسجد كان هو المدرسة وهو مكان التشاور

كما هو مقـــام العبادة .. لقد استطاع تلامذة المسجد الذين علمهم محمد ﷺ أن ينشروا الإسلام ويقنعوا الأمم بحقيقتة وصلاحيته ، كما حملوا معهم مشعل العـلم والنور . علموهم العلم والأخلاق ، كما علموهم التضلع بالمهمات وصعاب الأمور . كلنا يعرف أبا بكر وعثمان وعلي وخـــالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبا هريرة وغيرهم كثير و كثير نعرف الكثير عن صفاتهم وأخلاقهم وحـــالتهم حين تولى الأمور وقبل توليهـا لم تغيرهم المناصب بل أنهم لم يطالبوا بها ، فها هو أبو بكر رضي الله عنه .. يقول حين ولي الخلافة وهو على المنبر : (أيهـــا الناس لقد وليّت عليكم ولست بخيركم..اليوي فيكم عند صعيف حتى أخذ الحق منه والضعيف فيكم قوي حتى أخذ الحق له) .

وعمر بن الخطاب يقول على المنبر أمام الجموع الغفيرة من الناس : (أصابت العجوز وأخطأ عمر) .. حين أراد تحديد المهور .. وهكذا يستمر المسجد في تخريج الدفعات من الطلاب المؤمنين المخلصين الذين قصدوا العلم لذات العلم وللدار الآخرة ، لم يريدوا منصباً ولا جاهاً ولا مـــالاً بل كانوا يتهربون من ذلك كله . انهم يضربون على رفضم تولي المناصب .. هذا عطاء بن أبي رباح يقول فيـــه ابن جريج : (كان المسجد فراش عطاء عشرين عامـــاً كان لا يفتر عن ذكر الله . وقـــال فيه ربيعة فاق عطاء أهل مكة بالفتوى وهل تعلمون أنه كان أسود أفطس أعور أشل أعرج ثم عمي بعد ذلك .

ومع ذلك فقد جاء إليه خليفة المسلمين / سليمان بن عبد الملك / هو وأبنـــاه فجلسوا إليه وهو يصلي فلما صلى انتقل إليهم فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد كفاه إليهم ثم قال سليمان لأبنيه : قوما . ثم قال يا بني لا تنيافي طلب العلم فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود .

أمثال هؤلاء تلامذة المساجد مراكز إشعاع نور علم كان يقصدهم الخاصة

والعامة كما أنهم يفدون على الخاصة والعامة لأداء رسالتهم كما علمتهم المساجد . فهذا عطاء – مرة اخرى – يدخل على هشام بن عبد الملك ويسأله هشام هل من حاجة ؟.. فيقول : نعم . يا أمير المؤمنين ، اتق الله في نفسك فإنك خلقت وحدك وتحشر وحدك وتحاسب وحدك ولا والله ما معك ممن ترى أحـــداً ، هكذا كانوا رحمهم الله ورضي عنهم . وخذوا أيضاً تلامذة عطاء انهم عمرو ابن دينار الزهري وقتادة ومالك بن دينار والأعمش والاوزاعي وخلق كثير .. وحسبك بهؤلاء التلاميذ ديناً وورعاً وعلماً . أقول : وهكذا يستمر المسجد يؤدي رسالته وينتج على النحو الذي أراده له محمـــد ﷺ . فقد روى به ماجد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : (من دخل مسجدنا هـــذا ليعلم خيراً أو ليعلم كان كالمجاهد في سبيل الله) .

ومرة اخرى كان ﷺ جالساً في المسجد والنـــاس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان الى رسول الله ﷺ وذهب واحد. قال : فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهمـــا فرأى فرجه في الحلقة فجلس فيها . وأما الآخر فجلس خلفهم . وأما الثالث فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة أما أحدهم فأوى الى الله تعالى فأواه الله . وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه . وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه) . رواه البخاري في صحيحه .

وما على هذا الحديث من مزيد ولا تعليق فهو واضح الدلالة والمفهوم ففضل ملازمة خلق العلم واستحباب جلوس العـــالم في المسجد والتأدب في مجالس العلم كلها – كما قال ابن حجر – مما يفيدها هذا الحديث .

وحث" الرسول ﷺ على طلب العلم وتخصيصه في المسجد واضح معروف يكفي ، أيها الاخوة ، أن أذكركم بهـــذا الحديث : (ما جلس قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده) .

ولفتة بسيطة نحاول أن نقارن فيها بين العلم في المدارس والعلم في المساجد ، طلاب العلم في مدارسنا الحاضرة لهم أغراض وأهداف بسيطة وقريبة لا تعدوا الدنيا إلا ما شاء الله ، ولهذا نجـد أنهم لا يستفيدون من دراساتهم خلال السنين الطويلة المحسوبة من عمرهم ، بل ان الطالب من حين حصوله على تلك الورقـة المسماة (الشهادة) وإذا بالمعلومات قـد تلاشت واضمحلت ، ذلك لأنه يعتقد أن العلم هو وسيلة وظيفية دنيوية لا غير . ولهذا ورد في الحديث : (لا تقوم الساعة حتى يرفع العلم ويفشو الجهـل ويشرب الخمر ويظهر الزنا) . فمع كثرة المدارس وانتشارها في كل بقعة نرى كيف الجهل في الناس ، لقد رُفع العلم الحقيقي النافع وبقي القشور التي لا تسمن ولا تغني من جوع (أفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا) فالله المستعان .

كما أنه ورد في الحديث أن من أشراط الساعة (فشو القلم) فانظر في المسلم الى دقة اللفظ النبوي فهو قصد الفشو والانتشار على القلم والكتابة ولم يقل المعلم فنحن نرى كيف انتشار الكتابة والكتباء والمؤلفات ولكنها قليلة الفائدة بخلاف كتب الأولين فانها مباركة كثيرة الفائدة والنفع وبعض من كتب المتأخرين ممن خلصت نيتهم ولم يقصدوا من ذلك الرفعة والشهرة .

نسأل الله أن يرزقنا العلم النافع والنية الصالحة .

وأمـــا طالب العلم في المسجد فيظهر عليه الوقار والأدب والتمسك بالدين والأخلاق الفاضلة أكثر من غيره ، وتشعر منه أيضاً إخلاص النية لله تعالى ، كما أنه لا يريد بعلمه إلا ذات العلم والدار الآخرة . إننـا نلمس ذلك حتى في وقتنا الحاضر ، فهـا هم طلاب الحرمين الشريفين ومشائخهما نحسّ منهم بكل ذلك ، فلا مكافآت تُصرَف لهم ولا رواتب ترتب لهم ، إنهم يسهرون الليـالي الطويلة للعلم في سبيل العلم ، لا يفكرون في غرض دنيوي . لهذا وذاك نجـد أن المسجد ينتج إنتاجاً جيداً ويخرج طلاباً شعارهم الإيمان بالله واليوم الآخر ، ومراقبة الله في السر والعلانية في جميع ما يقومون من أعمال وما يؤدّونه من واجبات .

ومما يفترق فيه تعليم المدارس عن المساجد أنه في المدارس محصورين في هذه البناية الخاصة لا يدخلها إلا طلاب معينون فلا يوجد مستمعون . وأنا لا أثور على النظام فالنظام جيـــد ولكن حرمنا الكثير من المستمعين ، إذ أنه في المسجد يكون مفتوحاً على مصراعيه ، فيدخل حتى غير طالب العلم وينصت قليـــلاً الى الشيخ وهو يلقي الدرس ، وقد يسأل ويستفسر ، وقـــد يرغب أيضاً فيواصل حضوره وينتفع وينفع ، وإن لم يكن كذلك ففي إنصاته الأول يكون استفاد فائدة قد يتغير معها سلوكه تغييراً تاماً ويكتشف أنه على خطأ. وهكذا كان الأعراب في عهد رسول الله ﷺ ، يدخل أحدهم المسجد لا يعرف شيئاً ومن ثم يخرج الى قومه داعياً الى الاسلام قائلاً بملء فيه : «جئتكم من عند خير الناس».

وقد أدرك هذه الحقيقة عمر بن عبـد العزيز رحمه الله ، فكتب الى أبي بكر ابن حزم : انظر مــــا كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه : « فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا يقبل إلا حديث النبي ﷺ ، وليفشوا العلم ويجلسوا حتى يعلم من لا يعـلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً » . ذكره البخاري في صحيحه في باب (كيف يقبض العلم) .

وهنـــاك نقطة أخرى تفترق فيها المدرسة عن المسجد – بل لعلها من نتائج التعليم المدرسي – وهي نقطة جديرة بالأهمية . وهي تلك الفجوة الخطيرة التي نلمسها بين طلاب المدارس وحتى الجامعات ، وبين العامة عموماً وعلماء الاسلام على الخصوص . وما ذلك إلا لما يدرّس بين جدران المدارس من المواد والأفكار التي يُنقل الينا بعضها والتي لا ينبغي أن تكون ولا ترضاها الحكومة أيضاً ، ولكن ما دام العلم محصوراً بين الجدران لا يعرفه إلا الطلاب ، وقد لا يدركونه إلا بعـد الكبر ، كما لا يعرف عنه المجتمع شيئاً وكذلك الدولة وإلا لاستنكروه ومنعوه . وما دام الأمر كذلك فلا غرابة أن تحدث تلك الفجوة ، لا سيما وأن كثيراً من المعلمين ليسوا ذوي كفاءة تامة .

والفروق كثيرة يدركها الكثير منا مما جعل النتائج بين خرّيجي المدارس وخرّيجي المساجد متباينة للغاية ، فالأول ينظر الى مقاصد دنيوية ومراتب وظائفية يتولاها ، وذاك ينظر الى نفع العامة والدار الآخرة ، والأمر واضح .

أقول : لا شك أن هناك حالات استثنائية بالطبع ، ولكني أتكلم عن الطابع العام والغالب ... نسأل الله أن يوفقنا لما فيه خَيْرَي الدنيا والآخرة ، وأن يبدل حالتنا هذه بأحسن منها ، إنه على كل شيء قدير .

وقبل أن أنتهي من هذا العرض السريع أحب أن أنوّه عن ذكر بعض هذه المراكز التي كانت منطلقاً للعلم والنور والجيوش الاسلامية الزاحفة .

من أمثلة هذه المساجد – أيها الاخوة – المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى والمسجد الأموي والمسجد الأزهر ومساجد بغداد ومساجد الأندلس وبخارى والهند وغيرها .

وهكذا تخرّج من هذه المساجد أساطين العلم الأفاضل الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، وما هم عليه من الصلاح والتقوى ، وما قاموا به من جهود عظيمة احتسبوا أجرها عند الله في الدعوة الاسلامية ونشر الثقافة الاسلامية . هذه مؤلفاتهم في مختلف الفنون في التفسير والحديث والفقه والتاريخ وعلوم الآلة وغيرها ، كلها تشهد لهم بما قدموا من علوم وتضحيات .

وما اتصفوا به من الصبر على الدعوة والثبات على الحق مهما كانت الظروف يصبرون على الأذى ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم قتيل لابليس تداحيوه وكم من ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم.. نعم ما أقبح أثر الناس عليهم وخاصة في وقتنا الحاضر ، فكتبهم ومؤلفاتهم التي سهروا عليها الليالي الطويلة تسمى بالكتب الصفراء وأساطير الأولين ومتبع طريقهم يسمى رجعياً متخلفاً من مخلفات القرون الأولى .

وأخيراً أيها الأخوة أرجو أننا بعد هـــذا ندرك العنوان ونطبقه (المساجد وأثرها في الدعوة ونشر الثقافة الإسلامية) .

فلعلنا نخرج من هـــذه القاعة المباركة ومن هذا الاجتماع الميمون مردين أنفسنا ومطبقين في أعمالنا .. (إلى المساجد من جديد) .. إلى مراكز العـلم والنور والحق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبد الله بن محمد بن حميد

الرئيس العام للاشراف الديني بالمسجد الحرام



بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعات الفقه الإسلامي
أو معاجم القوانين الفقهية

فضيلة السيد محمد المنتصر الكتاني

تقنين الفقه بجميع مذاهبه منذ عصر الصحابة الى عصر تجميد الاجتهاد، أي القرون الخمسة الاولى قرون الخير والنور وإمامة العلوم وسيادة المسلمين للعالم، تقنين الفقه صناعة عربية اسلامية، عنا أخذها الأجانب، وكان الأندلسيون هم رواد المسلمين والعالم فيها.

فأبو محمد ابن حزم الاندلسي إمام فقه الحديث، وقد عاش ما بين عام (٣٨٤) وعام (٤٥٦) هـ. هو الرائد الاول لتقنين الفقه، قد وضع كتاباً يعتبر اول موسوعة فقهية جامعة وأول معجم شامل لجميع مذاهب الفقه وهو: كتـــاب الخصال الجامعة لجمل شرائع الاسلام في الواجب والحلال والحرام وسائر الأحكام على ما أوجبه القرآن والسنة والاجماع. قال عنه مؤلفه ابن حزم في المحلى: قــد جمعنا

فيه كل ما روي من نصوص القرآن والسنة والاجماع ، منذ أربعمائة عـام ونيف وأربعين عاماً من شرق الارض الى غربها .

وقـــال عنه تلميذه الحافظ الحميدي في جذوة المقتبس : أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمـة المسلمين في مسائل الفقه والحجة لكل طائفة وعليها ، والأحاديث الواردة في ذلك من الصحيح والسقيم بالأسانيد وبيان ذلك كله وتحقيق القول فيه .

وذكر معاصر ابن حزم الحكيم صاعد الاندلسي في كتابه أخبار الحكماء أنه رأى كتاب الإيصال في أربعة وعشرين مجلداً بخط مؤلفه ابن حزم قال : وكان خطه في غاية الإدماج . يريد بالادماج الخط الدقيق المرصوص ، الذي لو كتب بخط أوسع لأخذ مسافة أكبر ولبلغ مجلدات أكثر .

وقال الحافظ الذهبي في سِيَر النبلاء : كتـاب الايصال في خمسة وعشرين ألف ورقة .

ويعتبر هذا الكتاب ضائعاً بين ما ضاع من كنوز وتراث الفردوس المفقود : الاندلس .

ولكن اذا ضاع الايصال فقد بقيت لنا صورة مصغرة عنه وهو مختصره لابن حزم المؤلف نفسه وأعني به : كتابه المحلى وقد طبـع ثلاث مرات .

فالمحلى مختصر الايصال في أحد عشر مجلداً ، مات ابن حزم وهو يؤلفه ، وقد وصل فيه الى ثنايا المجلد العاشر فأتمـــه ولده الشهيد الفضل أبو رافع أمير ولاية مالقة الاندلسية ، أتم العاشر وكتب المجلد الحادي عشر والاخير منه ، اختصره من الاصل الجامع كتاب أبيه : الايصال .

وبمعرفتنا للمحلى عرفنا الايصال فالمحلى دون مواد قانونية باسم مسائل يبلغ

عددها (٢٣٠٨) مسألة منها ما هو في عشر صفحات وفي عشرين، وفي ثلاثين، وفي أكثر من ثلاثين، وهو مواد مستقلة أشبه برسائل محررة مستقلة في بابها، وصفحاته (٤٣٨٨) صفحة.

والايصال في خمس وعشرين الف ورقة كما قال الحافظ الذهبي أي خمسون الف صفحة، ومعنى هذا ان المحلى اختصر فيه الإيصال الى أقل من عشرة، ومعنى هذا أيضاً أي مسائل الايصال تبلغ (٢٣٠٨٠) مسألة، واذا كان المحلى وهو المختصر للإيصال قد طبع في أحد عشر مجلداً فمعنى ذلك أن الايصال إذ عثر عليه وطبع، يخرج في أكثر من مائة مجلد بعدة مجلدات.

والرائد الثاني لتقنين الفقه الشهيد أبو القاسم ابن جزي الاندلسي الامام المالكي، وقد عاش بين عام ٦٩٣ وعام ٧٤١ هـ. فقد وضع كتاباً — طبع أكثر من مرة — في فقه أئمة المذاهب الاربعة : ابن حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وسماه : القوانين الفقهية.

والعودة الى تقنين الفقه مسألة مسألة كما دوّن في العصر الخامس، ومادة مادة كما دوّن في القرن الثامن، هي عودة ضرورية ملحة، توجبها العقيدة والتزام الثبات عليها ويوجبها العلم والتزام الدعوة اليه.

توجبها العقيدة والتزام الثبات عليها : نحن اليوم نعيش في غزو فكري، الغزاة فيه وحوش ضارية، هم أشد ضراوة من الغزاة العسكريين، فهؤلاء استهدفوا الارض قروناً أو قرناً وبعض قرن وفي النهاية طردوا منها أشلاء صاغرين وقامت على تلك الارض دول اسلامية تشهد بشهادة التوحيد وتستقبل كعبة المسلمين، أما غزاة الفكر فقد استهدفوا المسلم نفسه لا أرضه فقط، فغزوا مخه وقلبه وعشعشوا فيها وعنكبوا، باض فيها وفرّخ سرطان تمكن من عقيدة الاسلام وفقه المسلمين، فحولها الى عقيدة الكفر وفقه الشياطين.

حررت أرض المسلمين من الغزو العسكري ، وقامت جيوش وحكومات اسلامية مكان ذلك الغزو ، ولكنها بألسنة عربية وقلوب أعجمية كما أنذر نبينا صلوات الله وسلامه عليه .

فقد تكهن شيطان من شياطين الغزو العسكري، وقد فشل في غزوه وهلك شريداً طريداً : بأن فتوحاته ستعود وتدوم ما انتشر قانونه ودام فقهه ، وأعني به نابليون ، فقد تكهن قائلاً : ستمتد فتوحاتي حيث يصل قانوني .

ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتّبعوه إلا فريقاً من المؤمنين . وهـــذا الفريق على قلته بين المسلمين ، قـــد أخذ إبليس بقانونه النابليوني ينتقص من أطراف فقهه ، في مؤسسات وشركات وأنظمة .

أمـا العالم الاسلامي في أكثره فقانون نابليون بكفره وظلمه وكثرة فسوقه قد غزاه وحكمه حكومات وشعوباً ولا يزال يغزوهم ، فلا تزال كليات الحقوق في جامعاتهم تجمع لإبليس طلاباً وتخرج له أساتذة ودكاترة ، يحلون قوانينه محل فقه الاسلام ، فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون .

وكثير من هؤلاء لو يقرب لهم الفقه بما اعتادوه من تقنين ومسائل ، لعادوا اليه عود الغريب لأهله والشارد الى قومه .

والطريق لهذا التقريب هو تدوين موسوعة للفقه جامعة لكل قضاياه، شاملة لكل مذاهبه ، وتكون هذه الموسوعة معجماً - بمعنى أنها تدوّن مواد ومسائل مرتبة على حروف المعجم : ا ب ت ... ففقهنا المدوّن أبواباً وفصولاً مع كثرة الاستطراد فيه وذكر الكثير من القضايا في غير مظانها ، حين يعاد تصنيفه على حروف المعجم : ا ب ت ... وتستقصى في هذا المعجم جميع المذاهب في العصور الفاضلة نكون قـــد يسّرنا الفقه على المختص ، وقربناه لغير المختص ، وأبرزنا كنوزه ومعادنه الثمينة لجميع الناس في العـالم ، مسلمين وغير مسلمين ، ونكون

بذلك دعـاة الى الاسلام الدين الحق ، ومعلمين للعلماء حقائق الحلال والحرام ، وقضاة عادلين محاربين للظلم والظلـمة وناشرين للحق والعدالة بين البشر في جميع ما شجر بينهم .

وبظهور معاجم الفقه الاسلامي ، ندفع عنه مـا قذفه به كفرة المستشرقين وجهلة المسلمين من أنه فقه بدائي ، وإنما انتشر واتسع في بغداد بقانون حمورابي والفرس والرومان باسم القياس .

وبظهور معاجم الفقه الاسلامي ومـا اشتملت عليه من مجلدات في فقه الصحابة والتابعين قبل أن تكون بغداد وقبل أن يولد أئمتها نثبت للناس أن فقه الاسلام هو فقه الاسلام وكفى بهـذا الوصف كشفاً وسمة فهو مستنبط من القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ، وما زاد عليها فهو فروع عنهـا ، ومستخرج منها خروج الجنين من بطن أمه .

المعـاجم :

دونت أكثر العلوم الاسلامية على حروف المعجم ، فهرس القرآن الكريم ، وأنفع فهارسه وأدقهـا المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي ودونت السنة وأشهر مدوناتها المعجمة وأنفعها جامع الاصول لابن الاثير ، وفي اللغة أجمعها لسان العرب لابن منظور ، وفي تراجم الرجال كتب الحافظ : الإصابة في الصحابة وتهذيب التهذيب في رجال كتب الحديث الستة .

معـاجم الفقه :

وأول من فكر في إخراج معجم موسوعة للفقه كلية الشريعة بجامعة دمشق منذ ستة عشر عاماً ، أسست لذلك لجنة بمرسوم جمهوري وبعد قيامهـا بسنتين حضرت من المغرب وضممت لها بمرسوم فكان التخطيط لتدوين الموسوعة أن

يستكتب لها فقهاء من مختلف أقطار العالم الاسلامي ، فعارضت هـــذه الخطة لثلاث علل :

العلة الأولى : إن مـا سيكتب لو كتب سيكون غير متناسق ولا منسجم وسيكون ابن جماعة هجينا .

العلة الثانية : من كيان الموسوعة الاساس أن لا يكون للفقيه الكاتب فيما يكتبه رأي خاص لا بتقديم ولا بترجيح . لا برفض ولا بقبول وإنما هو مصور للفقه كما هو عند أئمته دون تدخل بينهم وإلا كان من يفعل ذلك مدوناً فقهـــاً لنفسه ومذهباً له والموسوعة لم تجعل لفقه نفسه ولا لمذهبه .

العلة الثالثة : فقهـــاء الموسوعه وكتابها لبعدهم عن بعض وعدم اجتماعهم سيبقى فهم تدوينها وتحريرها بينهم ضائعاً ممـــا سيكون سبباً لعدم استجابتهم للكتابة وهذا الذي حدث .

قال لي زملاؤنا من أعضاء اللجنة : وما الخطة التي تراها أنت قلت : توضع لكل قضية عامة من قضايا الفقه كلمة أصلية تشمل كلمات فرعية وتحرص على أن ينتقي لذلك كلمات ذات دلالة مـــاسة بالقضية ودالة عليها بالتحديد مع المحافظة على النص الفقهي مـــا أمكن ، إلا ان كان غامضاً فيوضح أو متشعباً فيلخص ولا تترك مفردة فقهية يكون لها معنى خاص ومصطلح عليه إلا وتفرد بكلمة أصلية أو فرعية .

وكمثال لذلك أتيتهم بأوراق رسمت فيها هــذه الخطة فوافقوا عليها مجمعين بكتابة قرار لا أزال أحتفظ به ، فاخترت كتاب المحلى لابن حزم لعدة أسباب منها : إن فقهه فقه لجميع المذاهب ، فهو سيكون من أجل ذلك صورة مصغرة عن الموسوعة المكبرة وسميته : معجم فقه ابن حزم الظاهري .

وهكذا بعد ستة أشهر أتممته في مجلدين ضخمين ، وطبع بعد ذلك بسنوات بمطبعة جامعة دمشق عام ١٣٨٥ باسم لجنة موسوعة الفقه الاسلامي .

وقد قال عنه الاخ المحترم العلامة مصطفى الزرقاء رئيس اللجنة إذ ذاك في مقدمة للتعريف بالمعجم : فقام الاستاذ المنتصر بالعبء خير قيام . ثم لما بدأ الاستاذ المنتصر العمل جدّت له فكرة جديدة هي أن يقوم بتسجيل خلاصة الحكم الفقهي الذي يستقر عليه ابن حزم في كل موضوع.. وبذلك.. يصبح أشبه بموسوعة فقهية مصغرة .. وقد استحسنت اللجنة هذه الفكرة لما تنطوي عليه من نفع كبير .. ولكن عظم الفائدة المرجوة من هذا العمل الجليل غطى على اللجنة ما فيه من مشقة ، فقررت أن يتابع الاستاذ الكتاني العمل على هذا الاساس ففعل مشكوراً .وأمدته اللجنة بالاعوان في مراحل عديدة من العمل.. وظاهر للناظر أن هذا عمل مبتكر في حقل الفقه الاسلامي لم يسبق أن وجد له نموذج . فقد تبين عند الانتهاء منه أنه أصبح يمثل شبه موسوعة للفقه الاسلامي فهو يقدم للباحثين من أهل القانون والفقه الاحكام الفقهية التي يبحثون عنها .

وبعد وحدة دمشق والقاهرة انضم إلى لجنة دمشق أعضاء مصريون بانتقائنا، هم من كبار علماء مصر ، وضعنا جزء نموذجياً طلب الينا إنجازه بإلحاح ليظهر في مناسبة خطابية رسمية دورية ، فكتبناه على الخطة الأولى التي لم أؤمن بها وهي الاستكتاب ، فكان جزءاً نموذجياً حقاً في العلل الثلاث التى ذكرتها عن الخطة الاستكتابية :الهجنة في عدم انسجام مواده والتفاوت بين الفقهاء الكتاب في كل ما كتبوه وقلة من شارك فيه وكلهم من اللجنة الجديدة السورية والمصرية وليس من غيرهم سوى الفقير المحاضر فقد شارك بكتابة مادة : المعادن . وعن نفسي أتحدث قبل أن يتحدث عني غيري ، ذهبت فيها إلى أن المعادن لا تملك ولو شئت أن أعيد عنها الكتابة الآن وأقول : أن المعادن تملك لما أعوزتني النصوص ، وهكذا فعل كل من شارك في هذا الجزء النموذجي لهذه المعاني بحق

من جميع زملائنا وإن كنا لم نقصد ذلك ولكن الخطة المكتوب بها هـذا الجزء تفرض ذلك بطبيعتها .

وقد طبع هذا الجزء في القاهرة سنة ١٣٨١ هـ باسم : موسوعة جمـال عبد الناصر في الفقه الاسلامي .

وخلال هـذه السنوات تابعت موسوعة مصر الرسمية عملها فأصدرت ستة أجزاء أخرى بنفس العنوان ولكن زادت علة رابعة في فساد تلك الخطة، صدرت هذه الأجزاء الستة ولم يذكر فيها اسم لأحد من كتابها الفقهاء .. ومتى قبل العلم رواية مجهول ؟ لا يدري من هو ؟ وما تقواه ؟ وما علمه ؟ الحديث النبوي على قدسيته إذا أداه لنا مجهول رفضناه ، وأغفلنا قدسيته ، فكيف بفهم فقيه واستنباط نكرة لا تعرف له حقيقة ؟ أنعتمد في العقائد والحلال والحرام واستباحة الدماء والفروج والأموال على مجاهيل ؟ فلا بد من معرفة العالم لنزنه بموازين العلماء، ديناً وثقة وضبطاً، ما لم يكن ذلك كذلك، فستكون كل موسوعة كتبها مجهول أو مجاهيل موسوعة مهدورة وجهود أصحابها ضائعة .

وعلى خطة الموسوعة المصرية الرسمية الفقهية صدرت موسوعة شعبية مصرية أيضاً بإشراف صديقنا عالم مصر الشيخ محمد أبو زهرة رأيت منها مجلداً .

وعلى خطة الموسوعتين المصريتين صدرت نشرتان في الأشربة والأطعمة لموسوعة فقهية في الكويت تحت إشراف صديقنا المحترم الشيخ مصطفى الزرقاء.

معاجم الفقه العامة :

وطريقتنا نحن في تدوين الموسوعة الفقهية قد أصبحت واضحة مجسمة بصدور معجم فقه ابن حزم والنسج على منواله في إخراجها .

معاجم مفردة لفقه الأئمة الاربعة :

أولاً : معجم فقه أبي حنيفة ومعجم فقه مالك ومعجم فقه الشافعي ومعجم فقه أحمد .

ثم معـــاجم لفقه الأئمة الذين لم تدوّن مذاهبهم : كعمر بن عبـد العزيز والاوزاعي والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك وداود بن علي ومحمـد بن جرير وأبي ثور وأمثالهم ، لكل واحد منهم معجم مستقل بمذهبه .

معاجم لفقه التابعين وتابعيهم :

الحسن البصري : وقـد جمع فقهه في سبعة أسفار ضخام ، الحافظ بن مفرج الاندلسي : وقـد عاش بين سنتي ٣١٥ — ٣٨٠ ، والسعيدان : ابن المسيب وابن جبير ، والسفيانان : ابن عيينة والثوري ، والحمادان : ابن سلمة وابن زيد ، وابن شهاب الزهري : وقد جمع فقهه الحافظ بن مفرج الاندلسي أيضاً في ثلاثة أسفار ضخام ، وعمر بن عبد العزيز وأمثالهم ، لفقه كل واحد منهم معجم .

معاجم لفقه آل البيت :

علي بن أبي طالب وعبدالله بن العباس ، وقد جمع فقهه سليله أحد أئمة الاسلام في العلم والحديث : أبو بكر محمـد بن موسى بن يعقوب بن أمير المؤمنين المأمون العباسي ، جمعه في عشرين كتاباً ، وقد عاش بين سنتي ٢٦٨ — ٢٤٢ ، والحسن ابن علي وسليله عبـد الله الكامل . والحسين بن علي وذريته : زين العابدين وزيد ابن علي والبـاقر والصادق . والعباس بن عبد المطلب وسليلاه : سليمان بن داود والعباس بن عبد الله ، لفقه كل واحد منهم معجم .

معاجم فقه الصحابة :

عمر بن الخطاب وابنه عبد الله ، وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت ، وذكر ابن حزم في الاحكام وفي جوامع السيرة سبعة من الصحابة ، هؤلاء ، وعلياً وابن عباس وعائشة ، وقال : يمكن أن يجمع من فقه كل واحد منهم سفر ضخم . ثم فقه أبي بكر وعثمان وباقي عشرين من الصحابة قال عنهم ابن حزم : يمكن أن يجمع من فتيا كل واحد منهم جزء صغير جداً ثم جزء لباقي فقهاء الصحابة ، وذكر أسماء جميع فقهائهم في جوامع السيرة فبلغوا (١٦٢) فقيه ، وقد قال ابن حزم : وقد روي عن فقهاء الصحابة أزيد من عشرين الف قضية .

معاجم فقه أئمة النساء صحابيات وتابعيات :

معجم فقه عائشة أم المؤمنين ، ثم معجم لفقه فاطمة بنت رسول الله ، وفقه أمهات المؤمنين ، ثم معجم لفقه عمرة بنت عبد الرحمن وباقي التابعيات .

وقد أشرفت في جامعة دمشق على إخراج فقه السبعة المكثرين من الصحابة ، لسبعة من خريجي كلية الشريعة بها ، فكان نصيب فقه عائشة لطالبة هي اليوم تعتبر داعية الاسلام في الشام وعالمة نسائها هي الآنسة منيرة القبيسي ، وباقي السبعة المتخرجين هم اليوم بين زملاء أساتذة جامعيين وبين دكاترة في علوم الشريعة وقضاة في المحاكم .

وهذه المعاجم تفيد بمفردها في المناطق التي تتمذهب بفقه أحد أئمتها الاربعة وكزيد بن علي وجعفر الصادق ، تفيدهم للعلم والدراسة وتفيدهم لاختيار الدساتير الاسلامية منها ، والقوانين الموحدة الملزمة حكماً وقضاء وفتوى .

وبعد الانتهاء من تدوين جميع هذه المعاجم لفقه الصحابة والتابعين والأئمة الذين لم يدوّن فقههم والأئمة الذين دوّن فقههم وفقه آل البيت وفقه أئمة النساء ، تأتي المرحلة الثانية وهي :

دمج جميع هذه المذاهب في كتاب واحد على نفس الطريقة المعجمية : أ ب ت باسم معاجم الفقه الاسلامي .

معجم الحديث :

والمرحلة الثالثة هي جمع جميع أحاديث الأحكام مرتبة على حروف المعجم كذلك وتكون هذه الأحاديث ذات عناوين مفردة لكل حديث كلمة أصلية ، تحتها كلمات فرعية ذات دلالة فقهية خاصة ، ولتكون هذه الأحاديث مع آيات الأحكام الدليل المرجوع اليه عند تضارب المذاهب وتغاير الأحكام في القضية الواحدة لاختيار حكم واحد من بينها ، يسنده الدليل ويعززه ، على أن يخرج كل حديث منها ويذكر بجانبه من صححه أو ضعفه ومن زكى جميع رجاله أو جرح أحدهم .

وكنت أشرفت في لجنة موسوعة الفقه الدمشقية على جمع جميع أحاديث البيوع ، فخرجت في ثلاثة أجزاء ، وأعجلتنا الفتن العقائدية عن مراجعتها وإعطاء عناوين أصلية لوحداتها وفرعية لكل حديث منها ، فأخرجتنا عن الشام حيث تقيم بين المملكة العربية السعودية وبين الكويت ، بعد أن مات ثلاثة من خيرة زملائنا في اللجنة ، وهم الدكاترة : مصطفى السباعي ويوسف العشي وأحمد السمان ، رحمهم الله وغفر لهم .

وقد وضعنا في المعجم الظاهري كلمات ليس لها في كتب الفقه أبواب أو فصول مستقلة وإن يكن لها أحكام مبعثرة في ثناياها ومستطردة ، ومنها كمثال : إجهاض وتشريح وفضول المال .

وطريقتنا هذه في المعاجم الموسوعة أثنى عليها بكتاب مستقل ودعا لها ونوّه بها فيه وأسماه : تراث الفقه الاسلامي ومنهج الاستفادة منه على الصعيدين الاسلامي والعالمي .

دعا لها وساندها مؤلف هذا الكتاب : الدكتور جمال الدين عطية ، فقال – بعد أن تحدث عنها في أوراق منه وفي عدة صفحات خص بها الحديث عن معجم فقه ابن حزم – :

ونرى أن يكون منهج العمل – في معاجم أمهات الفقه – على مثال ما تمّ بالنسبة لمعجم فقه ابن حزم الذي يتميز في رأينا بميزتين أساسيتين :

١ – انه أورد خلاصة وافية لرأي ابن حزم في كل مسألة .

٢ – انه أرجع مباحث كل كلمة الى رقم المسألة من كتاب المحلى .

وكتاب الدكتور عطية في ١٠٤ صفحات .

وسيكون (معاجم الفقه الاسلامي) هذا بعد قيامه كتاب دراسة لجميع مراحل التعليم الثانوي والجامعي والعالي ، ومنه يأخذ كل ما يحتاجه وما يتفق ومناهجه وبرامجه .

ومنه ستختار الحكومات الاسلامية بوساطة علمائها وقضاتها ورجال الحكم فيها ، دساتيرها وقوانينها العامة والخاصة الداخلية والخارجية ، إن شاء الله .

وقد استبعد بعض زملائنا وأصدقائنا من أساتذة الجامعات والعلماء إمكان تنفيذ هذه الطريقة وتحقيقها في الماضي ، ولكن حين رأوها متمثلة في معجم فقه ابن حزم تلاشى استبعادهم وآمنوا بتحقيق تنفيذها . وإذا أعان الله فسنعيده وسيكون بعد تجديده ثلاث مجلدات بدل مجلدين ، إذ لا تزال فيه نواقص ككل عمل في البداية حين يبتكر .

ولا يزال بعض العلماء مع كل ذلك يستبعد جمع فقه الصحابة والتابعين والأئمة المنقرضة مذاهبهم ، ولهؤلاء أقول :

يمكننا بكل يسر وسماحة وبلا كبير تعب ومشقة ، في عصرنا هـذا الرابع عشر ، أن نجمع فقه الصحابة والتابعين وأولئك الأئمة ونصل بها — في معاجم — لما قدّره لها ابن حزم عن خبرة له مؤكدة واطلاع تام ، ولعل المصادر المتاحة لنا اليوم لم تكن متاحة كلها لابن حزم ، فما علينا إلا أن نحضّر من التفاسير أمثال كتب ابن جرير والبغوي والقرطبي وابن كثير والسيوطي وأمثال كتب الحديث : الموطأ لمالك وسنن الترمذي والدارقطني والبيهقي ومصنف ابن أبي شيبة وشروح الحديث : فتح الباري للحافظ وشرح مسلم للنووي ومعالم السنن للخطابي وطرح التثريب للعراقي ونيل الأوطار للشوكاني وسبل السلام للصنعاني وكتب ابن حزم: المحلى والأحكام والملل والنحل وجمهرة الأنساب ومراتب الاجماع وتقريب المنطق وجوامع السيرة والرد على ابن النغريلة ورسائله المجتمعة والمفترقة والمجموع للنووي والمغنى لابن قدامة والبحر الزخار لابن المرتضى والروض النضير للحسين الصنعاني وأشباهها ونظائرها من الكتب كثيرة ، تطولها كل يد دارسة ، ولعل المصادر التي بين أيدينا من ذلك توصلنا لأن نضع بين يدي الفقهاء من فقه الصحابة والتابعين وهؤلاء الأئمة أكثر مما قدّره له ابن حزم .

وقد سبق لي أن قلت هـذا أو شبيهه في مقدمة تخريجي بالمشاركة لأحاديث فقه الحنفية ، منذ سنوات ، وهو مطبوع ومتداول بين أيدي النـاس في أربـع مجلدات .

وبعد فإن قيام هذه المعاجم (لموسوعة الفقه الاسلامي) ستبقى ديناً في ذمة الدول الاسلامية ملوكاً ورؤساء وحكومات وديناً في ذمة الجامعات الاسلامية إدارة وأساتذة وموجهين وديناً في ذمة القضاء محاكم وحكاماً وقضاة .

والذي سيسعده الحظ من الملوك والرؤساء المسلمين سيكون نابليون المسلم الذي سيقول بملء فيه ستنتهي فتوحاتي حيث يصل قانوني .

والمنتظر أن يكون القائم بذلك فيصل خادم الحرمين الشريفين ومنزلى الوحي

ومولد صاحب الشريعة ومرقده صلوات الله عليه ، فمن أولى بذلك منه فلا يزال في مملكته للحدود سلطان وللشريعة محاكم وقضاة .

نريد أن نسمع قريباً : قانون فيصل ، بدل قانون نابليون .

(ألمْ ترَ إلى الذين يزعمُونَ أنهم آمنوا بمـا أُنزِلَ إليكَ وما أُنزِلَ منْ قبلِكَ يريدونَ أنْ يتحاكَموا إلى الطاغوتِ وقدْ أُمِروا أن يكفروا بهِ ويريدُ الشيطانُ أن يُضِلَّهم ضَلالاً بعيداً) .

(أفحُكْمَ الجاهليةِ يَبْغُونَ ومنْ أحسَنُ مِنَ اللهِ حُكماً لقومٍ يُوقِنون ؟) .

والحمد لله رب العالمين .



بسم الله الرحمن الرحيم

أثر الصحافة في التوعية الاسلامية

(لمعالي) سعادة الأستاذ عبد القدوس الأنصاري

أيها المستمعون الكرام :

تمتاز اللغة العربية بأنها لغة مرنة طيعة للاشتقاق الذي من دأبه أن يُكثّر المعاني، وأن ينوعها تبعاً للصيغ المشتقة من بعضها.. مثال ذلك صيغة «الصحافة» فهي مشتقة اشتقاقاً حديثاً من مادة (صَحَفَ) المشتق منها بدورها مادةُ « صحيفة ». وصيغة الصحافة في موازين علم النحو على وزن (فِعَالة) . وصيغة فِعَالة هذه تدل – خاصة – على معنى الصناعة ، مثل: صياغة وكتابة ونساجة.

ولم تكن « الصحافة » في لفظها ومعناها هذين، معروفة قبل القرن الهجري الثالث عشر لدى العرب . وسبب ذلك أن العرب والمسلمين لم يوجد لديهم هذا النوع من الصناعة القلمية إذ ذاك ، لقد ولدت الصحافة الحديثة على يد الغرب قبلهم ، وقبل الغرب بقرون قال الباحثون أنها كانت مما وجد في الشرق الأقصى في نشر وفي طبع رتيب بدائي .

أيها السادة :

إن الصحافة الحديثة في معناها المبسط هي أوراق محدودة مطبوعة يومياً أو أسبوعياً أو شهرياً أو دورياً ، تحمل الدين أو الأخبار أو الأدب أو العلم أو الاقتصاد الخ . وتوزع على القراء للاطلاع والالمام بما تنقله إليهم . وهذا التعريف المبسط يشمل الصحافة : الجريدة والمجلة .. والجريدة أشبه بالنشرة الدائمة ، والمجلة أشبه بالكتاب .. وقد وردت صيغة المجلة في لغة العرب أبان الجاهلية في هذا المعنى .. قال النابغة الذبياني :

مجلتهم ذات الآله ودينهم   قويم فما يرجون غير العواقب

وقد وردت صيغة (الصحف) جمع صحيفة في الذكر الحكيم مراراً . (إن هذا لفي الصُّحُفِ الأولى صُحُفِ إبراهيم وموسى) . كما وردت صيغة مفردها (الصحيفة) في الشعر العربي قال الشاعر :

ألقى الصحيفة كي يخفف رحله   والزاد حتى نعله ألقاها

وقد يكون بوسعنا أن نقول : أن « براعم » الصحافة كانت موجودة في العصور القديمة لدى الأمم المختلفة ، فلدى عرب الجاهلية كان الشعر هو صحافتهم السيارة ، وديوانهم الحاوي لأخبارهم وحياتهم الخاصة والعامة ، وفي ضحى الاسلام وظهره كانت صحافة العالم الاسلامي هي : المؤلفات الأدبية والتاريخية الجامعة ، مثل كتب الجاحظ ، والمستطرف ، والكشكول ، والعقد الفريد ، وعجائب الآثار في التراجم والأخبار ، لعبد الرحمن الجبرتي ، وغيرها من الكتب ذات الطابع الإخباري والاجتماعي الشامل .

يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة : « إن الجاحظ صحفي القرن الثالث الهجري» ، ويقول عنه أيضاً: «إنه صحفي ناجح ولم ينقصه غير اسمه الصحفي» ، ويضيف : « إن أدب الجاحظ كان صحافة كاملة لذلك العصر » .

أيها السادة :

كلنـا يعلم أن الصحافة بمعناها الحديث دخلت بلاد العالم الاسلامي والعربي بـأخريات القرن الماضي بعد احتكاك الغرب بالعرب والمسلمين ، خلال محاولته ومزاولته لاستعمارها .. وبحكم التفاعل الفكري والاجتماعي تسرّب هـذا الفن الكتـابي الحديث الى المجتمعات الاسلامية والعربية .. كان ذلك بالتحديد من ناحية العالم العربي المسلم في سنة ١٢٤٢ هـ الموافقـة لسنة ١٨٢٨ م .. حيث صدرت صحيفة (الوقائع) بمصر ، ومن بعدها توالى إصدار الصحف العربية في أنحاء بلاد العرب تدريجياً .. ولا يبعد الوقت الذي ظهرت فيه هذه الصحف في العالم الاسلامي غير العربي عن هذا الوقت كثيراً فيما يتراءى لي .

أيها السادة :

عالمنا اليوم مليء بالثقافة والمثقفين ، وقـد اتسعت دائرة القراءة والكتابة كثيراً عما كانت عليه من قبل بحكم كثرة المعاهد والمدارس والجامعات. والقارىء يطلب دائماً مـا يقرأه ، والكاتب يطلب دائماً ما يكتبه . والقارىء والكاتب يقرآن ويكتبان ما يتفق والسّنَنَ والمنهجَ اللذين درساهما في المعـاهد والمدارس والجامعات . وكانت المدارس والجامعات في العـالم العربي والاسلامي خاضعة لإشراف مباشر أو غير مباشر من قبل المستعمر .. وما خططه دنلوب ليس عنا ببعيد .. ومن هذه النقطة بالذات تكاثرت الصحف التي تصدر في عهد الاستعمار حاملة بذور الوعي اللاإسلامي ، أو معارضة للوعي الاسلامي .. فما أن تظهر صحيفة تحمل بذور الوعي الاسلامي والتوعيـة الاسلامية حتى يسلط عليها الاستعمار زبانيته وسمومه وحبائله ، ومن ثم تختفي ويفرغ الميـدان كله للصحف التي يغذيها وينميها بالتشجيع والمادة والتقدير .. وقد تململ فريق من زعماء العالم الاسلامي وكتّابه وصحافييه من هذه الخطة الجهنمية المحبوكة للقضاء على الوعي الاسلامي لدى بني الاسلام ، فحاولوا جـاهدين بث الوعي الاسلامي في كتبهم

المنشورة وفي مقالاتهم وقصائدهم .. وربما حاول بعضهم إصدار صحف على هذا الغرار ، ولكن المستعمر وأذنابه وأذناب أذنابه وتلاميذه المخلصين كانوا لهم بالمرصاد .

ولعل هـــذا هو سر ضعف عامل التوعية الاسلامية في الصحافة الاسلامية عربية وغير عربية ، فإن الداء إذا طال أمده تغلغل في الشرايين وصعب علاجه.

وقـــد عرف المستعمر ، بحكم ممارسته القديمة للصحافة ، أهميتها في تكوين الرأي العام .. فسعى بجهده الى اقتناص أبكارها ، واحتجاز أفكارها .. ثم بقي أثره فيها متغلغلاً ناشباً حتى بعـــد أن استقلت البلاد العربية والاسلامية بحكم الاستعمار الثقافي في جامعات الغرب ومدارسه ومعاهده التي يرتادها الطلبة العرب والمسلمون ، وبحكم تسليمه زمـــام القيادة لأبنائه الذين علمهم ودرّبهم وقدّمهم ليكونوا القادة والرادة في بلادهم .

كان من أوائل المفكرين الذين حاولوا وقف هـــذا التيار المستشري بإنشاء صحافة تمارس التوعية الاسلامية ، الشيخان جمال الدين الافغاني ومحمـــد عبده ، في مجلة « العروة الوثقى » ، وتلاهما رتل من الرجال منهم علي يوسف في جريدة (المؤيد) ، ورشيد رضا في مجلة (المنار) ، ومحب الدين الخطيب في صحيفة (الفتح) ومجلة (الزهراء) . وتوجد صحف ومجلات إسلامية اخرى في ذلك العهـــد ظهرت ثم اختفت بحكم عوامل العرقلة التي توضع في طريقها من قبل المستعمرين وأذيالهم .

انتهت تلك الموجة ، وجاءت بعدها — في عهد الاستقلال العربي والاسلامي — صحف تحمل بذور التوعية الاسلامية ، وترعاها البـــلاد العربية والاسلامية وترعاها دولها .. ومن هذا اللون : مجلة (دعوة الحق) بالمغرب الأقصى ، ومجلة (جوهر الاسلام) بتونس ، ومجـــلة (البعث الاسلامي) وصحيفة (الرائد) بالهند ، ومجلة (رابطة العالم الاسلامي) ، ومجلة (الحج) أو (التضامن الاسلامي)

كما سُمّيت أخيراً ، وجريدة (أخبار العالم الاسلامي) ، وكل هـــذه المجلات الثـلاث تصدر بمكة ولا تزال حتى اليوم .. ومجلة (الدعوة) بالرياض ، وهي لا تزال تصدر أيضاً ، وهذه المجلات الأربع تصدر في المملكة العربية السعودية وكذلك مجلة (المنهل) ذات الطابع الأدبي الاسلامي التي تصدر منذ ست وثلاثين سنة في هذه المملكة .

وهذه المجلات التي من مبادئها حمل بذور التوعية وغرسها في نفوس القراء ، حمـــاية للمبادىء الإسلامية من أعاصير الصحافة الأجنبية والدعايات المضللة ، والمذاهب المستوردة ، هي قمينة بمزيد من التشجيع حتى تضـــاهي في المظهر والاخراج والصحف التي تضادها ، والتي هي الآن مسيطرة على كثير من الرأي العـــام لدى العرب والمسلمين ، بحكم الاستمرار وبحكم روعة الاخراج وجاذبية الانتاج .. ومن هذه النقطة أيضاً أقول : إن مما يرفع مستوى مجلاتنا الاسلامية لتؤدي مزيداً من التوعية الاسلامية : جاذبية الانتاج ، بمعنى روعة مـــا ينشر فيها فنياً وكتابياً وشعرياً من المقالات والقصص والقصائد الاسلامية التي تجذب إنتباه القراء وتحول أنظارهم عن الصحافة المضللة أو الصحافة الخليعة التي من شأنها أن تبعث الانحلال ، والانحلال لون خطير من ألوان التضليل العام ، وهو أمر يحذقه الصحفيون الذين تربوا في أحضان أساتذتهم المستعمرين .

أيها السادة :

عوداً على بدء: إن الصحافة اليوم كما يقول عنها بالأمس أحمد شوقي رحمه الله :

لكل زمـــان مضى آية   وآية هـــذا الزمان الصحف
لسان البلاد ونبض العبـــا   د وكهف الحقوق وحرب الجنف
تسير مسير الضحى في البـلا   د إذا العلم مزق فيهـــا السدف
وتمشى تعـلم في أمـــة   كثيرة من لا يخـط الألـف

هي إذن مدرسة جامعة .. ولكنها قابلة جداً للانحراف والالتواء .. أمرها بيد من يدير شؤونها .. إن سار بها نحو الاصلاح والتوعية السديدة كانت طوع يمينه ، وإن سار بها نحو التدمير والانحلال والضلال، كانت طوع إرادته .. هي إذن مطية ذلول .. ووعاء يقبل أن يحمل الخير ، ويقبل أن يمتليء بالشر .. فما أجدرنا أن نعرف كيف نسيرها في طريق الخير والصلاح والتوعية الاسلامية ، بعد الذي كابدته أو كابدنا منهـا من اعوجاج الآراء وإفساد الأفكار ، وتدمير الضمائر ، والتواء الخلق ، وانحلال المجتمع ، واختلال الاسرة .. وذل الافراد .

والعالم الاسلامي اليوم خرجَ أغلبُه من قيود الاستعمار السياسي ..وما تبقى من أغلال الاستعمار الثقافي سارياً في معاهده وجامعاته ومنها إلى صحافته ، بوسعنا إذا اتشحنا بالحكمة وحسن السداد ، أن نقوم اعوجاجه ونصلح فساده ، ونجعل صحافتنا خالصة لنا ، تسدد آراءنا وتسد ثغرنا ، وتصلح شأننا ، وتقوم بالتوعية الإسلامية لجماهيرنا، كما هو واجبها كصحافة وطنية راشدة ذات مبادىء سليمة وخطط قوية .

وانطلاقاً من هـــذه النقطة بالذات ، يتسنى لهذه المملكة العربية السعودية الاسلامية حاملة لواء الإسلام إلى العالم ، ورافعة راية التضامن الاسلامي بين العالم الاسلامي ، انطلاقاً من هذه النقطة الحيوية يتسنى لهذه المملكة بالذات في عهد مسيرتها الظافرة الحاضرة أن تتبنى فكرة نهوض الصحافة بالتوعية الاسلامية ، وأن تقرر في جامعاتها ومعاهدها ومدارسها ، دراسة الطلاب لفن الصحافـة الذي يقول عنه الدكتور محمود فهمي في كتابه « الفن الصحفي » :

(ان الفن الصحافي كغيره من الفنون ، له من وسائل التعبير ما يستطيـع به أن يحرّك العواطف ، ويثير العقول ، ويزعزع العقائد ، أو يثبتها) .

ودراسة الفن الصحفي لدينا أمر مهم لنا وللعـــالم الاسلامي اليوم ، خاصة

ونحن نسعى إلى إيجـــاد وعي إسلامي شامل في الداخل والخارج .. وتكون دراسته في الجامعات والمعاهد أمراً مقرراً رسمياً ، حتى ينبغ بعض الدارسين له في معرفة هذا الفن وإدراك أسراره في نجاحه وتفوقه وتمكنه من تكوين الرأي العام وأسر الأفكار وجعلها طوع إرادته .. فيطبقون ما يدرسون أو ما درسوه إذا مارسوا فن الصحافة فعلاً، فيرفعونها الى المستوى الأعلى، ويقدمون لنا نتائج باهرة في بث مبدأ التوعية الاسلامية حتى يبزوا أو يساووا على الأقل دعـــاة التوعية اللاإسلامية ، ويقفوا لهم سداً منيعاً وحاجزاً حصيناً دون التغلغل في أدمغة شبابنا ورجالنا ونسائنا .

لعل هذا من وسائل إيجاد صحافيين أعلام ، إسلاميين عالمين ، يؤدون أمانة رسالة التوعية الاسلامية خلفـاً لسلفهم الحاضرين ، فيكونون خير خلف لخير سلف .

أيها السادة :

لقد أحسنت رابطة العـالم الاسلامي ، بلفتها الأنظار الى أهمية الصحافة في التوعية الاسلامية ، ونرجو أن تكون هــذه المحاضرة ، مقدمة وباباً مفتوحاً لمحاضرات أخرى تترى ، في معالجة هذا الموضوع الحيوي الهام . والله الموفق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الاستاذ عبد القدوس الأنصاري

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤمن لا يفر من الزحف

فضيلة الدكتور محمد أمين المصري

قال تعالى : (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) .

وهذا جزاء الذين كفروا أن تضرب هامهم وتقطع أطرافهم ، وهذا الوصف يملأ المؤمن شدة على الكافرين ، وبهذا وصف الله المؤمنين بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم . وقد فارقت هذه المعاني قلوب المؤمنين في الأيام المتأخرة وازداد أهل الكفر ضراوة على المؤمنين ونزع الله مهابتهم من قلوبهم .

والاسلام يعرف المسلمين بالسبيل الأقوم ففي النزاع بين الحق والباطل يجب أن يجد الباطل شدة وطأة الحق ليذعن له شاء أم أبى ، فإن لم يفعل فالباطل

غايته أن يجتث شجرة الخير من أصولها . والاسلام يريـد من أتباعه أن يعرضوا أنفسهم للابتلاء ولفتن أعداء الاسلام وكيدتهم وشدتهم وعداوتهم متوكلين على الله واثقين بنصره ، ويحذرهم أشد تحذير أن يُؤْثِروا العافية ويخلدوا للراحة والدعة والشر يستشري ويستفحل أمره .

قال تعالى : (ذلكَ بأنّهم شاقّوا اللهَ ورسُولَهُ) والمشاقّة والشقاق : غلبة العداوة والخلاف . وشاقّه : خالفه . وقال الزجاج : « الشقاق : العداوة بين فريقين ، والخلاف بين اثنين سمي ذلك شقاقاً لأن كل فريق من فرقتي العداوة تصد شقاً أي ناحية غير شق صاحبه » .

فهؤلاء الذين استحقوا فلق الهام واحتزاز الرقاب وقطع الأطراف إنمـا استحقوا ذلك بتصريح القرآن بسبب غلبة العداوة على قلوبهم لله ولرسوله ، فلا يأمر الله ورسوله بسبيل إلا ويسلكون سبيلاً مخالفة معادية .

لقد وجد هؤلاء ليبتلي الله بهم المؤمنين واقتضت حكمته جل شأنه أن يذيق هؤلاء الكفرة المؤمنين أنواع البأس وألوان العذاب ، ليقابل المؤمنون بأسهم ببأس أشد ، وليواجهوا عنادهم وكفرهم واستمساكهم بباطلهم بصبر يغلب عنادهم ، وثبات على الايمان يزعزع باطلهم ويصدع قلوبهم .

هذه تعاليم الاسلام واضحة جلية من شاقّ اللهَ ورسوله فليس له إلا أن يضرب فوق الرقاب ويضرب منه كل بنان . فلا هوادة ولا ملاينة بعد أن يبدي الباطل ناجذيه ، ويكشر الشر عن أنيابه .

ومتى وجد الباطل وجـد مسلحاً بأسلحة الشر كلها جامحاً شديداً مستكبراً طاغياً لا يقر ولا يستقر ، وقد علمنا القرآن الكريم أن نقطع دابره ونعفّي على أثره ، فإن لم نفعل فلننتظر شراً كبيراً وبلاء مستطيراً .

قال تعالى : (وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فإنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَاب)
قال ابن كثير : هو الطالب الغـالب لمن خالفه وناوأه لا يفوته شيء ولا يقوم لغضبه شيء تبارك وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه .

ولا يقال للمسلمين اليوم في مجتمعاتهم إنهم ليسوا مشاقين لله ورسوله ، ذلك أنه لا يخلو مجتمع من المجتمعات الاسلامية من ضرب أو ضروب من الجاهلية التي تتابع جاهلية المدن الغربية وتنافي الاسلام وتعارض مبادئه وقواعده وأسسه ، وأفراد ذلك المجتمع راضون ساكتون لا يبذلون جهـداً في تغيير منكر ولا يقدمون في سبيل ذلك عزيزاً .

وهذه الخاتمة التي ختمت بها الآية الكريمة أعني قوله تعالى (وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فإنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَاب) لتطمين قلوب المؤمنين وتثبيت أفئدتهم في صراعهم مع البـاطل وأهله فهم يعملون في مرضاة الله والله معهم ، وأهل الباطل يعملون فيما يغضب الله والله منزل عليهم عقابه يحلُّ بهم سخطه .
يقول السيد قطب عليه رحمـة الله : « قاعدة وسنة لا فلتة ومصادفة ، قاعدة وسنة أنه حيثما انطلقت العصبة المسلمة في الأرض لتقرير ألوهيـة الله وحده ، وإقامة منهج الله وحده ، ثم وقف منها عدو لها موقف المشاقة لله ورسوله ، كان التثبيت والنصر للعصبة المسلمة ، وكان الرعب والهزيمة للذين يشاقون الله ورسوله ما استقامت العصبة على الطريق واطمأنت الى ربها وتوكلت عليه وحده .

ومن أمثلة ذلك ، التي يشهدها المؤمنون ويحسّونها ، مـا وقع لمشركي قريش في بدر . ويخاطبهم الله به جلَّ شأنه في هذه المناسبة فيقول لهم في كتابه المنزّل : (ذلِكُمْ فَذُوقوهُ وأنَّ للكافرينَ عَذَابَ النار) ، والمعنى : العقاب ذلكم ، والأمر ذلكم الذي وقع بكم وشاهدتموه . وقوله تعالى (فذوقوه) كلام مستأنف لزيادة إيلامهم وتبكيتهم ، وقوله تعالى (وأنَّ للكافرينَ عذابَ النار) معطوف على ذلكم ، فالمعنى : العقاب ذلكم الذي عُجل لكم في الدنيا ، والعقـاب أن لكم

أيها الكافرون عذاب النار . فبعد أن ذكر الله جلّ شأنه أنه شديد العقاب بيّن لهم مثلاً من العقاب في الدنيا وأعلمهم بأنه مشفوع بعقاب آخر في الآخرة .

قال تعالى : (يا أيُّها الذينَ آمنوا إذا لقيتُمُ الذينَ كفروا زحفاً فلا تُوَلُّوهُمُ الأدبارَ) الزحف مصدر زحف ، إذا مشى على بطنه كالحية ، أو دبّ على مقعده كالصبي ، أو على ركبتيه ، والمشي بثقل في الحركة واتصال وتقارب في الخطو ، كزحف الدبا (صغار الجراد) وزحف العسكر إلى العدو : مشوا إليهم في ثقل لكثرتهم . والزحف : الجيش ، ويجمع على زحوف .

والأدبار : جمع دُبُر ، وهو الخلف ، ومقابله القُبُل ، وهو القدام . ولذلك يكنى بالقبل والدبر عن السوءتين . وتولية الدبر والأدبار عبارة عن الهزيمة .

قال ابن كثير : « يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك : (يا أيُّها الذينَ آمنوا إذا لقِيتُمُ الّذينَ كَفَروا زَحْفاً) أي تقاربتم منهم ودنوتم اليهم متزاحفاً بعضكم إلى بعض (ابن جرير) فلا تفروا ولا تتركوا أصحابكم » .

يقول صاحب « تفسير المنار » : إذا لقيتموهم حال كونهم زاحفين زحفاً لقتالكم (كما كانت الحال في غزوة بدر ، فإن الكفار هم الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لقتال المؤمنين فثقفوهم ببدر)، إذا لقيتموهم زاحفين لقتالكم زحفاً فلا تولوهم ظهوركم وأقفيتكم منهزمين منهم ، وإن كانوا أكثر منكم عِدداً وعدداً ، وإذا كان التزاحف من الفريقين أو كان الزحف من المؤمنين ، فتحريم الفرار والهزيمة أولى . ولفظ لقيتموهم زحفاً يصلح للأحوال الثلاثة ورجح الأول هنا بقرينة الحال التي نزلت فيها الآية .

والآية الكريمة توحي بأسئلة عدة :

أولها : ارتباط الآية بما سبقها ومكانها في السورة الكريمة (سورة الأنفال).

– والثاني : الأحكام الفقهية التي تؤخذ من الآية الكريمة .

– والثالث : ما هو موقف المسلمين اليوم من الآية الكريمة ؟

وللاجابة عن السؤال الأول نقول :

عوتب الأصحاب على سؤالهم عن الأنفال في مطلع السورة ، ووُجِّهوا ذلك التوجيه الرائع إلى تبوُّء مراتب الإيمان الرفيعة ، ثم عوتبوا على كراهية فريق منهم للقتال وجدالهم رسول الله في شأنه وهو حق أراده الله ، ثم ذُكِّروا بِنِعَمِ الله عليهم الجسيمة تذكيراً يعيد إلى الذهن ما وقع من المؤمنين قبل المعركة من رغبتهم في الغلبة على العير ، وإرادة الله جل شأنه أمراً جليلاً يمهد للقضاء على الكفر وإخماد أنفاسه . ذُكِّروا باستغاثتهم ربهم، وذُكِّروا بما غشي قلوبهم من هدوء وطمأنينة وبما ألقى عليهم من النعاس ، وذُكِّروا بالمطر الذي أنعش قلوبهم وطمأن نفوسهم وطهر أجسادهم وثبت أقدامهم وأذهب عنهم رجس الشيطان ، وذُكِّروا بأن الله أوحى إلى الملائكة بأنه جل شأنه معهم في نصرة المؤمنين وإنزال العذاب بالكافرين . وماذا يكون بعد إمداد الله المؤمنين بالملائكة ، وأمرهم جل شأنه بضرب الكافرين فوق الرقاب وضرب كل بنان ؟ كان من بعد ذلك إيمان المؤمنين إيماناً مبنياً على ما جربوه وشاهدوه بأن الله معهم في جهادهم للكافرين ، وبأن الله ناصرهم في كل موقعة يتصدون فيها لانزال العذاب بالمجرمين . وما هي النتيجة التي تترتب على ذلك ؟ يترتب على ذلك أن يتقدم المؤمنون لملاقاة أعداء الله غير هيابين ولا وجلين ولو كان الأعداء زاحفين زحف الجراد .

هذه النتيجة هي النتيجة الحتمية للتجربة الواقعية التي تمت وصيغت بنداء موجه للمؤمنين ، يعطي حكماً شرعياً ، ويضع قاعدة فقهية ، ليس للمؤمن أن يفر من الزحف وليس له أن يفر من لقاء العدو .

ولقد جاء الحكم مدعماً بأدلته التي تؤيده وتبين أسبابه ليس للمؤمن أن يفر

من لقاء العدو لأن هذا الفرار جبن لا يتصف به المؤمن، لأنه خوف من لقاء العدو وحرص على الحياة وجزع من الموت وضعف ثقة بالله وبنصره . كل ذلك انطوت عليه الآيات السابقة التي مهدت لهـذا الحكم الجليل الذي يجعل التولي يوم الزحف ما يتوعد به الله المؤمن بأنه يبوء بغضب الله ومأواه جهنم .

إذا كان الله مع المؤمنين وهو ناصرهم ومؤيدهم فكيف يخالفون أمره وكيف يضنّون بأرواحهم في سبيله .

وقد أعقب هـذا النداء نداءات أربع تؤيد معناه وتدعم غايته ، ثم ذُكر المؤمنون بمـا كانوا عليه من قبل من قلة وضعف فآواهم جل شأنه وأيدهم ونصر قضيتهم وغنّى دعوتهم ، وذُكّروا أيضاً بما كان عليه المشركون من قبل من شدة على المؤمنين ومكرهم بهم وبرسول الله وقـد أخزاهم الله اليوم في بدر وأذلّهم . وكل هذا يؤيد قضية واحـــدة هي أن يكون المؤمن في امتثال مرضاة الله ولن يضيعه الله ولن يخذله .

وتعود الآيات ثانية الى الغنائم والى الموقعة ويعود النداء ثانية بعـــد ذكر الموقعة الى القضية الهامة والى المسألة التي كأنها غرض السورة كلها .

(يا أيُّها الذينَ آمنوا إذا لقيتُمْ فِئَةً فاثْبُتُوا واذْكُروا اللهَ كثيراً لعلّكم تُفلِحون) .

ويعود السياق الى المشركين وكفرهم ، وأخـــذ الله إياهم بذنوبهم وتذكّر خيانتهم . ويُنادى المؤمن ثالثة :

(وأعِدُّوا لهُم ما استَطَعْتُمْ مِنْ قُوّةٍ) .

ويتخلل ذلك قواعد حربية تتعلق بالسلم وبالأسرى والتحريض على القتـال وقوة المؤمنين في مقابلة المشركين ، وتختم السورة الكريمة بولاية المؤمنين بعضهم

لبعض . ومن هـذا الاستعراض يمكن أن ندرك أن الآية التي نحن بصددها هي محور البحث وهي بيت القصيد في السورة كلها .

قال تعالى : (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلا مُتَحَرِّفاً لقتال أوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ منَ اللهِ ومأواهُ جهنَّمُ وبِئْسَ المصير) .

المتحرف للقتال هو المنحرف عن جانب إلى آخر ، وأصله من الحرف وهو الطرف . وصيغة التفعيل تعطيه معنى التكلف أو معاناة الفعل المرة بعد المرة أو بالتدريج .

والمتحيز في معناه وهو المنتقل من جو إلى آخر ، والحيز : المكان ، وأصل مادته بالواو . والحوز : المكان يبنى حوله حائط .

وانحاز عن القوم : اعتزلهم وانحاز اليهم . وتحيز : انضم . والفئة : الطائفة من الناس . والمأوى : الملجأ الذي يأوي اليه الانسان وينضم .

وقوله تعالى : (إلا متحرِّفاً لقتالٍ) أي متحرفاً لمكان من أمكنة القتال رآه أحوج إلى القتال فيه ، أو متحرفاً لضرب من ضروب القتال رآه أبلغ في النكاية بالعدو .

وقوله تعالى : (أوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ) أي متنقلاً إلى فئة من المؤمنين في حيز غير الذي كان فيه ،لينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم فصاروا أحوج اليه ممن كان في حيزهم .

وقوله تعالى : (فَقَدْ باءَ بغَضَبٍ من اللهِ) أي فقد رجع متلبساً بغضب عظيم من الله عليه .

(ومأواهُ جهنَّمُ وبئسَ المصير) ومأواه ، الذي يلجأ اليه في الآخرة ، جهنم دار العقاب . وبئس المصير جهنم ، كأن المنهزم أراد أن يأوي الى مكان

يأمن فيه من الهلاك فعوقب على ذلك بجعل عاقبته الـتي يصير اليها دار الهلاك والعذاب الدائم ، أي جوزي بضد غرضه من معصية الفرار .

والآية تدل على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصي ، وقد جاء التصريح بذلك في أحاديث أصحها عن أبي هريرة مرفوعاً عند الشيخين : « إجتنبوا السبع الموبقات (أي المهلكات) ، قالوا : يا رسول الله وما هنّ ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات » .

يقول ابن جرير :

واختلف أهل العلم في حكم الله عز وجل (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ) أهو خاص في أهل بدر أم هو في المؤمنين جميعاً ؟ فقال قوم: هو لأهل بدر خاصة لأنه لم يكن لهم أن يتركوا رسول الله ﷺ مع عدوه وينهزموا عنه ، فأما اليوم فلهم الانهزام . ويروي بإسناده عن أبي نضرة في قول الله عز وجل (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ) قال : ذاك يوم بدر ولم يكن لهم أن ينحازوا ولو انحاز أحد لم يتحَزْ إلا الى المشركين .

يقول ابن جرير : وقال آخرون بل هـذه الآية حكمها عام في كل من ولّى الدبر عن العدو منهزماً . ويروي ابن جرير بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، قـال : أكبر الكبائر الشرك بالله ، والفرار من الزحف ، لأن الله عز وجل يقول : (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ) .

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين في هذه الآية بالصواب عنـدي قول من قال حكمها محكم وأنهـا نزلت في أهل بدر ، وحكمها ثابت في جميـع المؤمنين وأن الله

حرّم على المؤمنين اذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين ، إلا لتحرّف لقتال أو لتحيّز الى فئة من المؤمنين حيث كانت من أرض الاسلام ، وأن من ولاهم الدُبر بعد الزحف لقتال منهزماً ، بغير نيّة إحدى الخلتين اللتين أباح الله التولية بها ، فقد استوجب من الله وعيده إلا أن يتفضل عليه بعفوه .

يقول : وإنما قلنا هي محكمة غير منسوخة ، لِما قد بيّنا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره أنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخ ، وله في غير النسخ وجه إلا بحجة يجب التسليم لها ، من خبر يقطع العذر أو حجة عقل ، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قول الله عز وجل (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ) .

ويقول ابن العربي في أحكام القرآن :

إختلف الناس في الفرار يوم الزحف أمخصوص هو بيوم بدر أم عام في الزحوف كلها الى يوم القيامة ؟

فروى عن أبي سعيد الخدري أن ذلك يوم بدر ، لم يكن لهم فئة إلا رسول الله . وبه قال نافع والحسن وقتادة ويزيد بن حبيب والضحاك . ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية الى يوم القيامة ، وإنما شذ من شذ بقوله تعالى (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يوْمَئِذٍ دُبُرَهُ) ، فظنّ قوم أن ذلك إشارة الى يوم بدر وليس به ، وإنما ذلك إشارة الى يوم الزحف .

والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب ، وذهاب اليوم بما فيه . وقد ثبت عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح أن الكبائر كذا ... وعدّ الفرار يوم الزحف ، وهذا نصّ في المسألة يرفع الخلاف ويبين الحكم .

القول الذي لا يحتمل الخلاف في نظرنا ما ذهب اليه ابن جرير وابن العربي ،

وما نقلاه عن ابن عباس وسائر العلمــــاء : بأن التولي يوم الزحف على إطلاقه يستحق هذا التشديد لفخامة الآثار التي تترتب عليه ، ولمساسه بأصل الاعتقاد . ولذا كان في التعبير القرآني شدة في التحذير وتغليظ في العقوبة ، وتهديد بغضب من الله وإيواء في السعير .

قـال القاسمي في تفسيره : دلـّت الآية الكريمة على وجوب مصابرة العدو ، والثبات عند القتال ، وتحريم الفرار من العدو يوم الزحف ، وعلى أن الفرار من الكبائر لأنه توعد عليه وعيداً شديداً . اهـ .

والآية الكريمة تفيد العموم بمعنى أن النهي فيها يشمل المؤمنين في كل زمان وعلى كل حال ، إلا الحالتين اللتين استثنتهما الآية الكريمة . وهـذا القول مروي عن ابن عباس وعليه أكثر الفقهاء .

وأراد قوم تخصيص حكم الآية في بعض الأحوال دون بعض ، ورَوَوْا عن عطاء أن حكم هـذه الآية منسوخ بقوله تعالى : (الآنَ خفـّفَ اللهُ عنكم) ، وهذا ليس بنسخ لأن النسخ هو رفع الحكم بدليل شرعي ، والذي ذهب اليه عطاء ليس رفعــاً للحكم الوارد في الآية الكريمة ولكنه تخصيص له في حال معينة ، وهي إذا كان عدد الكافرين لا يزيد عن ضعفي عدد المسلمين ؛ فإذا زاد فالمقاتلون في مثل هذه الحال لا يدخلون في الوعيد الذي جاء في الآية الكريمة إذا لم يثبتوا أمام الأعداء ، وذلك مأخوذ من قوله تعالى : (الآنَ خفـّفَ اللهُ عنكم وعَلِمَ أنّ فيكم ضَعْفاً) ... الخ .

الآية الكريمة حرّمت الفرار ولم تحدّد عدداً ، فيؤخذ منها تحريم الفرار على المؤمنين حين مقابلة المشركين مهما كان عـدد هؤلاء . وآية التخفيف في السورة نفسها حدّدت عدداً فيحمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص ، وليس هذا نسخاً وإن سمّاه بعض السلف بذلك .

قال القاسمي : قال بعض الأئمة : هذه الآية عامة تقضي بوجوب المصابرة على المؤمنين ، وإن تضاعف عدد المشركين أضعافاً كثيرة (إِنْ يَكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مائتَيْنِ وإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ مائةٌ يَغْلِبوا أَلْفاً) فأوجب الله المصابرة على الواحد للعشرة ، لأنه خبرٌ معناه الأمر . فلما شقّ ذلك على المسلمين رحمهم الله تعالى ، وأوجب على الواحد مصابرة الاثنين ، فقال تعالى : (الآنَ خفَّفَ اللهُ عنكمْ وعَلِمَ أنَّ فيكمْ ضَعْفاً فإنْ يَكُنْ مِنْكم مِائةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ) .

قال الشافعي رحمه الله : إذا غزا المسلمون فلقوا ضِعْفهم من العدو ، حُرِّم عليهم أن يوَلّوا إلا منحرفين لقتال أو متحيِّزين الى فئة ، وإن كان المشركون أكثر من ضِعْفهم لم أحب لهم أن يوَلّوا ، ولا يستوجبون السخط عندي من الله لو ولّوا عنهم على غير تحرُّف للقتال أو التحيُّز الى فئة .

وروى الشافعي وابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : من فر من ثلاثة فلم يفر ومن فر من إثنين فقد فر .

وفي المهذب : إن زاد عدد العدو على مثلي عدد المسلمين جاز الفرار ، لكن إن غلب على ظنهم أنهم لا يهلكون فالأفضل الثبات . وإن ظنوا الهلاك فوجهان: أولهما يلزم الانصراف لقوله تعالى (وَلا تُلْقُوا بأَيْديكُمْ إلى التَّهْلُكة) ، والثاني يستحب الانصراف ولا يجب ، لأنهم إن قتلوا فازوا بالشهادة . وإن لم يزد عدد الكفار على مثلي عدد المسلمين فالأصح في المذهب أنه لا يجوز الفرار حتى ولو ظن المسلمون الهلاك أخذاً بظاهر الآية الكريمة .

ويقول الجصاص (في أحكام القرآن ج ٢ ص ٦٠) بأن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ذكر أن الجيش إذا بلغوا اثني عشر ألفاً فليس لهم أن يفروا من عدوهم وإن كثر عددهم . يقول : ولم يُذكر خلافٌ بين أصحابنا فيه

(نعني الحنفية)، واحتج بحديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله أن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الصحابة أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ، ولن يؤتى إثنا عشر ألفاً من قلة ولن يغلب . وفي بعضها ما غلب قوم يبلغون إثني عشر ألفاً إذا اجتمعت كلمتهم » . وذكر الطحاوي أن مالكاً سئل فقيل له : أيسعنا التخلف عن قتال من خرج عن أحكام الله وحكم بغيرها ؟ فقال له مالك : إن كان معك إثنا عشر ألفاً مثلك لم يسعك التخلف وإلا فأنت في سعة من التخلف . وكان السائل له عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر . وهذا المذهب موافق لما ذكر محمد بن الحسن . والذي روى عن النبي ﷺ في إثني عشر ألفاً فهو أصل في هذا الباب وإن كثر عدد المشركين فغير جائز لهم أن يفروا منهم وإن كانوا أضعافهم ، لقوله ﷺ : « إذا اجتمعت كلمتهم » وقد أوجب عليهم بذلك جمع كلمتهم .

والحديث رواه أبو داود والترمذي والحاكم عن ابن عباس ، ورمز له السيوطي بالصحة . وقال الترمذي : حسن غريب ، ولم يحكم عليه بالصحة لأنه يروي مسنداً ومرسلاً ومعضلاً . قال ابن القطان : لكن هذا ليس بعلة فالأقرب صحته .

وقال الحاكم في المستدرك (ج ٣ ص ١٠١) : هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه لخلاف بين الناقلين فيه عن الزهري ، وأقره الذهبي على ذلك .

وقال الترمذي (ج ٥ ص ١٦٦) : وأخرجه الترمذي ، وقال : حسن غريب ، لا يسنده كبير أحد غير جرير بن حازم . وإنما روي هذا الحديث عن الزهري عن النبي ﷺ مرسلاً ، وقد رواه حبان بن علي العنزي عن عقيل عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن النبي ﷺ . ورواه الليث بن سعد عن عقيل عن الزهري عن النبي ﷺ مرسلاً .

وبعد هذا نميل الى الحكم بالضعف على الحديث لأنه مرسل على رواية الثقات الأعلام . والذين رووه متصلاً لا يخلو حالهم من ضعف ، فجرير بن حازم يقول فيه ابن حجر ثقة وله أوهام ، وحبان بن علي العنزي ضعيف ، والحكم الفقهي الذي يؤخذ من الحديث ليس حكماً مقطوعاً به بل هو مكان للنظر .

يتصل بالحكم الفقهي الذي يؤخذ من الآية الكريمة تحديد معنى التحرف والتحيز ، وقد أضيف التحرف للقتال ، وأضيف التحيز إلى فئة ، فكان في الفئة التي ينحاز اليها المقاتل بعض خلاف .

قال صاحب « المغني » ابن قدامة عليه رحمة الله (ج ٩ ص ٣٠٨) :

معنى التحرف للقتال أن ينحاز الى موضع يكون القتال فيه أمكن ، مثل أن ينحاز من مواجهة الشمس أو الريح الى استدبارها ، أو من نزلة الى علو ، أو من معطشة الى موضع ماء ، أو يفر بين أيديهم لتنتقض صفوفهم أو تنفرد خيلهم من رجالتهم ، أو ليجد فيهم فرصة أو ليستند الى جبل ونحو ذلك مما جرت به عادة أهل الحرب . وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يوماً في خطبته إذ قال : « يا سارية بن زنيم الجبل . ظلم الذئب من استرعاه الغنم » . فأنكرها الناس ، فقال علي رضي الله عنه : دعوه . فلما نزل سألوه عما قال فلم يعترف به ، وكان قد بعث سارية الى ناحية العراق لغزوهم ، فلما قدم ذلك الجيش أخبروا أنهم لقوا عدوهم يوم الجمعة فظهروا عليهم ، فسمعوا صوت عمر فتحيزوا الى الجبل فنجوا من عدوهم فانتصروا عليهم .

أقول وسارية ترجمه له ابن حجر وقال: قال ابن عساكر : له صحبة ، وقال: ولاه عمر ناحية فارس . وقال العسكري: روي عن النبي ﷺ ولم يلقه . وذكر الواقدي وسيف بن عمر أنه كان في الجاهلية عدّاء يسبق الخيل عدواً على رجليه ، ثم أسلم وحسن إسلامه . ويذكر ابن حجر القصة السابقة ويأتي على سرد أسماء

الذين رووها ، ويحسّن بعض أسانيدها . ويروي القصة عنـــد ابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عن ابن عمر عن أبيه، أنه كان يخطب يوم الجمعة فعرض في خطبته أن قـــال : يا سارية الجبل من استرعى الذئب ظلم ، فالتفت الناس بعضهم الى بعض ، فقال علي : ليخرجن مما قال ، فلما فرغ سألوه ، فقال : وقع في خلدي أن المشركين هزموا اخواننا ، وانهم يمرون بجبل فإن عدلوا اليه قاتلوا من وجه واحد وان جاوزوا هلكوا فخرج مني ما تزعمون أنكم سمعتموه .

قال فجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا صوت عمر في ذلك اليوم قـال فعدلنا الى الجبل ففتح الله علينا .

قال ابن قدامة : وأما التحيز الى فئة فهو أن يصير الى فئة من المسلمين ليكون معهم فيقوى بهم على عدوهم سواء بعدت المسافة أم قربت .

قـــال القاضي : لو كانت الفئة بخراسان والفئة بالحجاز جاز التحيز اليها . ونحوه ذكر الشافعي لأن ابن عمر روى أن النبي ﷺ قال: إني فئة لكم وكانوا بمكان بعيد منه . وقال عمر : أنا فئـة كل مسلم وكان بالمدينة وجيوشه بمصر والشام والعراق وخراسان .

أقول وحديث عبدالله بن عمر رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم.

ولفظ الترمذي عن عبد الرحمن بن يعلى عن ابن عمر قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فحاص الناس حيصة (وقوله حاص الناس حيصة يعني أنهم فروا من القتال) فقدمنا المدينة فاختبأنا بها وقلنا هلكنا ثم أتينا رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله نحن الفرارون ، قـال : بل أنتم العكارون (والعكارون أي أنتم العائدون الى القتال والعاطفون) وأنا فئتكم .

قال الترمذي : هـــذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد ابن أبي زياد .

ورواية الامام أحمد عن يزيد بن أبي زياد هذا ، وكذا رواية أبي داود .

و « يزيد بن أبي زياد » تكلم فيه قوم، ويقول بشأن الحديث الشيخ أحمد محمد شاكر : إسناده صحيح .

والسؤال الذي يرد ههنا : أيحق لفرد من أفراد جيش أرسله الإمام بقيادة قائد إلى جهة ما أن يدع ساعة القتال أفراد الجيش ويلتحق بالإمام دون إذن قائده وهو مأمور بالسمع والطاعة لقائده ، ألا يعتبر فراره في مثل هذه الحال فراراً من الزحف ، هذا الذي يبدو جلياً ، أما عودته إلى الإمام فمعناه تسليمه نفسه إلى الامام ليرى فيه رأيه ولينزل به ما يستحق من عقوبة .

وقد فسر المفسرون قوله تعالى (أَوْ مُتَحَيِّزاً إلى فئة) بقولهم أي متنقلاً إلى فئة من المؤمنين في حيز غير الذي كان فيه لينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم فصاروا أحوج بمن كان في حيزهم .

ويؤخذ من هذا منع فهم من فهِم بأن للمقاتل أن يفر من سرية ليلحق بامامه ، والذي يبدو لنا ضرورة التمييز بين الفرد في الجيش والجيش كله ، فالفرد من أفراد الجيش ليس له بدون إذن قائده أن يدع إخوانه وقائده ، ليلتحق بجيش آخر أو يلتحق بالامام وإلا لانفرط عقد الجيش وضاع نظامة .

أما السرية بكاملها والجيش بقائده وجميع أفراده فلهم أن ينسحبوا من وجه العدو إذا أيقنوا الهلاك ، وضياع أكثرهم ، ونقول ينسحبوا ولا نقول يفروا والانسحاب هو ما فعله خالد رضي الله عنه في غزوة مؤتة ، فلما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس ، ومع كل هذا فقد كان يفهم أصحاب رسول الله أن هؤلاء قد فروا . قال ابن اسحاق : وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون يا فرار فررتم في سبيل الله .قال فيقول رسول الله ﷺ : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى. وخالد رضي

الله عنه في انسحابه هذا وتمهيده له يروي عنه البخاري أنه رضي الله عنه قال : لقد دق في يدي يوم مؤته تسعة أسياف وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية .

وعلى هذا الفهم نحمل حديث ابن عمر الذي جـــاء فيه فحاص الناس حيصة وجاء فيه كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب والذي يبدو لنـــا فيه أن السرية بكاملها رجعت إلى رسول الله عليه صلوات الله ، ولا نفهم مما جاء في الحديث أن فريقاً صمدوا للعدو وآخرين فروا وتركوا اخوانهم ، وقـد قال أبو بكر بن العربي في شرحه على الجامع للترمذي بشأن هذا الحديث : يحتمل أن يكون القوم فروا في موضع الفرار ، يريد فراراً يعذرون فيـه ، فلذلك لم يلمهم النبي عليه الصلاة والسلام ، ويحتمل أنهم فروا في غير موضعه فعفـا النبي عليه الصلاة والسلام عنهم ، والأول أظهر أي أنه يؤثر أنهم فروا فراراً لا لوم عليهم فيه ، وعلى هذا الفهم نتزل كلام ابن عمر رضي الله عنه الذي يروى عنه لو تحيز لي أبو عبيد أن كنت لفئة ، وقد كان أبو عبيد قائد الجيش ، قال القاسمي في مسألة الفرار أن ذلك يرجع إلى ظن المقاتل واجتهاده ، فإن ظن المقـــاومة لم يحل له الفرار ، وإن ظن الهلاك جاز الفرار إلى فئة وإن بعدت إذا لم يقصد الاقلاع عن الجهاد. وحمل عليه حديث ابن عمر المذكور. أقول وكل هذا الذي ذكر اذا لم يكن المقاتل فرداً من أفراد جيش منظم ، فإذا كان كذلك فعليه الاتباع والتزام مـا عليه الجيش الذي ينتمي اليه الى النهاية ، وأما اذا كان منفرداً أو كان هو قائد الجيش فما ذكر صحيح . يقول القاسمي : وعن الكرخي أن الثبات واجب والمصابرة كذلك إلا إذا خشي الاستئصال وعرف عدم نكايته للكفار والتجأ إلى مصر للمسلمين أو جيش ، وهكذا أطلق فلم يبح الفرار إلا بهـــذه الشروط الثلاثة ولم يعتبر العدد الذي سبق ذكره .

ونجد القول الأخير أقرب الأقوال الى الصواب ، فليس العدد المقياس الأخير

للحكم ولا سيا في أيامنا هـــذه التي توصل الأعداء فيها الى سبق الصوت وتفجير الذرّة والسبح في الفضاء .

وخلاصة القول الذي ارتضينا : اذا خشيت الفئة المقـاتلة المسلمة الاستئصال وتيقنت في الوقت نفسه أنهـا ولو استؤصلت لن تبلغ في النكاية بالعدو مبلغاً ذا غناء ، فلها أن تدع ميدان القتال ولكن لا لاستسلام للعدو ولا لترك للجهاد بل للحاق بأرض اخرى والانضام الى فئـــة اخرى لشق ميدان جديد وفتح جبهة ثانية ، وكل هذا لا يتم على مستوى الأفراد ولكنه يتم في رأي الجماعة .

وهـــذه الشروط على غاية من الأهمية ويجب أن تتم كلها معاً ، ومعنى هـــذه الشروط أن المسلمين لا يمكن أن يستسلموا كاستسلامهم الحـــاضر ويطمئنوا كاطمئنانهم المقترن بالذل والموت ، ولكنهم في حركة دائمة وفكر دائم وجهاد لا ينقطع .

قال تعالى :

(فَلَمْ تَقْتُلُوهمْ ولكنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ومـــا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ولكنَّ اللهَ رَمى وَلِيُبْلِيَ المؤمنينَ منـهُ بَلاءً حَسَناً إنَّ اللهَ سَميعٌ عَليمٌ ، ذلِكُمْ وأنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكافِرين) .

خلق الله جلَّ شأنه الموت والحياة ليبلو الناس أيُّهم أحسن عملاً ، ولذا كان غرض الحياة الجهاد ، وليس لمخلوق لا يناضل مكان فوق الأرض . وأشرف أنواع الجهاد الجهاد في سبيل الحق ، ولا يزال الصراع قائماً لا ينقطع ولا يهـــدأ بين أولياء الرحمن وأعدائه ، والمؤمن في كنف الله ورعايته وهب نفسه لخالقه وقدَّم حياته في سبيله والله من رحمته بالمؤمنين يثبت قلوبهم ويطمئن نفوسهم بأنه معهم . ذلك أن المجاهد في سبيل الله أشد مـــا يكون حاجة الى رعاية الله تثبت فؤاده وتربط على قلبه ، وهذا غرض القرآن دفع المؤمنين الى الجهاد ثم تثبيت قلوبهم ،

ففي كل طائفة من آيات الكتاب الكريم نداء للمؤمنين بأنه جلّ شأنه معهم وأنه ناصرهم وخاذل أعدائهم ومعذبهم .

كل ذلك ليثوب قلب المؤمن الى ربه ولتسكن نفسه الى خالقهـا وليتقدم في سبيل الله لا يعرف عجزاً ولا وهناً .

والآية الكريمة تُشعِر بالإحسان وتُشعِر بالابتلاء في ساعة الإحسان ، ليظل المؤمن – في حال الإحسان اليه – يقظ الضمير ، واعي الفؤاد ، لا يسترسل في النعمة ولا يركن الى البحبوحة ، ولكنه يرى في أعماق نفسه أنه مبتلى بهـا موضوع تحت الاختبار والتجربة .

وهكذا لا يغفل المؤمن في ساعة النصر عن ذكر ربه ولا ينسى شكر نعمته ، ويزداد إيماناً بحمل رسالة الحق ويزداد إمعاناً في تقديم نفسه في سبيلها .

قال تعالى : (ذلِكُمْ وأنَّ اللهَ مُوهِنُ كيدِ الكافرين) ، الآية الكريمة تثبيت بعد تثبيت وتأكيد في إثر تأكيد ونص صريح بأن الله مع المؤمنين ، وأن كيد الكافرين مهما عظم فمآله الى الدمار .

وقـد بلغ كيد أعداء الاسلام اليوم غايته وتسنم ذروته ، وأضحى المسلمون يكادون يرتابون في وعـد الله ويكادون لا يصدقون بأن هؤلاء الذين ملكوا البحار والسهول والجبال وبلغ غزوهم الفضاء ما بلغ ، قد تكون ساعة دمارهم قريبة جداً ، ذلك أن قوتهم قوة مادية تأخذ بالألباب وتبهر الأنظار ، ولكنها ليست مقترنة بالأمن ولا بالسلام ، بل هي قوة تجعل العالم كله على بركان مستعر لا يُدرى متى تنطلق حِممه وتُقذف نيرانه ، ومهما بلغ اليه حال المسلمين فبقيـة الخير لا تزال كامنة فيهم والحق الأبلج لا يزال فيما انطوى عليه كتابهم والأمل الوحيد في انتباهتهم .

قال تعالى :

(إنْ تَستَفتِحوا فقدْ جاءَكمُ الفَتحُ وإنْ تنتَهُوا فهوَ خيرٌ لكمْ وإنْ تعُودوا نَعُدْ ولَنْ تُغنيَ عنكمْ فِئَتُكمْ شيئاً ولَوْ كَثُرَتْ وأنّ اللهَ مَعَ المؤمِنين) .

سياق الآيات التي سبقت فيما امتنّ الله بــه على المؤمنين من إمدادهم بكل الوسائل المادية والمعنوية التي انتهت بهم الى الغلبة على أعدائهم ، وقد وضعت الآية الكريمة حكماً بأن الأمر كذلك في كل موقعة يواجه فيها المؤمنون الصادقون المخلصون أعداء الله ، ونصّت الآية الكريمة على أنه تبارك أسماؤه موهن أمر الكافرين وكيدهم ، وقد كانت الموقعة نفسها أعظم موهن لكيد الكافرين ، فلقد كان من ثمراتها رعب ملأ قلوب المشركين ولازم أفئدتهم ، وكان من ثمراتها أن استيقن الذين عاشوا من المشركين بعــد الموقعة أن ما كان يحدثهم به زعماء الكفر وطواغيت الضلال أبو جهل وأصحابه من انتصارهم على أصحاب محمــد صلوات الله عليه وسلامه ما كان إلا غروراً، ولعل أبلغ ما وقع من ذلك استفتاح أبي جهل ودعاؤه عند عزيمته على القتال بأن ينصر الله فئته ، لقد استفتح وجاءه الفتح وكان فتحاً الى مقره في جهنم .

وليس من شك في أن المشركين أنفسهم كانوا يتحدثون بكل ما قال أبو جهل وبكل أنواع كيده وتغريره ، وانتهى كل ذلك الى مـــا انتهى اليه أبو جهل ، وهذا أكبر الوهن في صفوف المشركين .

وبعد هذا كله أفلا يجدر بالمؤمنين أن يكونوا حزب الله وأنصار رسوله ؟ أفلا يجدر بهم أن يسمعوا ويطيعوا وألا يتولوا عن أمر الله وأمر رسوله ؟ وهم معرضون يسمعون وكأنهم لا يسمعون ، وإنها لصورة من أشنع الصور وأقبحها أن يسمع المؤمن نداء الله يناديه باسمه ثم يصمّ أذنيه وينكس رأسه ويمضي في

سبيله صامتاً متجاهلاً . إن النداء نداء القاهر فوق عباده ، وإن الصمت صمت القسوة والغفلة ، والإعراض إعراض العناد ، وإن هـــذا الذي يدّعي الإيمان ويسمع نداء الله ثم يصمّ أذنيه لهو جامد القلب متبلد الحس يخشى ان تكون هنـــالك وصلة بينه وبين الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، وهؤلاء هم عند الله شر مخلوق يدبّ على وجه الارض .

قال تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وَرَسُولَهُ ولا تَوَلَّوا عنهُ وأنتمْ تسْمَعُون ، ولا تكونوا كالذينَ قالوا سَمِعْنا وُهمْ لا يَسْمَعُون . إنّ شَرّ الدّوابّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الذينَ لا يَعْقِلون) .

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف انتشر الإسلام

للدكتور مجاهد محمد محمود الصواف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الرسول الأمثل ، والمبشر الأول ، وناشر الإسلام الأفضل محمد ، وعلى آله وصحبه ومن حمل لواء هـــذه الدعوة المباركة . وجاهد في سبيل الله حق جهاده ، في كل ميادين الجهـاد ، من جنود الاسلام ، الذين عملوا لله ، وكافحوا في سبيله فلم يأبه أحدهم أن ذكر التاريخ اسمه أم عفا على ذكره الزمن . مـــا دام دمه المهراق في سبيل هذه الدعوة قد ساهم في نمو شجرة الاسلام الوافرة الظلال التي استظل بها ملايين المسلمين ، ولا زلنا لحد الساعة نتفيأ ظلالها الوارفة ..

إن نمو هـــذه الشجرة المباركة بهذه السرعة المتناهية ، وانتشار الاسلام ، ذلك الانتشار السريع قد حير الألباب لا ألباب الناس العاديين فقط، بل ألباب الفلاسفة والمؤرخين وعلماء الاجتماع والدين ، فخرجوا بنظريات مختلفـــة تفسر

كيفية انتشار الاسلام وأسبابه ، وسنناقش بعض هـــذه النظريات ، ولا بد للباحث أن يعود إلى حياة الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه ، ليرى كيف بدأ الاسلام ثم انتشر في زمنه ﷺ .

يحدثنا كتاب السيرة ومدونوها أن العرب السابقين كانوا يسمون محمداً الأمين قبل بعثته ﷺ ، وكان صادقاً ، فكان رسول الله ﷺ مثـــالاً حياً ونموذجاً صادقاً لقريش ، كان في حيـــاته وتصرفاته دعوة للإسلام وانتشار الاسلام . وصدق الله حين وصفه (وإنكَ لعلى خُلـُقٍ عظيم)[1] فالداعية الأول كان يطابق ما يقول على ما يفعل ، وكان قرآناً يمشي على الأرض . وهذا العامل من العوامل القوية التي رأينا تأثيرها في غير المسلمين ، فقد رأينا تأثير المسلم المتمسك الذي يقول ويفعل على الأوربيين . ولست مغـــالياً إن قلت بأن أكثر من رأيت ممن اعتنق الاسلام ، اعتنقوه لتأثرهم بحيـــاة شخص مسلم وسيرته قبل أقواله وتفسيراته ،ثم إن الرسول ﷺ بعد أن جاءه جبريل بالرسالة وأمره الله سبحانه بالتبليغ بدأ أول ما بـدأ بأهل بيته الطاهرين ، دعا زوجه خديجة رضي الله عنهـا فأسلمت [2] ودعا علياً رضي الله عنه الذي كان يعيش في بيته فأسلم [3] ثم دعا زيد بن حارثة رضي الله عنه الذي كان يدعى بزيد بن محمد فأسلم [4] .

واستجاب الرسول ﷺ لأمر الله القائل (وأنذِرْ عشيرَتكَ الأقربين)[5] ،

---

(١) سورة القلم : ٤ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية . تحقيق السقا ورفاقه .

(٣) نفس المصدرين السابقين ١ - ٢٦٣ .

(٤) نفس المصدرين السابقين ١ - ٢٦٧ .

(٥) سورة الشعراء : ٢٦ .

ثم أنذر صديقه وحبيبه الصدّيق رضي الله عنه فأسلم [1]. وأسلم بعض الصحابة الكرام ، فبدأ التنظيم الأول في نشر الاسلام ، فكان الرسول ﷺ يعلم المسلمين ويدعو قومه إلى الله. وشارك المسلمون الأوائل لا في مدارسة كتاب الله وأقوال رسوله وتطبيقها على حياتهم اليومية فقط، بل بالدعوة إلى الله فأسلم أناس بدعوة أبي بكر ، منهم عثمان والزبير رضي الله عنهما وغيرهم [2] .

وانطلق المسلمون الأوائل يعملون في نشر هذه الدعوة ، وكان النشر يتركز في الاتصال الفردي ، والتأثير الشخصي بسيرة الداعي نفسه ، ثم بقراءة القرآن الكريم ، ودعوة الشخص إلى الايمان بالله ورسوله وتطبيق أجزاء الاسلام المفروضة آنذاك .

ولا يجب أن ينسى الباحث هنا هجرة الحبشة . فقد هاجر المستضعفون من المسلمين ، ويعطينا ابن اسحاق (٨٢) كعدد للمهاجرين غير الأطفال والمولودين في الحبشة [3] ، وهذا العدد تقريبي ، ورغم أن ابن اسحاق وغيره يروي إسلام النجاشي [4] حاكم الحبشة ، ويروي هذا كل من روى الحديث بأن الرسول ﷺ صلى عليه صلاة الغائب. ليست لدينا تفصيلات دقيقة عن دعوة المسلمين المهاجرين للأحبار ولا عن عدد من أسلم من الأحباش . وليس باستطاعة أي باحث أن يتكلم بدون علم . ولكن ومما لا شك فيه أن المجموعة التي كانت في الحبشة قد تثقفت ثقافة لا بأس بها باختلاطها بمجتمع جديد . وبامتزاجها بأناس يدينون

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ١ – ٢٦٦ .

(٢) انظر ابن هشام ، السيرة ١ - ٢٥٧ .

(٣) انظر ابن هشام ، السيرة ١ - ٢٦٧ .

(٤) المصدر السابق ١ - ٢٦٥ .

النصرانية ويقرؤون الكتاب المقدس بشطريه التوراة والانجيل . فمما لا شك فيه أن المسلمين المهاجرين الى الحبشة قد اكتسبوا خبرة في جدال أهل الكتاب وفي طريقة دعوتهم الى الاسلام ، والرد على شبههم . بعد أن اشتدت عداوة قريش للمسلمين كان الرسول ﷺ يتطلع الى إسلام شخص قوي يعينه ويقف بجانبه أمام طغيان قريش واستبدادها . ولسنا هنا في ذكر سيرة المصطفى ﷺ ولكننا نذكر بعجالة ما يخص موضوع بحثنا هذا . فكان الرسول ﷺ يدعو الله بأن يهدي أحد زعماء قريش ورجالاتها للاسلام « اللهم أيّد الاسلام بأبي الحكم ابن هشام (أبو جهل) أو بعمر بن الخطاب »[1] . واستجاب الله دعاء نبيه . فأسلم عمر بن الخطاب . وبدأت الخطوة الثانية في تاريخ الدعوة والتي هي إعلانها . ويستمر الرسول ﷺ في تطلعه الى أن يسلم الزعماء فالأتباع يمشون وراء القادة والزعماء عادة . ويحدّث الرسول ﷺ الوليد بن المغيرة ويأتيه أحد الضعفاء يسأله عن الاسلام . لكن الرسول الطامح ينصرف الى الوليد. ويعاتب الله محمداً ﷺ (عبَسَ وتولّى إنْ جاءَه الأعمَى)[2] معلماً هذا الرسول الكريم أن تبليغ هذا الدين من حق الناس كافة لا من حق إنسان بعينه ، لا لشيء ، إلا لأنه زعيم أو رئيس . ويستمر الرسول ﷺ في نشر الاسلام ، ويحاول مع الحجيج ليخرج الدعوة من المحيط المكي الى محيط أكبر، الى قبائل العرب، ومدن الجزيرة العربية الآخرى. لكن النجاح لم يكن حليفه كما تحدثنا مصادرنا. ويقرر الرسول ﷺ أن يترك مكة باحثاً عن تربة صالحة للدعوة ، وأناس آخرين بعد أن أمضى

---

(١) سيرة ابن هشام ١ - ٣٧٠ .

(٢) انظر « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » للطبري ، ٣٠ / ٥٠ - ٥١ .

قرابة العشر سنوات في الدعوة في مكة . فيخرج للطائف لكنه يتوجه الى ربه بالدعاء الذي يروي حالته: (اللهم اليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على النـــاس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، الى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ! أم إلى عدو ملكته أمري !! إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي،أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك ويحلُّ عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك) [1] .

وينزل الله عليه آيات ليبين له كيف صبر أخ له من قبل (ربِّ إني دعَوْتُ قومي ليلاً ونهاراً فلم يَزِدْهُمْ دُعائي إلا فِراراً . وإني كلما دَعَوْتُهم لتغفِرَ لهم جَعلوا أصابعَهُم في آذانِهم واستَغْشَوْا ثيـــابَهم وأصرُّوا واستكبروا استكباراً) [2] .

ويأخذ الرسول ﷺ عبرة من قصة نوح ، ويعلم أنها سنة الله ، وأن الداعي لا بد وأن يواجه التكذيب والصد ، ولا بد وأن يُعذَّب في سبيل دعوته فيندفع في دعوته في سبيل الله . ويلتقي بوفد الحجيج القادم من يثرب، وكان فاتحة خير لهذه الدعوة، فقد لقي الرسول ﷺ قوماً سيحملون هذه الدعوة . ويرسل معهم مصعباً بن عمير [3] ليكون داعيهم وناشر الاسلام بينهم ومعلمهم . وما أحسن اختيار الرسول ﷺ لشاب نشأ في طاعة الله ، ولم يبالِ بالمصاعب ما دامت في الله . وخالط أهل الكتاب في الحبشة ، فهو على معرفة بطريقة الدعوة ،

---

(١) ابن هشام ، سيره ٢ - ٦٢ .

(٢) سورة نوح ٥ - ٧ .

(٣) ابن هشام ، سيرة ٢ - ٧٦ .

وباستطاعته الرد على اليهود ومناقشتهم... ويعمل مصعب ، ويسلم أهل يثرب. وبعد أن يرى الرسول ﷺ عدد المسلمين المتزايد هناك وأن الاسلام بدأ ينتشر بسرعة وتركيز ، يعلم أن المدينة كما سميت فيما بعد هي التربة الصالحة لغرس بذور هذه الدعوة المباركة .

وتحاول قريش اغتياله ، فيهجر بلدته ومسقط رأسه الى يثرب ، ويبـدأ التنظيم في بناء المسجد ، وفي نشر الدعوة ، فيكون لمن بقي بمكة نصيب ، فهم على اتصال دائم بالرسول الكريم ﷺ تحمل لهم آيات القرآن من المدينة إلى مكة كما يروي الزركشي في البرهان [1] ليكون المسلمون في مكة على علم بما يجد . ويبعث الرسول ﷺ رسائله إلى ملوك وزعماء ذلك الزمن يدعوهم إلى الاسلام ، وكان ذلك في السنة السادسة للهجرة .. وقد بعث الرسول ﷺ دعـاة إلى كل بلد يدعون الناس للإيمان ، ولسنا في سبيل التفصيل عن عدد دعاة الرسول ﷺ الذين كان منهم خـالد بن الوليد رضي الله عنه الذي بقي ستة أشهر في اليمن يدعو النـاس إلى الاسلام [2] ، وعـلي بن أبي طالب رضي الله عنه . وكان الناس يأتون للسؤال عن الاسلام ، فيعود من يسلم منهم للعمل بنشر هـذا الدين نذكر منهم الطفيل بن عمرو الذي قدم عليه ﷺ وهو في مكة [3]، وعمرو ابن مره [4] وضمام بن ثعلبة [5] كان النجاح حليف بعض دعاة الرسول ﷺ ،

---

(١) تحقيق محمد إبراهيم . القاهرة ١٩٥٧ م ص ١ — ٢٠٣ .

(٢) محمد عبد الوهاب ، مختصر ٣٦٧ .

(٣) أنظر تفصيل قصته في سيرة ابن هشام ٢ / ٢١ — ٢٥ ،

(٤) ابن سعد ، الطبقات ، نشر سخاوليدن ١٩٠٥ — ١٩٢١ ، ١١٨ .

(٥) سيرة ابن هشام ٣/٢١٩ — ٢٢١ .

وكان الفشل حليف الآخرين ، فقد فشل خـالد رضي الله عنه في دعوته أهل اليمن، كما يروي الأمير الشيخ محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله)، كما أن بعض وفود الرسول ﷺ استشهدت ولم تعمل على نشر الاسلام بعد، منهـا الأربعون داعياً ومبشراً قتلوا في بئر معونة [1] .

وفي عام الوفود قدمت وفود العرب معلنة إسلامها للرسول ﷺ أو مناقشة بعض أمور معه ولا نريـد أن ننسى في عرضنا السريـع هـذا غزوات الرسول ﷺ التي قام بهـا بعد أن ظلم المسلمون . ولم يكن هناك بد من الحرب في معظم الحالات .

ويستطيع الباحث أن يقول بكل ثقة بأن غزوات الرسول ﷺ لم تقم لتجبر الناس على الإيمان بالله وبرسوله ، وبهذا الدين . وإنما قامت لأن القبيلة أو القبائل المحاربة كانت حجر عثرة في سبيل نشر الاسلام . وكان لا بـد من إزالتها كي ينتشر الاسلام . وهكذا انتشر الاسلام . بفضل الله ثم بفضل الدعاة وعملهم . ولا يريد المرء أن يوافق على ما يقوله بعض الغربيين ومعهم بعض المؤرخين من أن الردة الـتي حصلت كانت نتيجة حتمية . لأن الكثير من القبائل أسلمت إسلاماً سطحياً أو كان (وليد اعتبارات سياسية، ومساومات ناشئة عن ضغط القوة والعنف أكثر منه وليد حماسة ويقظة روحية) كما يضعها أرنولد[2]. ان الردة اتخذت أشكالاً عدة ، منها عدم إعطاء الزكاة فقط. ولا شك أن موت الرسول ﷺ نفسه ولّد بعض المشاكل لدى بعض هذه القبائل . ثم قرب عهدهم بالزعامة القبلية ومحاولة الثورة على السلطة المركزية . وإسراع طالبي الزعامة بادعاء النبوة الكاذبة

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام ، ٣ - ١٩٤ .

(٢) السير توماس أرنولد ، « الدعوة إلى الإسلام » ترجمة د . حسن ابراهيم حسن ورفاقه .

السيطرة على القبائل البعيدة. ولا يريد المرء التعمق في بحث الردة هنا . بل يجب أن يفرد له بحث خاص .

وأراد الله لهذا الدين أن ينتشر . ولجيش الاسلام أن ينتصر على المرتدين . فبانتصاره يستطيع الباحث أن يعتبر أن الاسلام دخل جزيرة العرب وسادها . وقبل الانتقال للكلام عن حالة العالم قبل الفتح الاسلامي أردت أن لا أستقي المعلومات من مصادرنا الاسلامية، كي لا يقول بعضهم أنها مصادر عدوة للمسيحية المنتشرة آنذاك ، بل حاولت الاعتماد على مصادر مسيحية . ولنرى ما يكتب هؤلاء عن المسيحية في ذلك الزمن . قال السير توماس أرنولد : (يزعم كثير من علماء اللاهوت المسيحيين أن حالة الكنيسة الشرقية التي تدهورت في ذلك الوقت من الناحيتين الخلقية والروحية لا بد أن تكون قد دفعت كثيرين الى أن يلتمسوا جواً روحياً أسلم وأصح في ذلك الدين الاسلامي الذي جاءهم وهو في أشد ما تكون الحماسة الغضة قوة وعنفاً) [1] .

وقال تايلور : (كان أئمة اللاهوت في افريقيا والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة ، ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة في السماء وسمو البكورية الى مرتبة الملائكة ، فكان اعتزال العالم هو الطريق الى القداسة ، والقذارة صفة لطهارة الرهبانية . وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء القديسين والملائكة، كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب ، ولم يكن للعبيد أمل في حاضرهم ولا مستقبلهم . فأزال الاسلام ، بعون من الله ، هذه المجموعه من الفساد والخرافات . لقد كان ثورة

---

(١) المصدر السابق ٦٦ .

على المجادلة الجوفاء في العقيدة وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى . ولقـد بيّن أصول الدين التي تقول بوحدانية الله وعظمته ، كما بيّن أن الله رحيم عادل يدعو الناس الى الامتثال لأمره ، والإيمان بـه ، وتفويض الأمر اليه ، وأعلن أن المرء مسؤول ، وأن هناك حياة آخرة ويوماً للحساب ، وأعدّ للأشرار عقاباً أليماً وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير ، ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الديني ، والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة ، وسفسطة المتنازعين في الدين ، وأحلّ الشجاعة محل الرهبة ، ومنح العبد رجاء والانسانية أخاء ، ووهب النـاس إدراكاً للحقائق الأساسية التي تقوم عليه الطبيعة البشرية) [1] .

أيها الاخوان الكرام إن قسيساً من يقول هـــذا ، لا أحد علماء الاسلام المدافعين عنه . وهي من تقرير قرأه في السابع من اكتوبر عام (١٨٨٧) م. في مؤتمر كنسي في مدينة ولفرهامبتون الانجليزية . وقبل أن أنتقل الى نقطة مهمة في انتشار الاسلام أريد أن أورد نصاً كبيراً مهماً لرسالة كتبها البطريك النسطوري باف الثالث ، وتعود الوثيقة ذات الأهمية البالغة الى القرن الاول الهجري ، ورأيت نقلها لكم كاملة لأهميتها ، يقول البطريك :

(أين أبناؤك أيها الاب الذي ثكل أبناءه ؟ أين أهل مرو العظماء الذين على الرغم من أنهم لم يشهدوا سيفاً ولا ناراً ولا تعذيباً . ولم يسيطر على نفوسهم إلا حب التجارة والأخذ منها بنصيب . تنكبوا الطريق المستقيم وكبكبوا في هوة الضلال في الهلاك المقيم وسيقوا الى الفناء ولم ينج إلا قسيسان ، في الامم فقط ، من نار الكفر المحرقة ، كما تنتزع جمرتان من اللهب ؟ واحسرتاه على هذه الآلاف

---

(١) T. W. Arnold , The Preaching of Islam أنظر ترجمتهـا في المصدر السابق ٦٧ .

المؤلفة التي تحمل اسم المسيحية والتي لم يتقدم حتى واحد منها ليهب نفسه ضحية للرب ، ويريق دماءه في سبيل الدين الحق .

أين كذلك معابد كرمان وبلاد فارس جمعاء؟.. إن المسلمين[1] الذين منحهم الله سلطان الدنيا يشاهدون ما أنتم عليه وهم بينكم ، كما تعلمون ذلك حق العلم ، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية ، بل على العكس يعطفون على ديننا ، ويكرمون قسسنا وقديس الرب ويجودون بالفضل على الكنائس والاديرة ، فلماذا إذا هجر شعبنا من أهل مرو عقيدتهم من أجل هؤلاء المسلمين ؟ ولماذا حدث ذلك أيضاً في وقت لم يرغمهم فيه المسلمون ، كما يصرح بذلك أهل مرو أنفسهم ، على ترك دينهم ، بل تعهدوا لهم أن يبقوا عليه آمناً مصوناً اذا هم اقتصروا على أداء جزء من تجارتهم اليهم . ولكنهم هجروا العقيدة التي تجلب الخلاص الأبدي إبقاء على نصيب من عرض هذه الدنيا الزائلة ، تلك العقيدة التي اشترتها وتشتريها حتى هذا اليوم شعوب بأسرها بإراقة دمائها حتى ترث بذلك حياة أبدية . ان شعبك من أهل مرو قبلوا عن رغبة أن يغيروا دينهم من أجل جزء من تجارتهم ، بل من أجل ما هو أقل من ذلك) [2] .

ان هذا البطريك ليعترف في توجهه الى ربه بأن المسلمين متسامحون ، وبأن النصارى دخلوا الاسلام عن رغبة شخصية ، رغم أنه عزا هذا الى خوف الجزية وسنناقش هذا الأمر فيما بعد. وفي هذه الوثيقة حجة دامغة لكل من يتكلم عن التعصب الديني في الاسلام ، لأنه ليس هناك أي دليل على هذا ، والحجة هي ما جاءت من المصادر الأولية ، وأي مصدر يمكن أن يؤخذ مثل هذه الوثيقة الصادرة من بطريك ، وفي القرن الاول لهجرة المصطفى ﷺ .

---

(١) غيرنا كلمة العرب الى مسلمين في كل المواضع .
(٢) ارنولد ، الدعوة الى الاسلام — ٧٥ — ٧٦ .

إن التسامح الديني الذي بدأه رسول الاسلام ﷺ حين فتح مكة وقال قولته المشهورة : (اذهبوا فأنتم الطلقاء) والذي ركز الله عليه في كتابه : (لا إكراه في الدّين) [(١)] فجعله الرسول ﷺ سنة للمسلمين من بعده بتصرفاته العديدة ، فاستطاع المسلمون أن يدخلوا بواسطته الآلاف المؤلفة في هذا الدين العظيم . وقد شهد بتسامحهم الأعداء والعالم كله .

هذا ما كتبه ميخائيل الأكبر بطريرك إنطاكية اليعقوبي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر . كتب بعد أن ذكر اضطهادات هرقل ، (وهـذا هو السبب في أن آلة الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت. والذي يديل دولة البشر كما يشاء ، ويرفع الوضيع ، لمـا رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا ، وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمـة ولا شفقة ،أرسل أبناء اسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم[(٢)]) .

فيعتبر هـذا البطريرك الفتح الإسلامي تخليصاً من الروم الذين هم نصارى . هـذا بعد أن حكم المسلمون لمدة خمسة قرون. ويذكر أرنولد في عدة مواضع من كتابه « الدعوة إلى الإسلام » التسامح الديني ويركز عليه [(٣)] .

ولا حاجة للتذكير بما قام به النصارى من عنف ضد اليهود وضد المسلمين في اسبانيا حتى لم يبقَ في اسبانيا اليوم مسجد واحد . وها هي كنائس النصارى تملأ العـالم العربي ، والنصارى باقون لحد اليوم فيه وفي العالم الإسلامي . إن

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٢) Michael the Elder, Chronique de Michael le Syrien, patriarche jacobite d'Antioche, 1166 - 1199, éditée par J. B. Chabot, Paris, 1899 - 1901, Tom. 2, p. 412 – 413.

وانظر ترجمتها في ارنولد ، الدعوة ص ٥٣ .

(٣) انظر مثلاً : ٧٣ ، ١٠٨ ، ١٨٨ .

التسامح الديني كان عاملاً في انتشار الاسلام ، كما أن الفتح الاسلامي رغم أنه لم يرغم النـاس على اعتناق الاسلام ، فالقائد المسلم قبل أن يبدأ حربه ، كان يخير الأعـداء إحدى الثلاث ، الاسلام ، الجزية ، الحرب . لكن الاحتكاك الذي حصل بين جيش الاسلام وجيش الكفر ، ورؤية روح التسامح في جانب جيش الاسلام فضلاً على الاختلاط — ولا شك أن المغلوب يقلد الغالب — فحدث أن تأثر الناس بالفتح الاسلامي ، وقرأ آخرون عن الاسلام أو سألوا عنه، فأسلم كثيرون بعد أن رأوا أن هذه الفتوحات تمت بعون من الله سبحانه [١] وأن الله لم يجعل النصر إلا في أيدي عباده المختارين . فنحن نقول بأن الفتح كان عاملاً مهماً جداً ولكنه لم يكن كل العوامل ، وكان الكثير من علماء الاسلام والدعاة ينضمون إلى جيش الفتح الاسلامي،ثم ان سكنى بعض الفاتحين المناطق المفتوحة واختلاط الناس فيهم وكونهم قدوة عملية للإسلام أثر تأثيراً ملموساً . ولا حاجة للباحث أن يفتش عن مصادر لتأكيد رأيه ، فمن المسلمات به أن المسلمين كانوا يدعون الناس للإسلام وللدخول فيه .

وانتشر الاسلام كذلك بواسطة الخلطة الحاصلة من الزواج . فقد تزوج كثير من الفاتحين وغير الفاتحين من نساء غير مسلمات ، وأسلم كثير من هؤلاء النساء . كما أن الدعوة إلى الاسلام وسط أهاليهن والزواج ، يعتبر عـاملاً مهماً في إسلام كثير من الناس . فقد استعمل مع الجراكسة حيث تزوج أحد الضباط الأتراك واسمه فرح علي ابنة أحد البكوات الجراكسة وطلب من جنوده أن يتزوجوا الجركسيات ، فأسلم كثـير منهن وجذبن آباءهن وإخوانهن إلى الاسلام [٢] .

---

(١) Michael the Elder, op. cit. tom. 2, p. 412 – 413.

(٢) ارنولد ، الدعوة ص ٩١ .

وحدث هذا حتى بالنسبة للنساء المسلمات اللواتي تزوجن من غير المسلمين حين أخذن أسيرات خاصة بأيدي المغول ، لأن الظاهر أن المرأة شغلت مركزاً من مراكز الشرف والكرامة عندهم. فقد أثرت زوجة آوجايتو به فأعلن اسلامه[1] وهو زعيم مغولي . وإلى النساء يرجع الفضل في إسلام كثير من أمراء المغول ، ولا يبعد أن يكون مثل هذا التأثير سبباً في إسلام كثير من الأتراك الوثنيين عندما كانوا قد أغاروا على الأقطار الاسلامية [2] . ويروى أن تقدم الاسلام في بلاد الحبشة في النصف الاول من القرن قبل الماضي كان راجعاً الى حد كبير الى ما بذلته النساء المسلمات من جهود ، وخاصة نساء الأمراء المسيحيين ، الذين لم يكن بد أن يتظاهرن بالتحول الى المسيحية عندما يتزوجن ، ولكنهن نشأن أبناءهن على شعائر الاسلام وبذلن كل ما استطعن في سبيل تقدم ذلك الدين[3]. وباستطاعة الباحث جلب الكثير من الصور عن نشاط النساء المسلمات في الدعوة ودور الزواج ، وقد رأينا من دخل الاسلام من الاوربيين ، لأن المرأة المسلمة رفضت عرضه للزواج بها لأنه غير مسلم ، وبعد أن عرضت الاسلام عليه اعتنقه وتزوجها ، وهذا شيء ملحوظ وملموس الى يومنا الحاضر .

إن قوة إيمـان الشخص بدينه وتضحياته في سبيله لا تظهر إلا في المحن . وكانت المحن عاملاً في انتشار الاسلام . فبالوقت الذي كان فيه المسلمون الأوائل يعذبون على أيدي الكفار كان هناك رجال يتطلعون إلى هؤلاء الممتحنين الصابرين ، فما أن سنحت لهم الفرصة ورأوا ثبات هؤلاء المسلمين حتى آمنوا بهذا الدين . فإن عقيدة يعذَّب المؤمن من أجلها ويقتل وهو لا يغيرها لهي عقيدة حرية بالدراسة . والمحنة أثرت تأثيراً مباشراً أحياناً كما أثرت في حمزة بن عبد المطلب

---

(١) المصدر السابق ، ٢٠١ .
(٢) المصدر السابق ، ٣٤٣ .
(٣) المصدر السابق .

رضي الله عنه حتى حين سمع أن أبا جهل سبّ محمداً ﷺ وشتمه فأشهر إسلامه رأساً وانتقم من أبي جهل بأن شجّ رأسه [1] .

ولم يكن تأثير المحنة عندما يعذب الكافر المسلم ، بل حصل حتى عندما تكون المحنة بين المسلمين أنفسهم. يروي صاحب «وفيات الأعيان» أنه أسلم عند موت الامام احمد بن حنبل عشرون الف مسيحي ويهودي ومجوسي [2] . ثم ان المحنة تدفع الكثيرين من المكتوين بنارها الى ترك بلدانهم واللجوء الى بلدان أخرى . وقد رأينا تأثيرها في القرن العشرين في المجتمعات الاوربية والافريقية. وفي أمريكا حيث لجأ اليها بعض من امتحنوا في العالم الاسلامي. وبعد أن احتكّ الناس بالممتحنين ورأوا إخلاصهم لدينهم بدأوا في السؤال والقراءة عن هذا الدين فاعتنقوه بعد اقتناع به ورضى .

ولا بد للمرء أن يتكلم عن الهجرة ، والهجرة نوعان: الأول إلى دار الاسلام والثاني من دار الاسلام ، أما الهجرة إلى دار الاسلام فكانت معروفة في القديم. فقد كان العالم الاسلامي هو العالم المثقف المتحضر المتمدين آنذاك ، لذا فإن الناس يلجأون إليه من مختلف أقطار العالم للعمل [3] والدراسة وغير ذلك من أمور ، فما أن يسكن المهاجرون في دار الاسلام حتى يتم التأثير . والتدليل على سرعة التأثر نريد إيراد ما أورده أرنولد [4] يقول : « وكان السفراء — ويقصد المسيحيين وغيرهم — في القسطنطينية لا يأمنون في أي يوم ينصرف عنهم أفراد

---

(١) ابن هشام ، سيرة ١ / ٣١١ — ٣١٢ .
(٢) ابن خلكان ، باريس ١٨٤٣ — ١٨٧١ ، ١ / ٤٥ .
(٣) انظر ارنولد ، الدعوة ، ص ١٥٥ للهجرة الى تركيا ، ١٧٧ للهجرة الى مصر .
(٤) المصدر السابق ١٥٤ .

حاشيتهم ويدخلون الاسلام » . قلنا ان التأثر كان قوياً وسريعاً . فيسلم بعض المهاجرين ، ونستطيع القول بأنه في الجيل الثالث أو الرابع للمهاجرين، لا يبقى من يدين بدين قومه منهم إلا الفقير اليسير ، والهجرات موجودة حتى العهـــد القريب إلى مصر وشمال افريقيا .

أمـــا الهجرة من دار الاسلام ، إلى دار الحرب ، فقد حدثت قريباً بعد أن تقدم الغرب علينا فحصلت هجرة إلى أمريكا وبعض بلدان أوربية وإن أردنا أن نكون على شيء من الواقع وأن نعترف بالحقيقة ، نقول ان المسلمين يؤثرون فيمن سواهم ، ففي انجلترا مثلاً جـــالية إسلامية كبيرة ، والمسلمون في إنجلترا أكبر أقلية غير مسيحية فيها.فالجيل الأول أثر تأثيراً لا بأس به بواسطة الاحتكاك والتزوج والتصرف الشخصي . ولكن ولتجربتي الشخصية مع الجيل الثاني أقول أنه يخشى على الجيل الثالث الكفر ، فقـــد اجتمعت مرة بقرابة العشرين شاباً مسلماً في اكسفورد وكانوا من الباكستانيين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة وسألتهم عن الاسلام فقـــام أحدهم وقال الثالوث الاسلامي : الله ، محمد ابن الله ، القرآن روح الله. وسألتهم عن الشهادة فلم يكن يعرفها أحد ويعمل الآن بعض الشباب المؤمن على تثقيفهم . ولكن هناك مناطق في أمريكا وجنوبها قد أصبح الجيل الثالث فيها مسيحياً مع الأسف .

فالهجرة في الواقع ذات حدين وواجبنـــا أن ننبه الآن بالذات على إرسال الدعاة للمهاجرين يطوفون عليهم ويعاونون في بناء جيل إسلامي قوي بينهم ، فلا أغالي إن قلت ربما تجد ألف شخص لم يختم أحدهم القرآن ، ولا يجيد قراءته منهم ، وهم من الطبقات العمالية التي لا ثقافة إسلامية لها ، ثم إن هناك الحاجز اللغوي ، فالأب يجيد لغتـه الأصلية بينما يتكلم الابن لغة البلد المهاجر اليه .

ونعود الآن إلى نقطة أخرى جـــاءت في آثار الكثير من الغربيين ، وهم يدعون بأن الكثير ممن أسلموا أسلموا للتهرب من الجزية كما ذكر أعلاه في وثيقة

البطريك . ولا حاجة لأن يناقض الباحث هـذه الفكرة ، فالجزية التي فرضها المسلمون على أهل الكتاب ما كانت إلا كضريبة لاعفائهم من الخدمة العسكرية الاجبارية ثم إن الجزية فرضت على القادرين من الذكور فقط وكانت الجماعات التي تدخل في خدمة الجيش الاسلامي من أهل الكتاب تعفى من الجزية . فقـد أعفي أهالي رومانيا الجنوبية من الجزية لاشتراكهم في الجيش التركي . وكذا الاغريق [(١)] ولم يكن الاعفـاء بالنسبة للخدمة العسكرية فقط ، يقول سمث : « إن النصارى الاغريق الذين أشرفوا على القناطر التي أمدت القسطنطينية بماء الشرب أعفوا من الجزية » [(٢)] .

ولا ننسى تصرفات المسلمين العادلة حين أعاد أبو عبيدة رضي الله عنه الجزية لأهل الكتاب قائلاً : (إنمـــا رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وإنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وإنا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم) . فدعا أهل الذمة قائلين : ردكم الله علينا ، ونصركم على الروم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً ، وأخذوا كل شيء بقي لنا [(٣)] .

وها هو سير توماس يقول : (لكن هـذه الجزية كانت من البساطة بحيث لم تثقل كاهلهم) [(٤)] .

---

(١) ارنولد ، الدعوة .

(٢) Thomas Smith, Remarks upon the Manners, Religion and Government of the Turks, London, p. 324.

(٣) ابو يوسف ، كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٠٢ هـ ، ٨١ .

(٤) الدعوة للاسلام ، ٥٧ .

ثم ان الجزية فرضت حتى على من أسلم في عهد الأمويين . لذا فما أمر الجزية إلا حجة أرادها بعض الكتاب والباحثين ، كسبب من أسباب انتشار الاسلام ، ولا يقوم الأمر على دليل .

وصل الجيش الاسلامي الى مناطق عديدة ، ولكن بلداناً أخرى لم يصلها جيش الاسلام بل وصلها التجار المسلمون، وكان هؤلاء التجار لا يحملون بضائعهم معهم فقط، بل كانوا قدوة عملية حقيقية وأناساً آمنوا بهذا الدين وأرادوا نشره. وكان بعضهم يبقى في الموانىء والمدن التي يسافر اليها الزمن الطويل، وربما تزوج من أهل هـذه المدن . ونرى أثر التجار المسلمين في نشر الاسلام في الشرق الاقصى [1] وكذا في افريقيا [2] .

ولا يخفى على الباحث أهمية الرحلات التجارية ، وأهمية التجار ، ولا ننسى التاريخ الحديث وكيف أن شركة الهندالشرقية كانت بداية الاستعمار البريطاني. فالتاجر يؤثر على البلد الذي يدخله ويكوّن علاقـات جيدة مع الحكام الذين يأملون منه أن يعمل لمصلحة البلد نفسه ، وبعـد أن يستقر التجار أو يصلون يمكن أن يُعدّ التجار بعثات استطلاعية ، يدخل البلد فوج من المعلمين والفقهاء والمتصوفين .

وليس باستطاعة باحث أن ينكر تأثير الصوفية في مناطق عدة في العـالم ،

---

(١) د . قيصر أديب مخول، «الاسلام في الشرق الأقصى»، تعريب د. نبيل صبحي، بيروت ١٩٦٦ م . انظر مناقشة النظرية التجارية ، ص ٣٤ - ٥٥ .

(٢) د . حسن ابراهيم حسن ، « انتشار الاسلام في افريقيا » ، القاهرة ١٩٦٤ م ٧٣٠ .

فالطرق الصوفية من قادرية وتيجانية وسنوسية قد أثرت في افريقيا (١) ، ولا زالت تؤثر لحد اليوم في اوربا حيث تتسلط المادة على كل شيء ، ترى روحانية الصوفية تجلب الكثير من الاوربيين للدخول في الاسلام والانضمام الى طريقة الشيخ المؤثر . وقد كانت الطرق الصوفية تقوم بحركات منظمة دائمة من فتح المساجد وأربطة وتكايا. كما واستعمل السنوسيون طريقة فريدة فقد كانوا يشترون العبيد ويعلمونهم في جغبوب ثم يعتقونهم ، ويعيدونهم الى أوطانهم لينشروا الاسلام (٢) .

وبمناسبة ذكر هذه الطريقة فقد قام المسلمون في الصين بشراء الأطفال في أيام المجاعات وإنشاؤهم على الاسلام. وقد قاموا عام ١٩٠٠ م. بشراء أطفال المسلمين الذين قتلهم الملاكمون Boxers (٣) . وحدث نفس الشيء في البنغال ، فقد اشترى المسلمون أطفال غير المسلمين أيام القحط والمجاعات (٤) .

هذه في الواقع أمور عرضت بعجالة ولكن الامر الذي يراه الباحث مهماً لا لكونه مسلماً ومن أبوين مسلمين فقط ، بل لواقعيته وحقيقته ، هذا الأمر يكن في الاسلام نفسه في قوة هذا الدين وبساطته ، في حيويته ومطابقته للعقل .

إن نظام المساواة فيه وعدم التفرقة بين جنس وجنس وقومية واخرى وجعل الاسلام الناس سواسية كأسنان المشط ، قد أثر في الهند في الطبقات

---

(١) المصدر السابق ، ٤٢ – ٤٩ .
(٢) المصدر السابق ٤٩ – وأرنولد ، الدعوة ٢٨١ – ٢٨٢ .
(٣) أرنولد ، الدعوة ٢٦١ .
(٤) Stewart, The History of the Bengal, London 1813, p. 176.

المنبوذة فجعلها تنشد مساواة الاسلام فتنعم بــه لترتفع من طبقة هي أحقر من الحيوانات الى طبقة بشرية وإنسانية تؤمن بالاسلام لتنعم بالاخوة الحقيقية وهذه المساواة نفسها جعلت السود يهرعون الى الاسلام . فالاسلام لا يعرف اللون ، ومساجد الاسلام عامة ليس هناك مسجد للبيض وآخر للسود ولا واحد للعرب وآخر للعجم .

ان لطف الله الخفي يحيط بهذا الدين فها هي الخلافة الاسلامية تنكب بغزو لم يحدث مثله في تاريخ الامم . وهاك ابن الأثير وما يقوله عن هذا الغزو : (لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم اليه رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً،الى أن حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً ، فنقول هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبةالكبرى التي عقمت الايام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق وخصّت المسلمين ، فلو قال قائل منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم والى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقابلها وما يدانيها ، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني اسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس ؟ وما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا ؟ فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني اسرائيل ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة) (١) .

---

(١) ابن الأثير (الكامل في التاريخ) ، ليدن ١٨٥١ – ١٨٧٦ ، ١٢ : ٢٤٣–٢٤٤ .

لقد نكبت الخلافة الاسلامية ببخارى وسمرقند، ثم ببغداد ، فحطم المغول أكثر العواصم العلمية والثقافية لدنيا الاسلام ، ويكاد المغول أن يجتاحوا العالم الاسلامي ، وتهلل الصليبية ويفرح الكفر ، لكن الله الذي وعد في كتابه العظيم أن يحفظ هذا الدين فقال : (إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون) [1] .

فبعد أن عاثوا فساداً وقتلوا الآلاف من المسلمين ، ففي مدينة هراة لم ينج سوى أربعين من عدد السكان الذي كان يزيد على مائة الف . فيعجب هؤلاء البرابرة في الاسلام فيسلم بعضهم ، ويسلم بركة خان زعيم القبيلة الذهبية ، ويسلم غيره من المغول، وأخيراً تتحول السيوف التي حصدت رقاب المسلمين الى سيوف مدافعة عن الاسلام .

من يستطيع أن يعطي سبباً مادياً سوى اختيار الله سبحانه وقوة هذا الدين العظيم الذي وجد ليبقى الى يوم القيامة .

وها هي افريقيا: لقد كتب بعض الغربيين الكتب العلمية والأبحاث المدروسة التي قضوا فيها أعمارهم عن انتشار الاسلام ، واستعمل الغرب كل الطرق التي ظنوا الاسلام انتشر بها، أرسلوا التجار والأطباء والشركات ، علموا الافريقين ، اشتروا الاطفال ، أرسلوا القسس ومعهم الملايين ، ومع هذا فان الاسلام ينتشر أكثر ، وان تجاوب الناس للاسلام أكثر من المسيحية رغم أنهم أباحوا تعدُّد الزوجات للنصارى الافريقيين ، وجعلوا العبادة بالأغاني المحلية للأفريقيين .

إننا لم نقم بما علينا من واجب تجاه الاسلام في افريقيا ، فالاسلام ينتشر في

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

قوته وفي العمل غير المنظم ، فهناك يعمل الاسماعيليون والقاديانيون والأحمديون على أنهم مسلمين وهم معروفون بضلالهم .

وقد بلغني من مصدر موثوق أن اسرائيل أرسلت دعاة مبشرين يخطبون في المسلمين في افريقيا الغربية ، بالطبع تهدف إسرائيل منفعة كبرى من خلف هذا، والقول عنها بأنها غير متعصبة ، ولسنا في مناقشة هـذا الأمر لكنه خبر أردت إيراده .

مع كل عدم التنظيم ، ورغم الملايين المبذولة من الغرب ورغم كل شيء ، نرى الأفريقيين يعلنون إسلامهم ، إنها عناية الله ، إنها عناية الله ، إنها عناية الله .

وها هو الاسلام يغزو أمريكا بواسطة المسلمين السود ، وعلينا أن نعمل على تصحيح إسلام اولئك . إن المسلمين اليوم بحاجة الى تطبيق الاسلام تطبيقاً كلياً، بحاجة الى الاخلاص في العمل من أجله ومن أجل نشره ، فإن في الاسلام سراً لا ندركه نحن لأننا تعودنا عليه . ها هو رينان، وهو غير مسلم ، يصف مشاهدة له قد تبدو لنا غريبة يقول : (ما دخلت مسجداً قط دون أن تهزني عاطفة حادة أو بعبارة أخرى دون أن يصيبني أسف محقق على أنني لم أكن مسلماً) (١) .

---

(١) E. Renan, L'Islamisme et la Science, Paris 1883, p. 19.
الترجمة من ارنولد ، الدعوة ٣٤٩ .

وها هو أحد اليهود الذين أعلنوا إسلامهم عـام (١٢٩٨) هـ. يتحدث عن مشهد صلاة الجمعة الذي يعتبر عادياً بالنسبة لنا: (وعندما دخلت المسجد رأيت المسلمين يقفون صفوفاً كأنهم الملائكة ، سمعت هاتفاً يقول هذه هي الجماعة الـتي أخبر الأنبياء صلوات الله عليهم بقدومها ، ولما ظهر الخطيب استولى عليّ شعور عميق من الرهبة ، ولـمـا ختم خطبته بالكلمات (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون)، ولما بدأت الصلاة،أحسست بقوة تدفعني الى النهوض لأن صفوف المسلمين بدأت أمامي كأنها صفوف الملائكة الذين يتجلى الله القدير في سجداتهم وركعاتهم ، ثم سمعت هاتفاً يهتف بي اذا كان الله قد تحدث الى بني اسرائيل مرتين في كل العصور فانه يتحدث الى هذه الجماعة في كل وقت من أوقات الصلاة ، وأيقنت في نفسي أني خلقت لأكون مسلماً)[1] .

إن عظمة هذا الدين تتجلى للعيان، تتجلى لأولئك الذين يعتنقونه كل يوم رغم ما في بلدان الاسلام من ضعف .

أيها الاخوة الأحبة : إنني أقولها لكم صريحة ، وقد رأيتها بعيني ، إن حضارة الغرب تحتضر والعالم بحاجة الى روحانية ، ولا توجد هذه الروحانية في اليهودية ولا في المسيحية ولا أية ديانة أخرى . إن العـالم بحاجة الى روحانية

---

(١) ارنولد ، الدعوة ٣٤٨ .

الاسلام، الى رسالة محمد ﷺ بحاجة الى الاسلام كي يستقر وتنتهي مشاكله الخلقية والاجتماعية والحضارية .

إن العالم بانتظار شباب الاسلام وجنده العاملين ، وسترون لو أن الدعاة خرجوا منظمين عاملين ، إن العالم سيؤمن وسيردد خلفنا : (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) .

والسلام عليكم



بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام والسلام

فضيلة الشيخ ابراهيم فطاني

الحمد لله الذي هدانا للاسلام . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وأكرمنا بجوار بيته الحرام . وما كنا لنجاور لولا أن أكرمنا الله . والصلاة والسلام على نبيه خير الأنام . الذي اختاره لختام رسالته واصطفاه . سيدنا محمد خير من دعا الى السلام . وعلى آله وأصحابه ومن والاه .

وبعد ، فقد اقترحت على رابطة العالم الاسلامي التي حمدنا جهودها العظيمة ، وأعمالها المجيدة ، وما قدمته من خدمات جليلة للاسلام والمسلمين ، فكانت خير ندوة ، في خير بلد وأشرف رقعة ، أقول : اقترحت على أن يكون موضوع محاضرتي هذه الليلة (الاسلام والسلام) لما له من أهميه عظمى في إظهار مزايا هذا الدين القويم ، وشرح مبدأ من أهم مبادئه ، فرأيت لزاماً عليَّ أن أستجيب لاقتراح الرابطة السديد . وإن كنت قد ألممت بهذا الموضوع في محاضرة سابقة ،

وتناولته بشيء من التفصيل لأن في التكرير وتنويع التعبير والتوسع في التفصيل، مع ما يتبع ذلك من استطرادات وتمهيدات، فوائد جمة لا تكاد تخفى، على أن العود لا شك أحمد، والتفصيل بعد الاجمال أجود، والإسهاب حيث يطلب الإسهاب أجود وأجود.

الاسلام

هو الدين الحق الذي بعث به رب العالمين نبيه محمداً ﷺ الى الخلق أجمعين وفضّله على سائر الأنبياء والمرسلين، ونسخ بدينه هذا كل الأديان، وأظهره على الدين كله بنص القرآن، فقال تعالى في محكم التبيان (هُوَ الذي أرسلَ رسولهُ بالهُدى ودينِ الحقّ ليُظهِرَهُ على الدينِ كُلّهِ ولوْ كَرِهَ المشْرِكون) وهو الدين الذي ارتضاه، ولا يقبل من عباده سواه، وقد أتم به النعمة، وجعل أمته خير أمة. فقال في محكم كتابه المبين (وَمَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلام ديناً فلَنْ يُقبَلَ مِنهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ منَ الخاسرين). وقال أيضاً ولم يزل قائلاً عليماً (اليومَ أكملتُ لكمْ دينَكم وأتممْتُ عليكم نعمتي وَرضيتُ لكم الاسلامَ ديناً). وقال أيضاً في سورة آل عمران لأمة محمد عليه الصلاة والسلام (كُنتمْ خيرَ أمةٍ أخرِجَتْ للناسِ. تأمرونَ بالمعروف. وتنهوْنَ عنِ المنكَرِ وتُؤْمِنونَ بالله). وهو دين كريم وضّح المولى جل وعلا معالمه، وأبان تعاليمه في كتابه العزيز الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ لهداية الناس، وإخراجهم من الظلمات الى النور، وإرشادهم الى الطريق المستقيم كما قال في كتابه المجيد (كتابٌ أنزلناه اليكَ لتُخرج الناسَ من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد) فبين فيه الحلال والحرام، وسائر الأحكام، ودعا فيه الى التوحيد الخالص، والإيمان الكامل، والاسلام والإحسان، والى مجامع الخير والفضائل، ونهى فيه عن الشر وجميع الرذائل وشرع فيه من النظم

والقوانين ، والمثل العليا ، والمبادىء الفضلى ما يكفل العزة والسعادة لمتبعيه ، في الدنيا والآخرة ، وكان من أهم مبادئه التي يدعو اليها ، ويحث عليها ، ويرغب فيها السلام .

الاسلام والسلام

وكم هو حسن جميل ، ومعبر ألطف تعبير عن حب الاسلام للسلام أن يكون اشتقاقهما من مادة واحدة وأن يشتركا في المعنى ، وأن تجعل تحية المسلمين فيما بينهم السلام ، وأن يؤمروا برده ، ويطالبوا بإفشائه لتتشرب به نفوسهم ، وتطمئن بسماعه قلوبهم ، فإنه يشير الى السلامة والأمان ، والمحبة والاطمئنان . والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وأمنوا من مكره ومكائده ، قال تعالى في محكم كتابه المبين (وإذا حُيِّيتم بتحيةٍ فَحَيُّوا بأحسنَ منها أوْ رُدُّوها إنَّ اللهَ كانَ على كلِّ شيءٍ حسيباً) . وقال رسول الله ﷺ : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا . ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ افشوا السلام بينكم » . رواه مسلم رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، وروى الشيخان في صحيحيهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : أي الاسلام خير ؟ قال : « تطعم الطعام وتقرىء السلام على من عرفت ومن لم تعرف ». ولا يخفى أيها السادة أن النبي ﷺ حين مارس دعوته ، وبلّغ الناس رسالته ، بدأها أول ما بدأ بالطرق السلمية بالتبشير والانذار، والتخويف والتحذير. وبالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن كما أمره الله سبحانه وتعالى بنص خطابه : فقال له في محكم كتابه (ادعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحِكمةِ والموعظةِ الحسنةِ

وجادِلهُم بالتي هي أحسَنُ إنَّ رَبّكَ هوَ أعْلمُ بمَنْ ضَلَّ عنْ سبيلهِ وهوَ أعلمُ بالمهْتدين) . وقال أيضاً في سورة فصلت (ومَنْ أحسنُ قولاً ممَّن دعا إلى اللهِ وعمِلَ صالحاً وقالَ إنني منَ المسلمينَ ولا تستوي الحسَنَةُ ولا السيِّئةُ ، ادْفعْ بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينكَ وبينهُ عداوةٌ كأنهُ وليٌّ حميم ، وما يُلقَّاها إلا الذينَ صبروا ، وما يُلقَّاها إلا ذُو حظٍّ عظيم) . وهكذا ظل رسول الله ﷺ يدعو الى الاسلام في ثقة وعزم . مسالماً غير مستسلم، ثابتاً غير محجم، صابراً على الإيذاء، وعلى كل قسوة واعتداء، وتعنت واستهزاء، يقابل السيئة من قومه بالحسنة، والغلظة منهم بالرفق واللين، والاستهزاء بالحلم وسعة الصدر متحملاً في سبيل هذه الدعوة الخيرة من المكاره والشدائد ما لا يتحمله أحد من البشر إلا أولو العزم من الرسل وهو مع كل ذلك لم يقنط من إيمانهم ، ولم ييأس من استجابتهم، ولم ينثن عن دعوتهم ، ولم يتهاون أو يتساهل فيها ، ولم يطلب لنفسه الانتقام حتى في أحنك الساعات ، وأشدها ضراوة وقسوة مع قدرته على الانتقام في تلك الساعات العصيبة. روى الشيخان رحمها الله تعالى في صحيحيها عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيته منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبني الى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي وإذا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فناداني فقال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربي اليك لتأمرني بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ، فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من

أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ، وهـــذا لعمر الله منتهى الحلم ومكارم الأخلاق . واستمر رسول الله ﷺ على دعوته هــذه بالحسنى . وبعزيمة ثابتة وإصرار على الحق قوي ، وصمود دونه كل صمود . لا يخشى أحداً إلا الله ولا يعتمد على سواه . حتى قال لعمه أبي طالب ، حينما طلب اليه أن يكف عن دعوته حرصاً على سلامته وسلامة عشيرته ، كلمته الصريحة القوية التي خلدها التاريخ . فكانت قبساً وهاجاً ينير الطريق للدعاة ، ويعلمهم كيف يكون الثبات على المبدأ : « يا عمي والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هــذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . ولم يزل ﷺ مستمراً في دعوته بالحسنى زهاء ثلاث عشرة سنة حتى أذن له سبحانه وتعالى بالهجرة الى المدينة المنورة . بعد أن آمن به جمع من أهلها . وطلبوا منه التوجه اليهم والمقام فيهم ، وعاهدوه على النصرة والدفاع ، ورفع راية الحق . فهاجر اليهم صلوات الله وسلامه عليه يصحبه صاحبه الاول وخليفته الاول أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه . فلما وصل اليهم ، واستقر بينهم ، كان أول عمل بدأ بــه هو نشر الاسلام في ربوع المدينة المنورة فآخا بين المهاجرين والأنصار ، وجمع كلمة الأوس والخزرج، وأزال ما كان بينهم من ضغائن وأحقاد، ومنازعات وحروب . فأصبحوا بحسن سياسته ، وبتوفيق الله وعنايته ، إخواناً متسالمين بعد أن كانوا أعداء متقاتلين . قــال تعالى في كتابه العزيز في معرض التذكير ، والامتنان (واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذْ كنتُمْ أعـداءً فألَّف بين قلوبِـكم فأصبحتم بنعْمته إخواناً وكنتم على شفا حُفرةٍ من النَّار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) .

وهكذا نشر النبي ﷺ الاسلام والسلام بين أهل المدينة المنورة ، ولم يسفك في ذلك قطرة من دم . حتى إذا استتب الأمر وشاع الإسلام وعم السلام أمر

الحق جلت قدرته بالجهاد في سبيله لإعلاء كلمته وتعميم شريعته ونشر تعاليمه وبث مبادئه ، ولردع الكافرين وكسر شوكة المتآمرين وقهر المنكرين والمكابرين الذين لا تجدي فيهم المناظرة ولا تؤثر فيهم الموعظة ولا ينقادون للحق إلا إذا أطِروا عليه أطْراً وأرغموا عليه إرغاماً .

(الجهاد والسلام)

كان فرض الجهاد على المسلمين فرض كفاية بعد الهجرة بنحو سنة . وأما قبل ذلك فقد كان النبي ﷺ مأموراً بالتبليغ والانذار والتبشير والدعوة بالطرق السلمية . ومما يدل على أن الجهاد فرض كفاية لا فرض عين قوله تعالى في كتابه العزيز (لا يَسْتوي القاعِدونَ مِنَ المؤمنين غيرُ أولي الضَّرر والمجاهدونَ في سبيل الله بأموالهمْ وأنفسهم . فضَّل اللهُ المجـاهدينَ بأموالهم وأنفسهم على القاعدين دَرَجة . وكلاً وعَدَ اللهُ الحسنى . وفضَّل اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً . دَرَجاتٍ منهُ ومغفِرةً ورَحمـةً وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً) . فقد وعد الحق جلت قدرته كلا من الطرفين بالحسنى ، فلو كان الجهاد فرض عين لا فرض كفاية لكان القاعدون آثمين ، والآثم لا يستحق الوعد بالحسنى .

والأصل في مشروعية الجهاد قبل الاجماع على فرضيته آيات من كتاب الله عز وجل منها قوله تعالى (كُتبَ عليكمُ القتالُ وهُو كُرْهٌ لكم ، وعسى أنْ تكرَهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ، وعَسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم ، واللهُ يعلمُ وأنتم لا تعلمون) وأحاديث نبوية كثيرة ، منهـا قوله ﷺ « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » رواه أبو داود رحمه الله تعالى عن أنس رضي الله تعالى عنه . والجهاد في سبيل الله بالأنفس يكون بالاشتباك مع

الأعداء في القتـــال والصبر والثبات وعدم الفرار . وبالمرابطة على الحدود ، والمصابرة عند الثغور لحمايتها وصد الأعداء عن اقتحامها . والجهاد بالأموال يكون ببذلهـا في تجهيز الغازين وإعانة المجاهدين ، بالانفاق على أهلهم وعلى أسرهم ، وبشراء الأسلحة والمؤن والمعدات وكل ما يلزم للجهـــاد ويساعد عليه . والجهـــاد بالألسن يتحقق بتحميس المجاهدين وتحريضهم على القتال ، وحثهم على الصبر والثبات بالخطب والمواعظ والأشعار التي تقوي الروح المعنوية فيهم ، وتلهب قلوبهم بالحمـاسة لنصرة دينه وإعزاز كلمته ، والتي تثبط الأعداء وترجفهم وتدخل الهلع في نفوسهم والذعر في صفوفهم . كما يتحقق أيضاً بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة وبكشف شبهات المضللين وبإظهار مزايا هـــذا الدين ونشر مبادئه في العالمين ، وشرع الجهاد لاعلاء كلمة الله ونشر دينه ومبادئه ، وحمايته من أعـدائه والمتربصين به والخارجين عليه . روى الشيخان رحمها الله تعالى في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعـالى عنه أن اعرابياً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، وفي رواية يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، وفي رواية يقاتل غضباً ، فمن في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». وهذا لا ينافي السلام بل يؤيده ويدعمه ، وينشره ويعممه . ولهـــذا لم يناجز رسول الله ﷺ ولا خلفاؤه من بعده قوماً من أهل الكتاب إلا بعد أن يخيروهم بين ثلاثة أمور : الأمر الأول دعوتهم إلى الإسلام والدخول فيه فإن أجابوا إلى ذلك ورضوا به كففنا عنهم ،وحل الأمن والسلام في ربوعهم ، وكان لهم ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات ، فإن أبوا ذلك وأصروا على العناد فالأمر الثاني وهو مطالبتهم بالجزية ودفعها للمسلمين ، فإن رضوا بها واستعدوا لدفعها ، وجب الكف عن قتالهم ، وقبولها منهم وتركهم في أوطانهم

وعدم التعرض لأديانهم ، وبذلك يتحقق السلام ويختفي شبح الحرب . فإن لم يقبلوا هذه ولا تلك فالقتال واجب لكسر شوكتهم والأمن من شرهم وعدوانهم ولتحقيق السلام بالقوة في كنف الإسلام المنيع . وبهذا كان يوصي النبي ﷺ سراياه وقواد جيوشه التي كان يبعثها للجهاد . وبهذا أيضاً كان يوصي خلفاؤه من بعده أمراء جنودهم ، ويأمرونهم ويؤكدون عليهم ، تأسياً به ﷺ . وامتثالاً لأمره . فقد أخرج مسلم والترمذي وابن ماجه وأبو داود واللفظ له من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوصاه بتقوى الله في نفسه وبمن معه من المسلمين خيراً وقال : «إذا لقيت أعداءك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال فأيها ما أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم : أدعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين واعلمهم أنهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم ، وإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم . الحديث .

دفع الجزية وأثره في الحفاظ على السلام

قال تعالى في محكم كتابه المبين مخاطباً عباده المؤمنين : (قاتِلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليومِ الآخرِ ولا يحَرِّمونَ مــا حَرَّمَ اللهُ ورسولُه ولا يدينون دينَ الحقِّ من الذين أُوتوا الكتــابَ حتى يُعطُوا الجِزْيَةَ عن

يَدٍ وهمْ صاغِرون) . فقــد أمر المولى جلـّـت حكمته بقتال أهل الكتاب ، ورخص لنا في أخذ الجزية منهم وترك قتالهم اذا هم اختاروها بدلاً عن الحرب ، لما في ذلك من أثر بعيــد في تعزيز قوة الإسلام والمحافظة على السلام . فإن ممـــا لا شك فيه أيها السادة الكرام، أن في أخذ الجزية منهم وفرضها عليهم كل سنة ، وإجبارهم على دفعها في الوقت المحدد له ، وبالقدر الذي يتم الاتفاق عليه توهيناً لهم ، وكسراً لشوكتهم ومعنوياتهم وإضعافاً لاقتصادهم ، كما أن فيـــه تقوية للمؤمنين ورفعاً لروحهم المعنوية ولمستوى معيشتهم وتدعيماً لاقتصادهم. ولا ريب أن قوة الاقتصاد في أمة دليل على قوتها ومنعتها، وأساس متين لعزتها وكرامتها، وتنمية لمواردها وجمع إمكانياتها ، إذ به تستطيع ان ترفـّه عن شعبها ، وترفع من مستواه المعيشي والصحي والعلمي والثقـــافي والأدبي ، بإنشاء المدارس والكليات ، وتشييد الجامعات وبنـــاء المستشفيات وفتح النوادي والملاجىء ومكاتب الضمانات ، وتخصيص المبالغ الكافية لإدارتها وتوفير جميـع حاجياتها ، لتؤدي جميعها ما يطلب منها على أكمل وجه وأحسنه . ومن هنا كانت عنـــاية الدول والحكومات باقتصادها، وحرصها على سلامته، وسعيها الحثيث المتواصل لتدعيمه بشتى الوسائل ، متبعة في ذلك ما تراه من أنجع الطرق وأفضل السبل.

وقد عُني الإسلام بالاقتصاد عنــاية كبرى لم تتوفر في أي دين سواه من الأديان ، فدعا الى التجــارة وحثّ عليها ، وإلى استثمار رؤوس الأموال بالتعاون على استثمارها ، وإلى تكثير الأيدي العاملة وتهيئة الفرص للعاملين ، فشرّع القراض والشركة والمساقاة ونحوها ، ووضع لها أنظمة خاصة سليمة تكفل لها النجاح ، وتحقق لهــا الربح وتبعدها عن الربا . وحث على الزراعة والصناعة والتكسب ولو بالاحتطاب . كما دعـــا الى الاقتصاد في النفقات وإلى كل ما له أثر في تدعيم الاقتصاد وتقويته . ومن هنا نهى عن البطالة والتسوُّل والإسراف والتبذير ، لما لها من تأثير على الاقتصاد وفي إرهاقه .

وبالاقتصاد القوي أيها السادة تتمكن الأمة من الإعداد والاستعداد وتحصين الحدود وتقوية النفوذ ، وتوفير أسباب القوة الدفـــاعية والهجومية التي تخيف الأعداء وتحول بينهم وبين الاعتداء وتحملهم على المهادنة ، وبذلك يتحقق السلام وترسخ قواعده .

الاسلام يأمر باعداد القوة للمحافظة على السلام :

لما دعا الإسلام المسلمين الى الجهاد في سبيله ، وأمرهم به في كتابه وحثهم عليه إعلاءً لكلمة الله تعالى وبثاً لتعاليمه ومبادئه ، أمرهم بإعداد القوة اللازمة التي تمكنهم من الجهاد وتحقق لهم النصر والفوز وتدفع عنهم شر الهزيمة ، فقال تعالى في محكم كتابه المبين : (وأعِدُّوا لهم ما استطعتمْ من قُوَّةٍ ومن رِباط الخيْلِ تُرْهِبُون بهِ عَـــدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكم وآخرينَ من دُونِهم لا تعْلمونَهُم اللهُ يعْلَمُهم ومـا تُنفِقوا من شيءٍ في سبيلِ اللهِ يُوَفَّ إليْكمْ وأنتُمْ لا تُظلَمُون) . وقد سبق لي أن شرحت هذه الآية الكريمة شرحاً وافياً مفصّلاً وبأسلوب مبسّط في محاضرة سابقـــة نُشرت في ندوة المحاضرات للرابطة لعام ١٣٨٨ هـ . وهي المحاضرة التي نوّهت عنها وأشرت اليها في المقدمة ، فليرجع اليها هناك مَن أرادها .

والذي نريد أن نقرره هنـــا لعلاقته بموضوعنا وارتباطنا به أن في التعبير بلفظ القوة في الآية الكريمة ، دون التصريح بالأسلحة الموجودة والمعروفة في عصر التنزيل من سيوف ورماح وما اليها ، إشعاراً بأنها تتطور بتطور الأزمان. وقد شاهدنا هذا التطور وتتبّعناه في جميع مراحله ، حتى وصل بنا الى هـــذه الأسلحة الإلكترونية المعقـدة وإلى قنابل الذرّة والهيدروجين وإلى الصواريخ

الموجهة وعابرات القارات الجبارة وحاملات الأقمار الصناعية ... ولا ندري ماذا سيستحدث بعدها وإلى أين ينتهي هذا التطور الذي يهدد البشرية والحضارة الإنسانية بالهلاك والتدمير ويقضي على الغالب والمغلوب ، مما جعل العالم كله يخشى الحرب ويتلمّس الطريق الى السلم .

فالمطلوب من المؤمنين إذاً بهذه الآية الكريمة : مجاراة هذا التطور وإعداد كل ما يستطيعون من هذه الأسلحة المتطورة لكي يرهبوا بها الأعداء . ومعلوم أنها لا تكون مرهبة لهم إلا اذا كانت فوق قوتهم وأعظم منها . ثم في التعليل بقوله تعالى (تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكم) إشارة الى أن المقصود الأهم من هذا الإعداد هو الإرهاب من الحرب لا نفس الحرب. وإلا لقال مثلاً : تقاتلون عدو الله وعدوكم . والإرهاب لا شك من أهم عوامل النصر . قال رسول الله ﷺ : « نُصرت بالرعب مسيرة شهر ». كما انه من أهم دوافع السلم. إذاً فالهدف النبيل الذي يرمي اليه الإسلام من وراء هذا الإرهاب هو السلم ، لأن الإرهاب يحمل الأعداء على ترك الحرب، ويلجئهم الى طلب الصلح والمهادنة . ولهذا عقب الآية مباشرة بقوله : (وإنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ فاجنَحْ لها وتوكَّلْ على الله) . إذ المعنى وإن مالوا الى السلم بعد هذا الإعداد المرهب وطلبوه منك فسالمهم واقبل الصلح منهم والمهادنة معهم . وتوكل على الله واعتمد عليه ، أي أعد وسالم وتوكل .

ومن هنا قال رسول الله ﷺ : « اعقلها وتوكل » . ويؤكد هذا المعنى ويوضحه قوله تعالى بعده متصلاً وبدون فاصل (وإن يُريدوا أن يَخْدَعُوكَ فإنَّ حَسْبَكَ اللهُ هو الذي أيَّدَكَ بنَصْرِهِ وبالمؤمنين وألَّفَ بين قلوبهم) ، فإن تفسير الآية : وإن يريدوا بجنوحهم للسلم وطلبهم الهدنة مخادعتك مُسِرِّين

ذلك الخداع في نفوسهم فسالمهم أيضاً ولا تخش منهم ، فإن الله سبحانه وتعالى القوي القادر سيكفيك خداعهم ويردّ كيدهم في نحرهم ، فهو الذي أيّدك بنصره بدون واسطة وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم وقد كانت متنافرة ، وأزال ما كان بها من أحقاد وضغائن . وفيه إيماء لطيف الى أن هذا الخداع لا يضرّ بالمؤمنين ما داموا محتفظين بهذه القوة المرهبة ومالكين زمام المبادرة ومتهيئين للقتال في أية لحظة ومتذرعين بالحذر واليقظة ، وما داموا محافظين على وحدتهم ثابتين على تضامنهم وتآلفهم ، معتمدين بعد كل ذلك على ربهم ، متوكلين عليه ، فهو الذي يؤيدهم بنصره ما داموا متمسكين بحبله ، منفذين لأمره . ومن هنا أخذ بعض المفكرين قولهم المشهور « الاستعداد للحرب يمنع الحرب » .

ولا يتم أيها السادة هذا الإرهاب المطلوب إلا باستعراض هذه القوة المرهبة ، والتلويح بها في أوجه الأعداء لتدخل اليأس في نفوسهم من القدرة على مقاومتها ، فتصدّهم عن العدوان وتحملهم على طلب الصلح : فيأتي طلبه منهم لا منا ، لأن طلبنا له منهم ضعف لا يرضاه الإسلام لنا ، وقبولنا له اذا طلبوه منا سماحة وقوة . ولهذا قال تعالى في محكم كتابه المبين (ولا تَهِنوا وتدْعُوا إلى السَّلْمِ وأنتمُ الأعْلَوْن واللهُ مَعَكمْ ولنْ يَتِرَكم أعمالكمْ) . فالآية أيها السادة تشير من طرف خفي الى هذا الاستعراض وهذا التلويح بالقوة في أوجه الأعداء ، وإلى طلبه إظهاراً للقوة لأن الإرهاب المقصود لا يتأتى إلا به . وهذا هو ما تفعله الدول الكبرى اليوم من استعراضات ضخمة لجيوشها ، ومناورات كبيرة بجميع الأسلحة وبالذخيرة الحية في البر والبحر والجو ، وبما تقوم به من تفجيرات ذرّية وتجارب نووية وصواريخ فتاكة جهنمية ، تلويحاً بالقوة يحمل معنى التهديد والإنذار . إذاً فالإسلام أول من دعا الى هذه المناورات ، لإرهاب الأعداء وإرغامهم على الجنوح الى الصلح ، ليصل بذلك الى السلام الذي يحبه ويحبذه .

وبما قررناه أيها السادة يتضح أن السلام الذي يرمي اليه الإسلام هو سلام تفرضه القوة لا الضعف، وتمليه الرغبة في حقن الدماء لا الرغبة في سفك الدماء، سلام يحقق الأمن والعدل لا البغي والعدوان.

وهكذا أيها السادة أمر الشارع الحكيم بإعداد ما نستطيع من قوة لإرهاب الأعداء وحملهم على المهادنة، لتحقيق السلام في ظل عدالة الإسلام. فإن السلام لا يتحقق ولا يُصان إلا بقوة تحميه، وسياسة مثلى تمليه، واقتصاد سليم يقوّيه، وعدالة اجتماعية تشيده وتبنيه، وتضامن حقيقي يرسيه.

الاسلام يدعو الى السماحة واحترام الاديان تعزيزاً للسلام

لما استكمل المسلمون قوتهم، واجتمعت كلمتهم، وأمروا بالجهاد في سبيل الله تعالى. أخذ النبي ﷺ يبعث السرايا، ويرسل الرسل والجيوش لدعوة الناس الى الإيمان، ونبذ الشرك وعبادة الأوثان وترك جميع الضلالات والأوهام. ورفع خلفاؤه من بعده علم الجهاد، ناشرين دين الاسلام في شتى البلاد. وكانوا جميعاً يوصون قواد جيوشهم وسائر جنودهم بأن لا يقاتلوا قبل الدعوة وقبل عرض الجزية. وبأن لا يقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً هرماً، ولا امرأة، وأن لا يقطعوا شجراً لا يضرهم، ولا يمثلوا بآدمي ولا بهيمة، وأن لا يظلموا ولا يعتدوا. وأن أيما رجل من أقصاهم أو أدناهم أعطى رجلاً من الكفار أماناً وأشار اليه بيده فأقبل اليه بإشارته فله الأمان حتى يسمع كلام الله فإن قبل الاسلام فهو أخوهم في دينهم له ما لهم وعليه ما عليهم وإن أبى فليردوه الى مأمنه سالماً. فإن ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم على أقصاهم. ومن خفر ذمة مسلم فعليه اللعنة. وأنهم سيجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع، فأوصاهم

أن لا يتعرضوا لهم بأذى وبأن يدعوهم وما حبسوا أنفسهم له الى غير ذلك من الوصايا القيمة. التي حفلت بها كتب السير والمغازي والتي تدل على حسن سياسة الاسلام وبعد نظره وسماحته ، ولم ينتقص الاسلام ديناً من الاديان السماوية ، وإنما انتقص أصحابها الذين غيّروا فيها وبدّلوا ، وحرّفوا وكتموا ولم يحكموا بما أنزل الله عليهم من كتاب . كما أنه مدح المعتدلين منهم والمؤمنين ، وأخبر أنهم يؤتون أجرهم مرتين ، ونعى على الكافرين منهم والمتعصبين كفرهم وتعصبهم وعدم وفائهم بعهدهم ، وشنع عليهم في كل ما ارتكبوه من جرائم وخالفوه من أوامر اتباعاً للهوى وحرصاً على المال والرئاسة والجاه ، قال تعالى في كتابه العزيز : (يا أهلَ الكتابِ لِمَ تكفرونَ بآياتِ اللهِ وأنتم تشهدونَ . يا أهلَ الكتابِ لِمَ تلبسونَ الحقّ بالباطلِ وتكتمونَ الحقّ وأنتم تعلمونَ) . وقال : (يا بني اسرائيلَ اذْكروا نِعْمَتِيَ التي أنعمْتُ عَليكم. وأوْفوا بعَهْدي أُوفِ بعَهْدكم وإيايَ فارْهَبون . وآمنوا بمـا أنزَلتُ مُصدّقاً لما مَعكم ولا تكونوا أوّلَ كافرٍ به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإيايَ فاتقون) . وقال أيضاً : (يا أهلَ الكِتابِ لسْتم على شيء حتى تُقيموا التّوْراةَ والإنجيل وما أنزلَ إليكم من ربّكم) . إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تندد بأعمالهم الخبيثة ونفوسهم الشريرة وصفاتهم الدنيئة . كقتلهم الأنبياء بغير حق واعتدائهم في السبت، وعبادتهم العجل، وافتئاتهم على مريم، وأخذهم الرشاوى، وأكلهم الربا وقد نهوا عنه ، وعدم تناهيهم عن المنكر ، وترك تآمرهم بالمعروف الى غير ذلك من المخازي والمناكر التي لا يتسع المقام لسردها . وقد مدح الاسلام سائر الأنبياء والمرسلين، وأثنى عليهم أجمعين أحسن ثناء، وأمر أتباعهم وجميع الناس بالايمان بهم وبالكتب المنزلة عليهم ، وبتوقيرهم واحترامهم قال تعـالى في كتابه العزيز (قولوا آمنّا بالله وما أُنزلَ إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ واسماعيلَ وإسْحاق ويَعْقوب والأسباطَ وما أُوتيَ موسى وعيسى وما أُوتيَ النبيُّون من

رَبِّهِم لا نُفرِّق بَيْن أحدٍ مِنْهم وَنَحْنُ له مُسْلمون ، فَإنْ آمنوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُم بهِ فقــد اهتَدوا وإن تَولوا فإنما هُمْ في شِقاقٍ فَسَيَكْفيكَهُم الله وهو السَّميعُ العليمُ) .

وهذا كله أيها السادة يدل على سماحة الإسلام وأحترامه للأديان السماوية تآلفاً للقلوب وحباً في السلام ، وترغيباً لأهل الكتاب في دخول الإسلام ، أو في دفع الجزية والاستسلام ما دام الاسلاموهو في عز قوته ومنعته وتفوقه يرضى منهم الجزية ، ويتركهم وشأنهم لا يمس عقائدهم ولا يجبرهم على ترك دينهم ، ويسمح لهم بإقامة صلواتهموطقوسهم ، ولا يتعرض لكنائسهم وبيعهم وصوامعهم ولا يكرههم على الدخول في الاسلام ما داموا يدفعون الجزية وإنما يدعوهم إليه بالرفق واللين والحجة والبرهان . ويريد منهم إذا أرادوا الدخول فيه أن يدخلوا عن تفهم واقتناع قال تعالى في كتابه المبين (لا إكراهَ في الدين قدْ تبيَّن الرُشْدُ مِنَ الغي) وقال أيضاً (يا أهلَ الكتابِ تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بينَنا وبينَكم أنْ لا نعبُدَ إلاّ اللهَ ولا نُشرك بِه شَيْئاً ولا يَتَّخِذَ بعضُنا بعضاً أرْباباً مِنْ دونِ اللهِ فإنْ تولَّوا فقولوا اشْهَدوا بأنّا مُسْلمون) .

وبهذه الروح الإسلامية السمحة التي تكرم الانسان وتحترم الأديان يسود التفاهم ويعم السلام . وبهذه القيم الانسانية العالية ، والمبادىء الاسلامية السامية انتشر الاسلام في كثير من بقاع الأرض بدون حرب وبدون سفك دماء . فهذه ماليزيا الشقيقة وجارتها أندونيسيا المسلمة قد وصل الإسلام إليهما ، وانتشر في أرجائهما ، مع ما بينهما وبين موطن الدعوة من بعد شاسع وبحر متلاطم ، وصل اليهما عن طريق الدعـــاة المصلحين ، لا عن طريق الغزاة الفاتحين . فلم يعتنقوه مكرهين ، وإنما اعتنقوه مختارين بعدمـا تبين لهم أنه الحق المبين والدين القويم والصراط المستقيم ، وان القرآن كلام الله القويم ، وأن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين. و كفاهم بذلك شرفاً وفخراً ، و كفى بهذا دليلاً على قوة تأثير مبادىء

الاسلام السامية في النفوس . وتعاليمه الرشيدة في القلوب ، وحتى هذه البلدان التي فتحها المسلمون كالهند وباكستان وغيرهما ، من بلدان المسيحيين لم يدخل أهلها في الإسلام مجبرين ، وإنما دخلوا فيه راضين مطئنين ، لما رأوا من سماحته. وحسن مبادئه وجميل معاملته ومحبته للعدل. وكراهيته للظلم. وصحة ما يدعو إليه من توحيد الله تعالى في عبادته والوهيته وأسمائه وصفاته ، ولما رأوا من تواضع المسلمين وتراحمهم ، وتعاطفهم وتآلفهم ، وكرم أخلاقهم ، ونبل صفاتهم فأحبوا الاسلام لكل ذلك وتمسكوا به بعدما اقتنعوا أنه الحق وأن ما سواه باطل ، فهل بعد هذا يجرأ منصف أن يقول أن الاسلام إنما قام بالسيف وانتشر بالسيف ، وهل يقول هذا غير المكابرين والمتعنتين والمتجنين على الاسلام والمسلمين .

الاسلام يحارب العنصرية لأنها تخل بالسلام

ولكي يتحقق السلام بين الناس ويستقر دعا الاسلام الى العدل والمساواة ونبذ العنصرية البغيضة التي تورث الضغائن والأحقاد وتثير الفتن والقلاقل والحروب . وتحمل على الثورة ضد الظلم وضد التفرقة بين الانسان وأخيه الانسان . قال الله تعالى في محكم كتابه المبين : (يا أيُّها النَّاسُ إنا خَلَقْنَاكُم من ذَكَرٍ وأُنثى وَجعلناكم شُعوباً وقبائِلَ لِتَعارَفوا . إنَّ أكرَمكم عِندَ الله أتْقاكم إنَّ الله عليم خَبير) . وقال رسول الله ﷺ : « لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ». أو كما قال رسول الله ﷺ ، ولم يفضل الاسلام أحداً من الناس على أحد إلا بالتقوى والدين والعلم النافع والعمل الصالح . قال الله تعالى في كتابه العزيز : (أفَمَنْ كان مُؤْمِناً كمَنْ كانَ فاسِقاً لا يستوُون) . وقال أيضاً :

(هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . وقال أيضاً : (أَمْ حَسِبَ الذين اجترَحوا السَّيئاتِ أنْ نَجْعَلَهم كالذين آمنوا وعَمِلوا الصّالِحات سواءٌ محياهم ومماتهم ساءَ ما يحكمون) .

ولم يدع الاسلام الى هذه المساواة العادلة ونبذ العنصرية الجائرة بالقول فقط. بل حقق ذلك بين المسلمين بالفعل وبالعمل ، وبحكمته وحسن موعظته وسداد سياسته وجميل إرشاداته، وشدة تأثيره على القلوب بحلاوة أسلوبه وقوة حجته. فأزال الفوارق بين الطبقات وقضى على العصبية ، وطهّر المجتمع الاسلامي من شوائب العنصرية والنعرة القومية والحمية الجاهلية . فأصبح المسلمون كلهم على اختلاف ألوانهم وتباعد أوطانهم وتعدد قومياتهم أمة واحدة تدين بدين واحد وتتمسك بمبدأ واحد . وكلهم يحب أخاه المسلم أياً كان جنسه وكيفما كان لونه، يتألم لألمه،ولا يرضى بظلمه، ولا يخذله ولا يهينه ولا يحتقره، ولا يترك نصيحته والنصح له . ويتعاون معه على البر والتقوى ، ويحب له ما يحب لنفسه حتى أصبح المسلمون جميعهم كالأعضاء في جسم واحـد . كما مثلهم بذلك نبيهم الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم حيث قـال : « مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » . وكما وصفهم بذلك ربهم الرحيم فقال عنهم في كتابه المبين : (محمدٌ رَسولُ اللهِ والذينَ مَعَهُ أشِدّاءُ على الكفارِ رُحماء بيْنَهم) . وحتى أصبحوا يداً واحدة وصفاً واحداً متسانداً كالبنيان المرصوص كما قال رسول الله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه». وكما قال تعالى في كتابه العزيز : (إن الله يُحب الذين يُقاتلون في سَبيله صَفاً كأنّهم بُنْيان مَرْصوص)

وبهذا عزوا وشرفوا ، واستطاعوا أن ينشروا الاسلام والأمن والسلام .

والعدالة الحقة في أوطانهم وفي كل بلد فتحوه ، أو صالحهم فصالحوه ، وفي كل مكان دخلوه . وظل الاسلام على هـذا قروناً عديدة مرهوب الجانب موفور الكرامة . وظل المسلمون سادة أقوياء أعزة شرفاء حتى فشيت فيهم الشعوبية وفرقت بينهم هـــذه العنصرية البغيضة والقومية الضيقة والمبادىء الدخيلة فاختلفوا وانقسموا . واستمر الخلاف بينهم واشتد حتى اقتتلوا ونسوا ما قاله لهم نبيهم العظيم في خطبته في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم. فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى من بعض من سمعه . ألا هل بلغت ألا هل بلغت » .

والعجب كل العجب أن بعض زعماء المسلمين اليوم (هداهم الله) مـا زالوا متعصبين لهذه القومية ويروجون لها وما أتي المسلمون إلا منها. فهي التي فرّقت كلمتهم وفككت رابطتهم وحلّت وحدتهم وجعلت منهم حكومات ودويلات تتنابذ وتتشاحن وتتقاتل وتتطاحن ، حتى أصبحوا شعوباً وأمماً متفرقة من بعد ما كانوا أمة واحدة مؤتلفة ، فضعفوا بعد القوة وهانوا بعد العزة . وهل هـذه القومية إلا من دسائس الأعداء الماكرين لمـــا عجزوا عن قهر المسلمين مجتمعين ، ويئسوا من التغلب عليهم متحدين ، وعلموا علم اليقين بعد ما شنُّوه من حروب كثيرة عادوا فيها خائبين ، أنهم لا يستطيعون النيل من المسلمين إلا اذا فرّقوهم وفككوا وحدتهم ، وحالوا بينهم وبين تضامنهم . فعمدوا الى هـــذه القومية فزيّنوها لهم وألبسوها لباس الوطنية ، وتوّجوها بتاج العنصرية ، وأحاطوها بهالة من الإعجاب والإغراء . فافتتن بهـا المسلمون وتهافتوا عليها ، فمزقتهم شر ممزق وجعلتهم يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي الكافرين .

وأعجب من العجب نفسه أنهم بعد أن تكشف لهم أمرها وتفاقم على الجمع خطرها ، لم يحاولوا الخروج منها الى آفاق الوحدة الإسلامية الكبرى، التي تنظم جميع المسلمين شعوباً وحكومات وأفراداً . ولم يفكر في هــذه المدة الطويلة أو لم يعمل إلا القليل منهم ممن ملأ الله قلوبهم بالغيرة على الاسلام وأهــله في تكوين رابطة إسلامية تربط كل الدول الإسلامية ببعضها البعض ، وتكوّن منها دفاعاً مشتركاً ووحدة اقتصادية وثقافية وسياسية واجتماعية، مع أن الضرورة تدعوهم الى ذلك وتلحّ عليهم فيه ، حرصاً على سلامة أوطانهم والمحافظة على كيــانهم واستردادا لكرامتهم واستكمالاً لأسباب قوّتهم .

والذي أراه أن هذا ليس بالأمر المتعسر ولا بالمستحيل ، اذا خلصت نيّاتهم وصحّت إرادتهم وقويت عزيمتهم ، فإن أكثر بلدانهم متقاربة ومتصلة ببعضها البعض ، ولا تزال الروح الإسلامية كامنة في النفوس . وأهم عناصر هذا التضامن والترابط والوحدة لا يزال موجوداً وسيظل موجوداً الى قيام الساعة ولو كره الكافرون . وتلك العناصر هي الدين الواحد والكتاب الواحد والقبلة الواحدة والعيــد الأكبر الواحد الذي له أهميته في التمهيد لهذه الوحدة والترابط ، فهو المؤتمر العام لجميع المسلمين ، فحبذا لو جعل منه مؤتمراً للقمة كل عام ، مع بقائه مؤتمراً عاماً للجميع .

وإن مما يبشر بالخير ويقوّي الأمل في تحقيق هذه الوحدة الإسلامية الكبرى تشكيل الأمانة العــامة لرابطة الدول الإسلامية ، وجعل مقرّها بهذه البلاد الطاهرة التي من عاصمتها الروحية بدأ الإسلام وفيها وُلد محقق الوحدة ورسول السلام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام . ويزيد هذا الأمل قوة النتائج الطيبة التي أسفرت عنها مؤتمرات القمة ، والتي كان من أهمها تشكيل هــذه الأمانة لرابطة الدول الإسلامية والتي يعقد عليها المسلمون اليوم أعظم الآمال ، متوجهين الى الله

تعالى القدير بقلوبهم في حرارة وإخلاص أن يوفق الرؤساء فيها الى أعمال إيجابية تعيد للمسلمين عزتهم وكرامتهم ، وتحقق لهم تضامنهم ووحدتهم ، وما ذلك على الله بعزيز .

وإنا لنأمل مخلصين أن تتكاتف الرابطتان : رابطة الدول الاسلامية ورابطة الشعوب الاسلامية التي أوجه ندائي هذا من منبرها هذا ، أقول أن تتكاتف الرابطتان على تحقيق ما نصبو اليه من آمال ، فإن الشعوب لا تستغني عن حكوماتها ولا تقوى إلا بها . كما أن الحكومات لا تستغني عن شعوبها ولا تقوى إلا بها فكل منها متمم للآخر ومكمل له . وتلك هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

الخاتمة (نسأل الله تعالى حسنها)

ومما يدل أيها السادة على حب الاسلام للسلام ورغبته فيه وحرصه عليه قوله ﷺ : « أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا » وقوله تعالى في كتابه العزيز (وقاتِلوا الذينَ يُقاتلونكم. ولا تعتَدوا. إنّ اللهَ لا يحبُّ المعتدين). فقد أمر المولى جلت حكمته في هذه الآية الكريمة أن نقاتل من قاتلنا ونهانا عن الأعتداء لأنه تعالى لا يحب المعتدين ، وقوله أيضاً (وإن نَكثوا أيمانهم من بعد عَهدهم. وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمةَ الكفرِ إنهم لا أيْمانَ لهم لعلهم ينتهون).ففي هذه الآية الكريمة كان الأمر بالقتال بسبب أن الكافرين نقضوا عهدهم الذي قطعوه لنا على أنفسهم. وطعنوا في ديننا بألسنتهم فلا يجوز السكوت عنهم بل تجب معاقبتهم ، وتتحتم مناجزتهم . منعاً للفتنة والفساد ، وحماية للسلام . وقوله أيضاً لرسوله الصادق الأمين : (وإمّا تخافَنّ

من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) فهذا الأمر بالقتال يبرره خوف الخيانة لئلا يستفحل أمر الخائنين . ويجر إلى خيانة آخرين فيؤدي الأمر الى الإخلال بالأمن والسلام ، ولنختم هذه الآيات بقوله تعالى في شيء من التوبيخ لعباده المؤمنين : (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً، واجعل لنا من لدنك نصيراً) فإن هذه الآية الكريمة تتضمن الأمر بالقتال لنصرة المستضعفين ورفع الحيف عن المضطهدين ، لأن الإسلام لا يرضى بالظلم ، ويعاقب الفاسقين ، ويوبخ المتقاعدين والمتخاذلين عن نصرة إخوانهم المؤمنين . وهكذا أيها السادة نجد أن الاسلام في هـذه الآيات الكريمة وفي كثير غيرها من آيات الذكر الحكيم ، لم يأمر بالقتال إلا لوجود ما يبرره ويحمل عليه حباً منه في السلام ، وحرصاً على حقن الدماء . وأظن أيها السادة أن كل مـا قدمناه وبيناه وشرحناه يكفي تدليلاً على حب الاسلام للسلام وحرصه عليه ، ويحق لنا أن نقول بعد كل هذا واثقين غير متحيزين ولا مبالغين أن الاسلام هو دين السلام . وأنه لا يمكن أن يوجد سلام في العالم ينظم جمع أرجاء المعمورة ، وينقذ البشرية من الهوة السحيقة التي تكاد تتردى فيهـا إلا باتبـاع مبادىء الاسلام وتشريعاته من أجل السلام ، وسياسته المثلى في تحقيق السلام ، والحفاظ على السلام ، وقبل أن أترك موقفي هذا أرى لزاماً عليّ أن أتقدم بالشكر مني ومنكم لهذه الرابطة الكريمة التي أتاحت الفرصة لهذا الاجتماع الكريم ، في بقعة هي من أشرف بقاع العالمين ، حرصاً منهـا على جمع الكلمة وتوحيد الصفوف وتكاتف الجهود في الدعوة إلى الله تعالى ، وفي إظهار مزايا هذا الدين الحنيف ، والكشف عن محاسنه ونبل أهدافه تبصرة وذكرى لأولي الألباب ، وتوعية للمثقفين ثقـافة غربية من الشباب ، حتى يستطيع المسلمون من صد الخطر الداهم الزاحف عليهم من المضلين والمرجفين والملحدين

والمشككين ، والمنكرين الكائدين لهذا الدين من المبشرين إخوان الشياطين ، وغيرهم من الدساسين الذين ما برحوا يدسون ويخادعون ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين . كما أتقدم بالشكر الخالص باسمي وباسمكم وباسم هذه الرابطة الموفقة إن شاء الله تعالى ، إلى رائد الوحدة والتضامن ، ونصير هذه الرابطة الذي ما زال ولن يزال يشملها بعطفه ورعايته وحسن توجيهاته أيده الله ونصره وحقق أمله ، وأخذ بيده إلى ما فيه الخير للاسلام والمسلمين ، سائلاً المولى القدير أن يوفق ملوك المسلمين وزعماءهم ، وقادتهم وعلماءهم إلى العمل لتعزيز الأخوة الاسلامية بين المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، وإلى توحيد صفوفهم وتدعيم وابطتهم وتحقيق تضامنهم ووحدتهم حتى يتمكنوا من قهر أعدائهم ، واسترجاع ما اغتصب من أوطانهم ، وانتهك من مقدساتهم . اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يرجع السلام فحيينا بالسلام ، وادخلنا الجنة داوك دار السلام . تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والاكرام . وصلى الله على خير الانام ومسك الختام سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه البررة الكرام آمين والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

مشاهدات عن الدعوة الإسلامية في إفريقيا

لفضيلة الشيخ مصطفى العالم

أيها السادة الكرام ،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد :

أستميحكم عذراً قبل التحدث عن الموضوع «مشاهدات عن الدعوة الإسلامية في افريقيا » ، أن امهد بمقدمة قد يكون لها بعض الأهمية :

« أولاً »

كثيراً ما نسمع عن التبشير وخطره ، وانتشاره وتزايده في البلدان الإسلامية عامة ، وتعدُّد طرقه ووفرة رجاله وإمكاناته وتمركزه في القارة الافريقية خاصة ، وذلك بعد أن صممت الممالك والبلدان المموِّلة والمؤيدة والمؤازرة على الوصول في

الشوط الى آخره . وليس ذلك بدلاً ولا جـــديداً ، ولكنه الأمر المفروغ منه والذي بدأه اليهود ضد المسيحية أولاً ثم تعاونا عليه ضد الإسلام ثانياً ، يوم علموا من كتبهم: (ومبَشراً برسول يأتي من بَعْدي اسمُهُ أحمَد). بل هو الأمر المتوقع الحصول والذي أعلنه الله تبارك وتعـــالى لنبيه (ولنْ تَرْضى عنكَ اليهودُ ولا النَّصارى حتى تتَّبِـعَ مِلَّتَهم) ، (وَدَّ كثيرٌ من أهلِ الكتابِ لو يَرُدُّونكم من بعدِ إيمانكم كُفَّاراً) ، (وَدُّوا لو تَكفرونَ كما كفروا فتكونونَ سَواءً) ... الى كثير من الآيات . ورغم ما بذلوا ويبذلون فسيبقى الإسلام كما جاء غضاً طرياً ينساب برقته وعذوبته وفطرته وطبيعته الى كثير من القلوب كلما اشتدت وطأة التبشير .

هل سمعتم عن تعداد للمسلمين يطاول عددهم اليوم ؟ وهل ثمة طائفة بمفردها الآن تبلغ ما بلغه عـدد المسلمين في أنحاء المعمورة ؟ وفي كل يوم نسمع عن إقامة مسجد هنا وهناك في عواصم اوربا وفي أمريكا وفي بقية البقاع ، فلمن هـــذه المساجد ؟ ومن الذي أرغم الإذاعات الكافرة الفاجرة على ترديد القرآن الكريم عند افتتاح البث باللغة العربية ؟..

« ثانياً »

لقد حفظ الله الإسلام في قارة افريقيا بأمور ، منها :

١ – اقتران التبشير للمسيحية بالظلم والاستبداد والتسلط والحكم .

٢ – إجبـار التلميذ المسلم على دراسة الدين المسيحي إذا أحبَّ نيل الشهادة الابتدائية ، حتى إذا ما نجح فالحرمان من مواصلة الدراسة بالإعدادي والثانوي والعالي إذا لم يخرج عن إسلامه ، ثم يعتنق المسيحية جهاراً نهاراً. ولكن من ذاق حلاوة الإيمان ، ثم أجبر على غصة الكفر وتحمّلها سني الدراسة الطوال ، لا يلبث

بعد التخرّج وبعد أن يحظى بمكانته العلمية في الوظيفة الحكومية ، أن يفكر في الانتقام من هذا الإجرام بشتى الطرق وتحدّيه بمختلف الوسائل .

ولذا ، قد تعجبون إذا حدثتكم أن معظم هؤلاء يثوبون إلى رشدهم ويسيطر على مشاعرهم جمال الإسلام وهيبته وسموّه وقدسيته ، وبين مـــا حلّ بهم من الوبال والنكال ومـــا جال في صدورهم من مزاعم المسيحية ، فإذا بهم يعزمون على تكوين الخليـــة المؤمنة العـــاملة على إعادة نور الإسلام وهدايته بين بني جلدتهم .

« ثالثاً »

في الوقت الذي تشير فيه بعض دول الإسلام بلا وعي ولا روية مندفعة نحو الاشتراكية والشيوعية تتحكم آيات الله لتنبيه الغافلين وإزالة الغشاوة عن المضللين ، إذا بالعلمانية التي باضت وأفرخت وأجبر على السير في ركابها الشعب التركي المسلم قد انزاح كابوسها وتوارى شبحها ، بعد سيطرة مـــا يقرب من نصف قرن من الزمان ..

وإذا بالشيوعية الحمراء بعد أن سادت وتمركزت وحطت رحالهـــا وألجمت أندونيسيا بكفر صراح وإلحاد بواح تهوي إلى ما غير رجعة إن شاء الله بعد أن مضت في الشوط أكثر من عشرين عاماً .

وما الانتفاضات المتتالية المتعـــاقبة في الدول التي قبلت بالحكم الشيوعي بأنفسها .

وما انقسام الشيوعية على نفسها واختلاف مبادئهـــا وتنافرها وإذكاء الحرب بينها .

ما كل هذا وأضرابه إلا ويدلنا على المدد الرباني يأتينا كلما أفلست قوى البشر وغلب المسلمون على أمرهم .

ويطيب لي عند ذكر هذا أن أردد منطق الرجولة من أبي جهل حينما قال :

لئن كنا نحارب محمداً كما نزعم فنحن له أكفاء وإن كنا نحارب الله ورسوله كما يزعم فلا طاقة لنا بحرب الله ورسوله .

وقبل التحدث عن مشاهداتي في كينيا ، أطوف بكم سريعـاً على بعض البلاد المزارة .

في عام ١٣٨٦ هجرية وفق الله سفير الأردن في نيجيريا سعادة الأستاذ كامل الشريف ، عضو الرابطة ، لجمع الناطقين بالفرنسية في مؤتمر عام شمل (النيجر والسنغال وفولتا العليا وساحل العاج واللومي والداهومي) وقد شرفتني الرابطة لمراقبة أعماله .

وعندئذ مررت بأكرا فلمست مـا يبذله القائم بأعمال السفارة السعودية هناك من مجهود متواصل في صمت وهدوء، حتى حصل من حكومة غانا على قطعة أرض لإقامة مسجد كبير، لضيق مسجدهـا الذي يضطر كثيراً من المسلمين إلى إرسال سجاداتهم مع بزوغ شمس يوم الجمعة كي يجدوا مكاناً لهم عند أداء الصلاة.

كما عمل على دعم كلية المسلمين ببلدة كامي على بعـد ٩٠ ميلاً من أكرا التي يكوّن فيها المسلمون قوة هائلة متماسكة تطمئن إليها النفوس وتنشرح الأفئدة ، وفي اللومو عاصمة القوجو ممثلون من المسلمين في الهيئة النيابية على رأس الجمعية الاسلامية ، وفي قرطنو عـاصمة الداهومي عدد لا بأس به من كبار الموظفين المسلمين الغيورين على نشر إسلامهم ودينهم . وعنـد زيارتي مساجد الداهومي صباح يوم جمعـة وجدت السيدات يجلسن من الفجر إلى صلاة الجمعة وبينهن من يقرئهن القرآن الكريم والأحاديث النبوية ويعظهن ويرشدهن .

وفي برتنوغو مدينة ثانية من مدن الداهومي وجدت مدرسة في بناء مناسب تقوم على تعليم الاسلام واللغة العربية . كما حدث شيء يدل على عمق الايمان وسلامة الوعي الاسلامي بين جمهور المسلمين . ففي صبيحة أحد الأيام صحوا على صوت سيارات كبيرة تحمل مواد بناء من حديد واسمنت وطوب للمساهمة في إتمـــام الدور الثاني للمدرسة الثانية تجاه المسجد ، فهبوا للترحيب بهذا الاسهام الكبير والمال الوفير الذي يحمله سفير اسرائيل ، ولكن رمي بالحصى والحجارة والصياح المرتفع : ارجع ، ارجع لا نريد تلويث مساجدنا ومدارسنا بأموال اليهود .

وعاد السفير أدراجه يجر أذيال الخيبة والفشل ، وأشاع المرجفون انه لا يمكن للمسلمين اتمام مشروعهم بعد رفض هذه المعونة المغرية ، ولحسن الصدف تواجد وفد دار الافتاء فدفع ألف جنيه استرليني ودفعت باسم الرابطة مائتين ، وألقم الذين استجدوا الكفار حجراً . وارتفعت معنويات المؤمنين المخلصين وتهافت الجميع على تقديم التبرعات حتى أتمّ الله المشروع .

وفي الكونغو كنشاسه اجتمعت الهيئات الاسلامية وكونت مجلساً واحداً للاشراف على تنشيط العمل للاسلام ونتج عن ذلك توظيف أحد الدعـــاة من أصل كنغولي يجيد طرق التخاطب مع القبائل بلهجاتها المتعددة ، فجال في الغابات وبين الأدغال يأخذ القبيلة والقبيلتين إلى دين الله ولازمه التوفيق .

وحدث عن بورندي ولا حرج فهي أمة عربيـــة تجيد لغة العروبة وتفهم اسلامها حق الفهم .

وللمسلمين في بورندي ٢٥ شارعاً متوازية ، وعلى رأس كل خمسة شوارع مسجد به مدرسة ، يتوسط الجميع المسجد الجامع لصلاة الجمعة . ولو أعطي هؤلاء الفرصة ومنحوا منحاً دراسية في التعليم الاعدادي والثانوي أسوة بالجزائر وغيرهـــا لمثلوا قوة اسلامية هـــائلة تستطيع التحرك في افريقيا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حاملة مشاعل الهدى والنور .

أما أوغندا فقد بلغ من تماسك المسلمين حول زعيمهم بعد أن نفى عنه الكاباكا رئيس أوغندا إلى انجلترا أن تركته الحكومة حراً طليقاً .

وعند زيارتي لأوغندا وجدت للجمعية الاسلامية رصيداً بنكياً قدره ٢٧ ألف شلن جمعت لإنشاء مبانٍ سكنية ، ولبنـــاء المدارس الاسلامية ولمصلحة المساجد، غير أنها أهملت حوالي خمس سنوات في انتظار الوصول إلى المبلغ المقرر للبناء وهو ٥٠ ألفاً مع وجود الأرض المتبرع بها للبناء .

وبمجرد تحققي من ذلك كلفت الأخوة بتنظيف المكان من الحشائش والغابات والاعلان عن وضع الحجر الأساسي للبناء بعد عشرة أيام وتسابق الناس مبكرين لتقديم تبرعاتهم النقديـة ، وافتتحتها سيدة بمبلغ خمسة آلاف ريال ، ودفعت الرابطة أربعة آلاف وفي ما يقل عن ساعة زاد المبلغ المطلوب وتضاعف وأخيراً علمت بأن البناء والاسكان قد تم بحمد الله .

كما زرت معهد المعلمين بكمبالا وبه مئات الطلاب والطالبات وبعض المسلمين، ودعيت لالقاء محاضرة فيهم ترجمهـــا أستاذ مصري سبق أن عمل بالسعودية ، والجميل أن قامت فتاة بعد المحاضرة مندفعة تشكر المحاضر وتقول : « لو أن القساوسة بصرونا بمثل هــذا وصارحونا بالأخطار المحيطة بالأديان السماوية من جراء انتشار المبادىء الهدامة التي تتطلع إلى كل سنت وجيب وخزينة، بدلاً من ازكاء روح التعصب ، لنجونا من خطر هذه الأهوال » .

وكم تمنى عميد جامعة كارير جوزيف لولى وحرمه عميدة كليـة البنات سناء لولى زيارة المملكة العربية السعودية للتعرف على نهضتها وازدهارها .

وإن جموع المسلمين ببلنة بسوجا في أعالي النيل ووجود جماعة الاخوات المسلمات في هذا المكان البعيد من افريقية لمنبيء بأن الخير مدخر وأن الاسلام خير دين أخرج للناس .

ومحاضرتي في الموضوع الذي تكرمت الرابطة باختياره « مشاهدات عن الدعوة الاسلامية في افريقيا » هي ليست محاضرة بمعنى الكلمة ولكنها مقتطفات من ذكريات قضيتها في تلك القارة .

والجدير بالذكر أن ملامح الدعوة الاسلامية ظلت في أنحاء القارة الافريقية متجلية في صورة الكعبة بيت الله الحرام ومسجد المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، يزيدها وضوحاً ورسوخاً إذن الرسول ﷺ أولاً لاثني عشر رجلاً وأربع نسوة ، وثانياً لثلاثة وثمانين صحابياً وثمان عشرة صحابية . فقد أذن ﷺ لهم بالهجرة الى الحبشة قائلاً : «إن بها ملكاً لا يظلم الناس عنده» فكانوا مثلاً عالية ، ونماذج حية تراءت للعيان حاملة لواء الاسلام ، وتمت كلمة ربك حين طلبتهم قريش وكانت المناظرة التي أبرزت جلال الاسلام وآدابه وموافقة وقائعه وتصديقه لما سبق من الكتب المنزلة، وإنصافه لمريم العذراء البتول على ملأ من القوم ورؤساء الأديان والكهنوت.. وانتهت برفض تسليم المؤمنين وأخيراً بدعوة الرسول ﷺ الى إقامة صلاة الغائب على النجاشي يوم نعي اليه .

بقيت هذه الملامح حية كامنة في النفوس حتى منّ الله علينا بتأسيس رابطة العالم الاسلامي فأزكت أوار تلكم الشوق المكبوت ، والحب الدفين ، بل وزاده تأججاً واشتعالاً قيام الفيصل بجولته الى ممالك افريقيا وغيرها وتعاونه مع المغفور لهما إن شاء الله أحمد بن بلا وتفاوه بليوه بالتضامن الاسلامي ، فكان بذلك داعية رفع شأن الدعاة ، وقوّى شوكتهم وآزر جهودهم (وَمَنْ أَحْسَنُ قولاً مِمّن دَعا الى اللهِ وَعَمِلَ صالحاً وقالَ إنني من المسلمين) .

وبدت سيماء العز والقوة بجوار نور الهدى والإيمان من مطلع الاسلام وظلت على عهدها حتى حرّكتها قدرة الله العلي الكبير الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وخاب ظن الناس جميعاً يوم أجمعوا على أن التبشير بكل أنواعه ومن ورائه قوى الغرب والشرق بما أُوتيت من سيطرة وأموال ستقضي على الاسلام في قارة افريقيا .

ولعلكم تعجبون إذا أكدت لكم أن الجهود الجبارة قد منيت بالفشل الذريع والاحتقار المزري، والكراهية الأصيلة، لرجال التبشير ووسائله، وليس أدل على ذلك من أنهم بدأوا يلمسون ذلك ويحسونه، فعمدوا الى تربية رجال كهنوت وقساوسة من بين الأفارقة علهم يزيلون بذلك آثار غبائهم وعنادهم .. لكن هيهات .. وقول الله تعالى يلاحقهم أينما كانوا (إنَّ الذينَ كفروا يُنفِقُونَ أموالهم ليصُدُّوا عن سبيلِ اللهِ فسَيُنفِقونها ثمَّ تكونُ عليهم حَسْرةً ثم يُغلبون) .

وإليكم على سبيل المثال ما قام به بعض المسلمين من مجهودات مبسطة وميسرة والنتائج التي وصلوا اليها وحققوها مما لمسته بنفسي أثناء زياراتي :

١ ـ فيما بين كامبالا عاصمة أوغندا ومساكا ١٢٠ ميلاً قيض الله لهذه المنطقة الشيخ عبدالله بن محمد ان يدخل الغابات والأحراش ويصيد البقر والجاموس الوحشي. فاذا صاد شيئاً ذبحه وأوقد النيران ودق الدف فتوافيه القبائل، يقتطع الواحد ما شاء من اللحم ويضعه على النار ثم يأكلون ويتمايلون على صوت الدف في نغمة حلوة عذبة محببة سهلة :

لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ .

فإذا جاء وقت الصلاة قام وتوضأ أمامهم فيقلدونه ويصلي فيصلون وبعدها يتمسكون ببقائه عندهم حتى يحفظهم الفاتحة والاخلاص والمعوذتين، ثم هو لا يكلفهم أكثر من إزار يلفونه حول العورة عندما يريدون الصلاة، وبعد أن يأنس منهم الفهم والعمل (والصلاة عادة) يأخذ بعض اللحم لتموينه الخاص ثم يخرج الى الطريق المسفلت فيدعو الناس الى الاسلام .. وهكذا دواليك جيئة وروحة حتى ضج منه أساطين الكفر وتخلصوا منه .

٢ ـ في منطقة جرسين ما بين لامو وماليندي بكينيا رجل اسمه سعيد يسلم

المشجري رحل اليها طلباً للرزق،واشتغل ببيع العقود والبناجر والحلي ، إلا أنه كان مثلا طيباً في معاملة الناس ، فمن أراد شيئاً أعطاه ، سواء دفع أو أجل ، ومن تأخر في رد الثمن تركه دون مطالبة ولكنهم يعودون فيعوضونه من منتجات أرضهم وحاصلاتهم ، فيبيع هـذا ويشتري ذلك وهكذا حتى أصبح بينهم موضع المحبة والاحترام والتقدير .

وكل ما يعمله إذ أتى وقت الصلاة أن يؤذن ويصلي فيعجب به البعض ويؤدون الصلاة معه ، ثم يذهبون ويعودون اليه بعد فترة يطالبونه بأن يختنهم فقد أصبحوا مسلمين ، وأتوا يعاهدون الله على عدم العودة الى الكفر فيقول لهم أنتم مسلمون ولا داعي للختان فيصرون على ذلك ويحتفل بهم احتفالاً بسيطاً. واستمر الحال على هذا المنوال من ١٩٢٧ م الى ١٩٣٧ م. عشر سنوات دخل المنطقة وليس فيها مسلم واحد . ينتهي الأمر بأن لا يبقى بها وثني واحد وأصبحت المنطقة العامرة بالإيمان التي يفد منها معظم حجيج كينيا .

ولما أعلمهم بمروري جاءوا من بعـــد ٦٠ ميلاً أو تزيد ليجلسوا معي بعض الساعة .. هذه هي بساطة الدعوة وفطرة النـاس تثمر الثمار الطيبة ، فما بالنا لو أدينا واجبنا كما يجب نحو ديننا ودعوتنا ؟

ولقد كان أول عهدي بزيارة افريقيا في عيد استقلال كينيا بناء على دعوة : « سنترال كونسل أف كينيا مسلم » في الثالث والعشرين من رجب ١٣٨٣ هـ. وكانت فرصة سانحة زرت فيها مساجد نيروبي وهي ضيقة غير أنها نظيفة ، ومحل عناية كبيرة ، وبكل مسجد في احدى ساحاته مدرسة يقوم بتدريس اللغـــة العربية والدين الاسلامي بها شيخ المسجد ، كما توجد مدارس عديدة يدفع الطفل شهرياً ربع شلن أو بعض المنتجات من قصب السكر أو الموز أو النرجيلة أو اللوز وهكذا .. وهناك أكثر من ١٢٠ مدرسة وسط الغابات والأدغال على هذا

النمط يفترش تلاميذها الأرض ويحتمون من السماء بأوراق الشجر فاذا استبد بهم المطر فرقهم أيدي سبأ .

رأيت بمدرسة ٤ مستويات من الاولاد و ٤ مستويات من البنات يقوم عليها استاذ حضرمي واحد ، يحجب البنات عن البنين ببعض الأقمشة البالية ويبذل مجهوداً ممتـــازاً ، وكانت المكافأة التي تقدم لكل مدرسة في حدود ١٠٠ شلن ما بين مكافآت تشجيعية للمتفوقين في الإجابـة على الأسئلة الدينية في حدود شلن أو نصف الشلن ، وأخرى للاساتذة ما بين ٢٠ و ٤٠ شلناً .

وعدد المسلمين بنوروبي	٨٠٠٠	هندي
	١٠٠٠٠	عربي
	٩٥٠٠٠	افريقي
	١١٣٠٠٠	المجموع

ومن الاسماعيلية	٤٠٠٠٠	
ومن القاديانية	٣٠٠٠	
ومن المسيحيين	٣٥٠٠٠٠	هذا في بيروبي وضواحيها

أما مدينة ممباسا ففيها مليونان وأكثر من المسلمين .

ولم يترك المستعمر قبل الاستقلال أية فرصة للمسلمين للثراء او العلم ، بينما أتاح بعض الفرص لغيرهم من الكريستان .

وصادف عيـد استقلال كينيا الخميس ٢٥ رجب ٨٣ هـ . واجتمع للصلاة في يوم الجمعـــة في إحدى الساحات الكبيرة المزودة بمكبرات الصوت ، أمام أكبر مساجد نيروبي ، حوالي خمسة آلاف مسلم ألقيتُ فيهم الخطبة وترجمهـا الاستاذ علوي قاسم واعظ الرابطة الآن بكينيا .

والذي يريح النفس أن حكومة كينيا لا تمانع في نشاط الجمعيات الاسلامية ، بل وتسمح لهـــا بتوظيف مدرّس او أكثر بمدارسها الحكومية ليقوم بتدريس الدين الإسلامي للتلاميذ المسلمين، ثم تدفع الجمعية للاستاذ راتباً يتراوح بين ١٥٠ شلناً و ٣٠٠ شلناً فقط.. كما ان الجمعيات المسيحية توظف أعداداً كبيرة لتدريس الدين المسيحي وتدعمه بكل مـا في وسعها من إمكانات ... ولكن مع الأسف الشديد فإن ضيق ذات اليد التي تسم معظم المسلمين ، جعل الجمعيات لا تدلي في هـذا المضار إلا بقدر مـــا تسمح لها مصادرها المالية ، ولذا فمعظم المدارس الحكومية خالية من استاذ لمادة الدين الإسلامي .

ومما يسرّ بعض الشيء وجود مدرسة الاستاذ علوي قاسم بممباسا ، ومدرسة الفلاح وغيرها . ومعظم المدارس او قل الكتاتيب تفترش الحصير القديم ، وقد تمكنت في احدى زياراتي من استبدالهـــا بالمشمع الذي قمت بشرائه وفرشه بنفسي .

ومما يزيدنا اطمئناناً ما شاهدته في ممبروي من مدرسة كاملة المنهاج وافيـــة البرامج متوسطة الأثاث ، تقوم عليها جمعيـــة ممبروي وعلى رأسها الشيخ عمر سالم باطيف يجمع التبرعات ويبني الدور والدكاكين والطواحين لتموينها ... وقـــد مكّنها الإخلاص والمثابرة من بنــــاء مسجد ممتاز على ساحل المحيط من أروع وأجمل مساجد كينيا ، ومعظم أهلها يجيدون اللغة العربية .

وتوجّه وفد السعودية المؤلف من سعادة الشيخ محمد مسعود وسعادة ابراهيم نوري مندوبا وزارة الخارجية لحضور عيد الاستقلال، يرافقهما مصطفى العالم الى ممباسا، في صباح ٢٨ رجب. وحدّث عن الحفاوة ولا حرج، وعن الكتل البشرية التي وقفت في انتظار وصول القطار ، وعن الاستقبال الرائع والاحفال الكبيرة المقـــامة لتكريم المملكة العربية السعودية في شخص المندوبين، وتعالت الأصوات بالهتاف للمليك والتيمّن بالمقدسات والمبـــاهاة باعتناق الإسلام دين الله ، بين التكبير

والتهليل والحمد والثناء على الله الذي هيأ هذه الفرصة النادرة التي كانت سبباً في جمع شمل المسلمين وتضامن هيئاتهم وتماسك الجمعيات الإسلامية .

وقد عاد مندوبا الخارجية في المساء ، وبقي مندوب الرابطة خمسة عشر يوماً بين زيارات واجتماعات وتنقلات في أرجاء إقليم ممباسا الواسع الشاسع ...

ومن باب تقرير الحقائق ، لقـــد اختارت الجمعيات سعادة عبد الرحمن عمر شيكا سكرتير جمعية مسلم كونجرس، ونائب حاكم ممباسا لترتيب الزيارات وتحديد موعد العظات واختبار الأولاد بالمدارس وتوزيع المكافآت وتنظيم اللقـاءات الخاصة والعامة .

وكان مسك الختام إقـامة مهرجان الإسراء والمعراج الذي أذيعت كلماته من محطة الإذاعة على الهواء ، ممـــا كان له أثره في تودد كثيرين من الاسماعيليين والقاديانيين الى أهل السنة والجماعة وعزمهم على الصيام معهم وأداء أوقات الصلاة في مساجدهم .

وبعـــد العودة الى نيروبي زارني بالفندق الوزير منيومبا وزير الكهرباء والأشغال والمواصلات ، يدعوني لزيارة الرئيس جومو كنياتا . وحضر المقـابلة الوزير مورمبي سكرتير الرئيس ، وتولى الترجمـــة الشيخ عيد بن فرج النجدي ومساعده الوزير منيومبا . وكان هدفي من هذه المقابلة المطالبة بتهيئة الفرص أمـــام المسلمين ، ليكونوا الى جوار المواطنين الكريستان حاجزاً منيعاً ضد الصهيونية والمبادىء الهدامة .

وكانت مقابلة كريمة ضمنت حقوق المسلمين وفسحت أمامهم المجـال للعمل والإنتاج والتقدم الى الهيئات النيابية ، وقـــد ظهر أثر ذلك في زياراتي لغرب وشرق ووسط افريقيا ، حيث علمت أن عـدد ممثلي المسلمين في المجلس النيابي ٢٣ نائباً من بين ١٢٧ نائباً .

ويوجد الآن بكينيا واعظان لرابطة العالم الإسلامي تمنحها الرواتب الشهرية ، هما :

الشيخ سعيد أحمد القمري : واعظ الإذاعة .

الاستاذ علوي قاسم : مدير وصاحب مدرسة بممباسا .

وإن شاء الله سنتوفق الى تعيين الاستاذ أحمد أحمد بدوي واعظاً بمنطقة مالیندی ... ومَن سار على الدرب وصل .

وختاماً : هـذا جزء من كل عن مملكة واحدة من ممالك افريقيا الواسعة المترامية الأطراف ، وإليكم أخيراً بعض الطرائف :

١ — ما بين نيروبي وممباسا منطقة مساحتها ١٢٠ ميلاً يحرم فيها اصطياد الحيوانات البرية بل ويعاقَب صائدها بعقوبة أقوى من عقوبة القاتل .

تشاهد أثناء مرورك بالسيارة الفيلة تسير في هدوء ، والزرافة تضع رأسها فوق الأشجار ، والنعامة في الجانب الأيمن في انتظار اختها الواقفة على الشمال ، والحمير الوحشية والغزلان وغيرها ... الكل آمن غير مروع ينظر الى المارين وإلى سياراتهم نظرة عادية هادئة .

٢ — يمكنك دخول هـذا البارك الطبيعي من باب خاص راكباً سيارتك لترى النمور والاسود والوحوش والأفاعي والحيّات ، بشرط عدم فتح نوافذ السيارة وأن تكون رابط الجأش عندما يقفز النمر من فوق السيارة وأن لا تزعج أياً منها بصوت البوري .

وقـــد ترى مجازفاً يعرف اتجاه الريح فيأتي بسيارته الفولكس من الجهة المضادة ليمر من تحت أرجله الأربعة بغاية السرعة .

ومن فتح الباب فاحتضنته حيّة او خطف ذراعه أسد فلا يلومنّ إلا نفسه. ورسم ذلك جنيه استرليني واحد .

٣ – ما بين لامو ومالبندى سترى كل أنواع النسانيس والقردة والغوريلا تملأ الطريق ، فإذا مـــا اقتربت منها أسرع قائدها لصعود شجر الدوم المتناهي في الارتفاع المتفرع الى أربع جهات بعد علو ما يقرب من عشرة أمتار .

ومن أراد أكل الدوم الأحمر اللين الجميل ضرب بحجر فيتكاثر عليه وقـــد يؤدّي الى قتله .

٤ – أما أشجار النرجيل فقد امتلأ بها ساحل المحيط . وستجد في الطريق من يقول لك : مدافو مدافو .. لتدفع جزءاً من القرش وتشرب ماء النرجيل وتأكل ما بداخله لحماً طرياً .

٥ – هل سمعتم عن شجر الصوف ؟! وهل تعلمون أن الأرض تنبت ما يشبه البطاطا في طول ذراع وغلظه يُؤخذ منه دقيق يُصنع منه الخبز ؟؟ وهل أكلتم خبز النرجيل بالحوت ؟!

٦ – من وسائل إكرام الضيف أن يُقـــدّم اليه لحم صيد من أجود أنواع الظباء والمها وغيرهما ...

وإذا نزلت بلاد الخير والبركات والفواكه والمزروعات ، وجـــدت أنساً ويسراً وسهولة ، وحللت أهـلاً ونزلت سهلاً ... فانظروا الى البلاد التي تحبكم

محبـــة شديدة وتقـدّس مقدّساتكم وتهفو الى أوطانكم ، ولا تضيعوا إجازاتكم هباءً .

وإلى لقـــاء آخر احدثكم فيه عن اوغنده وأورندى وبورندى والكونغو ونيجيريا واللامو والداهومي ومسلمي شرق ووسط وغرب افريقيـا ، شاكراً لكم تجاوبكم والحرص على تلبية الدعوة ... والسلام عليكم ورحمة الله .

مصطفى العالم

●

الفهرس

صفحة

صفحة

مطبعة شعاركو

طبع جميع أنواع المطبوعات

تلفون : ٢٨٦٨٣٢

بيروت — لبنان


Bibliotheca Alexandrina
0210694